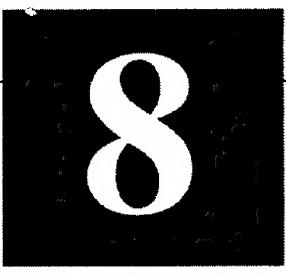


مُؤْمِنٌ بِالْجَنَاحَيْنِ

من هنا نعلم... د

طبعة جديدة ومحققة



8



العنوان: من هنا نعلم...!

المؤلف: الشيخ/ محمد الغزالى .

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم .

تاريخ النشر: الطبعة الخامسة يناير 2005م .

رقم الإيداع: 2003 / 15363

الترقيم الدولي: ISBN 977-14-2390-8

الادارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة
ت: 02)3466434 - 3472864 (02) فاكس: 02) 3462576 (02) ص.ب: 21 إمبابة
البريد الإلكتروني للادارة العامة للنشر: publishing@nahdetmistr.com

المطبع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 02) 8330289 - 8330296 (02) فاكس: 8330296 (02)
البريد الإلكتروني للمطبع: press@nahdetmistr.com

مركز التوزيع الرئيسي: 18 ش كامل صدقى - الفجالة -
القاهرة - ص . ب : 96 الفجالة - القاهرة.
ت : 02) 5908895 - 5909827 (02) فاكس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجاني: 08002226222
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: sales @nahdetmistr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريقة العريبة (رشدى)
ت: 03) 5230569

مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: 050) 2259675

موقع الشركة على الانترنت: www.nahdetmistr.com
موقع البيع على الانترنت: www.enahda.com



**احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / C D)
وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البائع
www.enahda.com**

جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

تمهيد

الإسلام كلمة الله الأخيرة إلى الخلق كافة ، استواعبت حقائق المعاش والمعد ، وضمنت سعادة الدنيا والآخرة ، واستغنى بها البشر عن كل إصلاح مقترن ، أو تعليم مفتعلة . قال تعالى : « وَتَمَتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صَدِقًا وَعَدْلًا لَا مُدَلِّ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » (١) .

وقد تلقى محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه هذه الرسالة الخاتمة ليبلغها الناس جمیعاً ، ولیقیم على أساسها دولة الحق والعدل والإحسان ، ویحوی بها دعائمن الباطل والظلم والطغيان . وليس الإسلام فوق مستوى العقول فتضل في فهمه ، ولا مخالفًا للفطر فتحید عنه .

والإنسانية على ضوء الوحي وهداية العقول تستطيع أن تحقق مُثُلَّها العليا وتبلغ أهدافها الكبرى دون أن تتعرّض أو تضل الطريق .

عرف هذا رجال الدعوة الإسلامية بعدما رأوا تصدع الحضارة الغربية وفشلها في إيجاد حياة مستقرة ، ينعم الناس في ظلها ، ويشعرون معها بالسعادة والرفاية ، فهباوا يطالبون ولاة الأمور وأصحاب الحل والعقد بوجوب الأخذ بتعاليم الإسلام وينذعون في الناس أنها وحدها هي سبيل الإنقاذ وطريق الخلاص .

وفي أثناء التحمس لهذه الفكرة ، وخلال التكتل حولها انبعث صوت ناب منكر ، يحاول التشكيك في تعاليم الإسلام ، والحط من قيمتها كوسيلة عملية للإصلاح ، وكمنهاج لأمة تريد أن تشق طريقها إلى المجد وتتبؤ مكانتها تحت الشمس .

طلع كتاب «من هنا نبدأ» لا ليرسم الطريق الصحيح أو يضع الخطة المثلثى ، بل ليعطى أعداء الإسلام وخصومه سلاحاً يشهرونه في وجوه المصلحين .

وكم طرب الخصوم وصفقوا لهذا الاتجاه . إنه عالم أزهري يريد أن ينحي الإسلام عن واقع الحياة ، إنه يلبس الحق بالباطل ، ويصرح بأنه كتب بعض فصول الكتاب ليهاجم به حملة الإسلام ودعاته من حيث الفكرة والبدأ ..

(١) الأنعام : ١١٥ .

وهو بهذا يسجل على نفسه أنه خصم للإسلام وال المسلمين .

لم يكن بد من أن يقوم في وجهه رجل من رجالات الإسلام وعلم من أعلامه ، ليضع الأمور في نصابها ويكشف عن زيف كتاب «من هنا نبدأ» ، ويظهر حقيقة الإسلام كما في كتابه وعلى لسان نبيه .

وها هو ذا فضيلة الشيخ محمد الغزالى يقدم كتاب «من هنا نعلم» ليدحض به الشبهات التي أثارها صاحب كتاب «من هنا نبدأ» ويبيط اللثام عن أخطاء كبيرة وقع فيها ، ويظهر الإسلام في نقاء وصفائه ، على أنه الدين القيم المنقذ للحضارة والحارس لقوماتها النبيلة ؛ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلَّدِينِ حَنِيفًا فَطَرَتِ اللَّهُ اَتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ خَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١) .

وكم كان موفقاً كل التوفيق حين كتب مبيناً علاقة الدين بالدولة وأنهما وحدة لا تقبل التجزئة ، وأن كل محاولة للفصل بينهما إنما هي إفساد للإسلام وعدوان عليه من حيث هو عقيدة وشريعة على السواء .

وقد استوعب الدلائل الخامسة في هذا الموضوع في باب «حكم إسلامي لا قومي» .
وإذا كان صاحب كتاب «من هنا نبدأ» قد أساء إلى الإسلام ورجالاته عندما تكلم عن «الدين والكهانة» فهو على القارئ ، إذ سلك الإسلام مع غيره من الأديان الباطلة في نظام واحد ، وسوى بين علماء الإسلام - أخطأوا أم أصابوا - وبين كهنة (براهما) وسدنة (بوذا) .

فإن فضيلة الأستاذ محمد الغزالى قد فضح هذا التمويه الجرىء وأنصف الإسلام من تاجروا به كما أنصفه من تهجموا عليه .

وفي باب «المرأة والمجتمع» يسرد تعاليم الإسلام التي أعطت المرأة حقها كاملاً وحددت وظيفتها الصحيحة ، وحمتها من التيارات العابثة ومطامع الشهوات الدينية ، وتعقب باستنكار مسلك الشياطين المخدوعين بأوروبا من طوعوا للمرأة ولأنفسهم المروق من شرعة الأدب والفضيلة ، والتمهيد لحياة التحلل والانطلاق الأعمى .

(١) الروم : ٣٠ .

وأما كلام فضيلة الأستاذ عن الإسلام والاشراكية ، فحسبنا أن نذكر أنه كان الرائد الأول للكتابة المستفيضة في هذا الموضوع فقد أخرج للناس من قبل «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» و «الإسلام والمناهج الاشتراكية» و «الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين » .

وهذه الكتب وما نشر له من بحوث متصلة بها ، تعد المصادر الأولى لما ظهر بعد ذلك من كتابات في الاشتراكية الإسلامية .

* * *

وهذا الكتاب ليس ردًا للشبهات محدودة ، إنه دفاعًأولاً عن تعاليم الإسلام ، وبيان جيد لما انطوت عليه من قيم ، ثم هو بعدُ كشف خبايا الهاجمين على هذا الدين ، والجهات التي ينفّسون عن حقدتها ، ويحقّقون مآربها ..

وستظل الحاجة إلى هذا الكتاب ما بقى الغزو الثقافي مُلحِقاً في النيل من مقدساتنا ، مُوعلاً في افترائه على الإسلام ، وما بقى له أذناب يتحرّكون بحركته ، ويعملون تحت رايته .

وهكذا يأبى الله ألا تشار حول دينه شبهة إلا ويقيض لها من يهتك ستراها ، ويريح غبارها «**وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثْلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا**»^(١) .

نسأل الله أن يجزيه عن الإسلام خير الجزاء وأن يوفقه للعلم النافع .

صالح عشماوى

٨ من محرم سنة ١٣٧٠ هـ
٢٠ من أكتوبر سنة ١٩٥٠ م

(١) الفرقان : ٣٣ .

مقدمة الطبعة الثانية

التدین طبیعة أصلیة فی أهل هذا الوادی ، عرّفوا به من فجر التاریخ إلی يوم الناس هذا ! .

على عهد الفراعنة الأولین كانت حضارة مصر متمیزة بهذا الطابع الفريد .
كان المصريون يفكرون فيما بعد الموت ، ويستعدون للدار الآخرة استعداداً لم يؤثر
مثله عن غيرهم ، ويتخزون الألهة لثواب القبر وعقابه ، ويعتبرون الحياة الدنيا جسراً
خلود طویل !

ذلك .. على حين كان جيرانهم بين محبوس فى سجن الضرورات المادية الضيقة ،
أو مشغول بالجدل الفلسفى المتشعب .

فلما ظهرت المسيحية ، واعتنقها الرومان ، ودخل المصريون ، لم تلبث الفوارق بين
الطبیعة الخلصۃ في تدینها والطبیعة الجافة الملتویة أن تکشفت وبرزت . فقدم المصريون
شهداء کثیرین لعقائدهم ، وثبتوا أمام تحجم الرومان وعسفهم .

ولا يزال المصريون الأقباط أخلص لسيحيتهم ، وأحفظ لشعائرهم من مسيحيي
أوروبا . والعامی منهم يؤدى واجبات دینه كما لا يؤدیها أسقف غربی !!
ثم جاء الإسلام . وساح حملته في آفاق العالم يعرضون على الناس آياته ،
ويلطمون الجبابرة الذين أوصدوا الأبواب على التقاليد البالية ، ثم دفعوا بالأم وراء
حواجزها .

وتفرست الأم في ملامح هذا الدين الجديد ، ومحضت عناصره . فلما اطمأنـت إليه
بدأت تطرح ما ورثت وتأخذـ ما عرفـت .

وكان المصريون في طليعة من دخلوا في دین الله أفواجا .

لقد دخلوا فيه بـإخلاصـهم العـريق ، وإيمـانـهم الوـثيق ، وإنـقـالـهم المعـهـود علىـ الحق ،
واستعدادـهم الـقـديـم لـبذـلـ النـفـسـ والنـفـيسـ فيـ سـبـيلـ ماـ يـعـتـقـدونـ .
ومرت العـصـورـ بأـحـدـاثـهاـ فإذاـ مصرـ عنـدـ الـظـنـ بهاـ .

زللت الأرض زلزالها تحت وطأة التتار الذين محووا معالم الحضارة في أزهر العواصم^(١) وأنصر البقاء .

واندفع السيل المجنون إلى حدود مصر يبغى القضاء على أمنع معاقل الإسلام في الدنيا وشاء الله أن يلقى على هذه الحدود حتفه^(٢) . فتللاشى وذاب .

و كذلك اندفعت الصليبية الغربية في غل دفين و توحش مرريع ، اندفاع العواصف المدمرة ، و رجفت شتي بلاد الإسلام من عنف الويلات التي أنزلتها لها أولئك الغزاة السفهاء . و انتصبت مصر أمام هذا الروع ، و ظلت مائتى عام تقاوم حتى ارتد خاسئاً ذليلاً !

إن الدين مفتاح الشخصية المصرية !

إذا وجدت هذه النفس الطيبة متنفسها العميق في الإسلام من حيث إنه عقيدة ، و سياجها المتين في الإسلام من حيث إنه نظام .

إذا وجد الإسلام من هذه الأمة الطيبة أفقده تهوى إليه ، و تنفذ تعاليمه و تتحقق أهدافه . فانتظر نهضة ناجحة و مستقبلاً مشرفاً و خيراً غزيراً ، لا لمصر وحدها ولا للعروبة وحدها ، ولكن للعالم أجمع .

* * *

وال المستعمرون للشرق الإسلامي يعرفون هذه الحقيقة جيداً ، ولا يتوجسون شرّاً من شيء توجسهم من قيام حركة إسلامية تصل ما انقطع من تاريخنا ، و تتصل اتصالاً مباشراً بفطرتنا و ميولنا ، و ترشحنا للقيام بواجبنا العتيد على النحو الذي أنقذنا به الحضارة الإسلامية . يوم بصقنا على الهياج التترى فأطfaنا ناره ، و تصدينا للهجوم الصليبي ففككنا آثاره ، و غسلنا أقداره !

و من ثم ركز الإنجليز والفرنسيون وغيرهم - من كهنة السياسة و زبانية الاستعمار - ركزوا قواهم في فصل الدين عن الدولة ، وإبعاد الإسلام عن ميادين التشريع والتنفيذ ، ودفعه إلى الوراء ليعيش - إلى حين - في مسجد مهجور ، أو لتقرأ آياته في حفل كثيب .

ولئن بذل الاستعمار الخارجي جهوداً متتابعة في هذه السبيل ، فإننا لن ننسى جهود الاستعمار الداخلى التي تسانده من ناحية أخرى .

(١) استطاع التتار بتحريض من الصليبيين إسقاط الخلافة الإسلامية في بغداد ، وكانت وقتئذ أنصر العاصم الإسلامية .

(٢) رد المسلمين في مصر عدوان التتار وهزموهم في موقعة عين جالوت .

فهى تعمل دائمة على إفساد معنى التدين ، وخلق جيل يأكل بالإسلام ويعيش عليه ، ويصرف عواطف الشعب المؤمن إلى مجال الخرافية والبدعة والجهل .

وكما تضيع مياه النيل هباء في أعماق البحر الأبيض لا يستفاد منها في إخصاب ولا إثمار . تضيع مشاعر الإيمان المستكين في قلوب العامة والخاصة ، وتتبخر في الفضاء الواسع الذي خلقه الاستعمار الداخلي ، ولا يزال يحافظ عليه ليؤدي وظيفته ، في تشبيط الهم النشطة ، وتفريغ الانفعالات الحارة والمليء بروحانية الأمة وتدينها الموروث ، إلى الذل والاستكانة والبلادة .

ومنذ ثلاثين سنة ثارت هذه الأمة ثورة عارمة⁽¹⁾ على الإنجليز زحزحتهم عن أماكنهم ، وخدشت كبرياتهم .

وكان الثوار في العاصمة يخرجون مواكب مواكب من الجامع الأزهر .

كأن روح التدين تأبى إلا الإعلان عن وجودها ، فهى تبعث من قلب مسجد ، واحتال الإنجليز واحتال أذنابهم معهم على اللعب بآثار الثورة العظيمة ، فما زالوا يتعقبون مظاهر الإسلام في كل ميدان حتى حضرت أخيراً في التوافه الفارغة .

وبلغ من جرأة الإلحاد أن درست في الجامعة كتب تحاول الطعن على النبي العظيم محمد ﷺ ، وأن حاول طالب التقدم برسالة لنيل الدكتوراه تقوم على التشكيك في أخبار القرآن .

ومضى الاستعمار في طريقه فاصل الدين عن الدولة ، والمجتمع ، والخلق ، فصلاً بلبل أفكار الأمة ، وقطع حاضرها عن ماضيها .

أفتراء بعد ذلك قدم للأمة عوضاً تخندع به عمما فقدت من تراثها الغالي ؟ كلا . إن تعليم الطير أن تمشي على الأرض أيسر من تدريب هذه الأمة على النهوض بلا دين ، ولن يعني في ذلك عوض البطة ..

وقد ألفنا كتابنا « من هنا نعلم » لتقرير هذه الحقائق المعروفة أكثر مما ألفناه للرد على كتاب « من هنا نبدأ » .

فإن القافلة الشاردة قد بدأت سيرها الغلط من سنين عديدة .

(1) يقصد ثورة ١٩١٩.

ولم تكن في انتظار الشيخ خالد لتهيم على وجهها في تلك المتابة التي ينكرها
الإسلام .

إن روح المقاومة الدينية تتقد في قلوب الأفراد والجماعات ، وقد قررنا أن نعيش
مسلمين في ظل الكتاب والسنّة - أو نموت .

وإذا متنا فيجب ألا نهلك - في هذا الكفاح - وحدنا ، بل يجب أن يموت أعداء
الإسلام معنا أو قبلنا .

والإسلام الذي نؤمن به وندعوه هو الذي جاء به محمد ﷺ من عند ربِّه ، وقام
به أولو الأمر من بعده قياماً مبرأاً نزيهاً .

وليس هو هذا المنسخ المصنوع من أهواء الحكام السفلة ، أو تقاليد الكهان المنافقين ،
فإن عدوان هؤلاء معروف من قديم على حقائق الديانات الأولى .

وهل أفسد الدين إلا الملاو
ك وأخبار سوء ورهبانها ؟
فباعوا النفوس ولم يربحوا
ا ولم تغل في البيع أثمانها !
فلنعلم هذا أولاً ، ولنللو زمام الركب التائه عن الصراط المستقيم ، ثم لندفع به «في
ضمان السماء» إلى الغاية المرجوة والغد الكريم .

محمد الفزالي

مقدمة الطبعة الأولى

من حق الإسلام علينا أن ندفع المطاعن التي وجهت إليه ، ومن حق نهضته الأخيرة أن تزيح العوائق التي وضعت أمامها .

ولقد رابتنا الحملات التي استهدف لها ديننا في أهم تعاليمه ، كما رابنا الاستغلال المنظم لشبهات المفترين وتخرصات الجاهلين .

واستبان لنا أن هناك مؤامرة واسعة النطاق دبرها الغزو التبشيري ، والاستعمار الشفافي ، لينال بها من مكانة الإسلام في قلوب بنيه ، وليوصد بها أبواب الأمل في وجوه المجاهدين ضد الإلحاد والاحتلال .

ونحن نعرف أن «أوروبا» في القرون الوسطى أعلنت على الإسلام حرباً ظلت دائرة الرحي مائتي عام ، ارتدت بعدها الصليبية الغازية ، وهي لم تشف غليلاً لحقدتها ، ولم تطفئ ناراً لخصومتها الملتهبة .

ثم جاء العصر الحديث والعزم القديم كامن بين الجوانح المنطوية على البغضاء والتعصب ، وكانت ظروف الهجوم مواتية هذه المرة لضرب الإسلام في صميمه وتمزيق أمته الكبرى شعورياً وقبائل ، ثم توزيعها أسلباً خائرة منهوبة بين الطامعين والحاقدين .

وتواصت دول «أوروبا» أن تحارب بكل أسلوب نزعات الحنين إلى الحكم الإسلامي والتشريع الإسلامي ، حتى أنها لتنص فيما تبرم معنا من معاهدات على أن تكون قوانيننا السائدة امتداداً لقوانين الغرب الفاسدة ، وحذار ثم حذار أن تصلوا التشريع بمنابعه الأولى من كتاب الله وسنة رسوله !

إنها الرجعية التي جئنا بلادكم لتنقذكم منها !!

وفي سورة الكفاح وغضب الإيمان لنصرة الله ورسوله ، صدر منذ سنين كتاب «الإسلام وأصول الحكم» وفيه يزعم مؤلفه الشيخ على عبد الرزاق^(١) أن لا صلة للدين

بالدولة ، فكان لهذا الكتاب - من عالم مسلم في هذه الفترة العصيبة من تاريخ الإسلام - أسوأ الأثر !

واعتبره المجاهدون في سبيل الإسلام عملاً خدم به صاحبه - من حيث يحتسب أو لا يحتسب - قضية الاستعمار الصليبي ، ومن ثم سحب الأزهر منه شهادة العالمية ...

وفوجئنا بعدها بالشيخ عبد المتعال الصعيدي يحاول هدم الحدود الإسلامية المستقرة في الكتاب والسنة ، زاعماً أن الأمر بها للندب لا للوجوب وأن الأمر لا يقتضي التكرار الدائم (!) إلى آخر هذا اللغو الفارغ المتهافت .

ثم صدر أخيراً كتاب «من هنا نبدأ» للشيخ خالد محمد خالد ، وهو الكتاب الذي أفردنا للرد عليه هذه الرسالة . وقد تضمن آراء جديدة ، وأخرى مشابهة لما سبق أن أبداه الشيخ على عبد الرازق .

وقد أحزننا أن وجدنا فيها من الشطط والخلط ، ما يرق بالناس عن الإسلام لو بدعوا الفهم والإصلاح من عندها كما يريد الأستاذ .

* * *

إن حرية الرأي لا تعنى حماية الخطأ وإعطاءه حق الحياة .

وأقصى ما يناله الخطأ أن يعيش ريشما يعدم ويتواري ، والطريق التي نؤثرها أن نحارب الفكرة بالفكرة .

ونحن الذين نعمل للإسلام لانهاب أى هجوم عليه ، لأننا موقنون أنه سوف يتكسر على حدوده . ولذلك نحن نتلقف الشبه والاعتراضات والأوهام ، ونتركها تضطرب وتسعى . ثم ننذف بينها بالحق الذي أنزله الله ، فيعود الأمر كما قال الشاعر :

إذا جاء موسى وألقى العصا فقد بطل السحر والساحر
وأحب أن أذكر أنى صديق للشيخ خالد منذ سنين ، ولكن ابن القيم لما رأى عوجاً
في كلام شيخ الإسلام إسماعيل الھروي - وكان صديقاً له -
قال : شيخ الإسلام حبيب إلينا ، والحق أحب إلينا منه !!

(١) وينظر الإمام محمد الغزالى أنه قابل فيما بعد الشيخ على عبد الرازق فى أحد المساجد الكبرى بالقاهرة وقد تراجع الشيخ «على» تائباً إلى الله من هذا الأمر وعدل عن هذا الرأى وأعلن ذلك للشيخ الغزالى ... انظر «الحق المرا» الجزء الأول والخامس .

ولقد تحدث الناس أن الأزهر ربما سحب شهادة العالمية من الشيخ خالد وهذا إجراء أرى أن التعليق عليه واجب .

فإن الأزهر يكيل بكميلين ، بل بعدة مكاييل في هذا الموضوع ، فقد أصدر قراراً ضد الشيخ على عبد الرزاق ثم عاد فأبطله ، واكتفى بنقل الشيخ عبد المتعال من الكليات إلى القسم العام ! وجرم الشيخ خالد هو جرم هؤلاء الأشياخ .

وهناك شيء يختل في النفس : هل الأزهر يحاسب على الخطأ العلمي أم على الخطيئة النفسية كذلك ؟

إننا نعرف أن الشيخ أحمد شاكر القاضي بالمحاكم الشرعية أصدر فتوى بأن الإخوان المسلمين كفار !! وأن من قتلهم كان أولى بالله منهم (كذا) والرجل الذي يصدر هذه الفتوى كان ينبغي أن يطرد من زمرة العلماء ، ومع ذلك فلا نحسب أحداً أجرى معه تحقيقاً .

وهناك شيوخ كانوا يقودون حركات التعصب الإقليمي في الأزهر ويعيدون الجاهلية الأولى بأبشع صورها ، بقيت معهم شهاداتهم ، ما فكر أحد في سحبها منهم .

وهناك شيوخ بنيت أخلاقهم على محاربة الكفایات ، والضغينة على أولى السبق والفضل ، احتلوا في الأزهر مناصب ضخمة ونشروا في أرجائه الفوضى العلمية ، وشردوا منه أفضل علمائه ! لماذا يترك هؤلاء جميعاً يحملون شهاداتهم العلمية والدينية ، ونفكرون في سحب العالمية من الشيخ خالد وحده ؟

إننا نرجو أن يعيد الأزهر النظر في موقفه كله بإزاء هذه المسائل وأشباهها .
أما نحن فسنكتفى بتمحیص الحقائق في كتابنا : «**وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقُّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيل**» .

محمد الفزالي

١٩٥٠

حكم إسلامي لا قومي

﴿ أَفَحُكْمُ الْجَاهِلِيَّةِ يَغْوُنَ وَمَنْ
أَحْسَنَ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (١)
(قرآن كريم)

«لتتقاضن عرا الإِسلام عروة عروة، فأولها
نقضا الحكم، وآخرها الصلاة...»
(حديث شريف)

«يوم من إمام عادل أفضل من عبادة
ستين سنة. وحد يقام في الأرض بحقه
أزكى فيها من مطر أربعين عاماً»
(أثر نبوى)

(١) سورة المائدة: ٥٠ .

فساد قديم

يحسب الكثيرون أن الإسلام - من حيث هو شريعة - عطلت أحكامه منذ قرن فقط ، أى منذ أن جعلت القوانين الفرنسية أساس الحكم في البلاد .

أما قبل ذلك فقد كان الإسلام بخير في عقيدته التي تسكن القلوب ، ونظمها التي تسود المجتمع !!

وهذا غلط ، فالتشريعات الجنائية والمدنية التي استقدمت ليست إلا فروعاً من الدستور الذي يقوم عليه أصل الحكم ، ويحدد العلاقة بين الأمة وولاة أمرها ، قبلما يحدد العلاقة بين أفراد الشعب إذا تنازعوا أو تصاحوا .

وقد كان هذا الدستور الخطير معدوماً ، في الوقت الذي كانت فيه الأحكام الشرعية منفذة في المسائل التافهة والمشاكل الصغيرة .

ولعل فقدان هذا الدستور هو الذي أتاح لواحد من الحكام (المسلمين) أن يلغى بجرة قلم تشريعات القرآن والسنة ليحل مكانها قوانين الدولة الفرنسية المسيحية أو الملحدة !! وقدان هذا الدستور هو الذي مهد الطريق لظهور طائفة من الحاكمين بأمرهم يباشرون السلطات العامة على نحو مطلق .

ولا يحكمون المسلمين فحسب بل يحكمون الإسلام نفسه ، ويميلون بنصوصه مع الهوى ، ويتصررون فيه بالمحو والإثبات على ما يشتهون .

وقد رأيت كيف عطل أحدهم القصاص والحدود وأباح الزنا والربا !!

فانظر : أتجد انطلاقاً في شئون الحكم يصل بأصحابه إلى هذا الحد الشنيع من السيطرة والإرهاب تخرس معه ألسنة العلماء وتذهب فيه جماهير العامة !! مع أن الأمر يتصل بالدين وهو قوام الدنيا والآخرة .. ؟

إن الحكم المستبد شيء خطير جداً !

إنه سرطان الأُم الذي يلتهم كيانها ، ويستهلك قواها ، ويدرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيه خلقاً ولا شرفًا .

ونحن مبتلون بمعالجة المظاهر والغفلة عن العلة الدفينة .

فالوجه الشاحب ندارى صفرته بالأصباغ ، والجسم الناحل ندارى عواره بالملابس .
أما الكشف عن الداء الخفى القاتل فذلك ما لا تأبه له .

وكذلك سكتنا عن دستور الإسلام فى أصول الحكم فضاعت ، ثم تبعتها الفروع
فانماعت .

وسقطت تعاليم الدين وحقوق الشعب فى براثن الحكومات المستبدة كما تسقط
المدن المفتوحة تحت وطأة الجيوش المتغلبة فلا ترى إلا غصباً ونهباً ..

فلما استيقظ المسلمون أخيراً ، وقرروا العودة إلى الإسلام فى عقائدهم وشرائعهم ،
بدأوا يجرؤون الحقيقة من ذنبها ، لا من رأسها ، ويطلبون عودة الفروع قبل الأصول ،
ويينادون بتطبيق القصاص والحدود وغيرها قبل أن يطمئنوا : هل ستظل الأوضاع
السياسية التى تبيح لحاكم ما أأن يطروح بالتشريع الإسلامي مرة أخرى كما حدث
قبل؟ وهل ستظل الأحوال الاجتماعية الظالمة التى تساند الأوضاع وتجعل عامة الناس
يتنفسون فى أضيق من سُمّ الخياط ؟

على أن رهبة الحكومات الجائرة جعلت فريقاً آخر من الناس يفكر تفكيراً مضطرباً
مربياً ...

لقد رأوا حكامًا يقومون باسم الدين ، ويرتكبون مظالم فادحة ، فلما جبوا عن
مواجهة هؤلاء الحكام بالآثام التى يفعلونها ، رأوا أن يحملوا الدين نفسه أو زار الحاكمين
باسمها ، ومن ثم قالوا : لا يصح للدين أن يحكم .. !

ولماذا؟ لأن بعض الذين ليسوا مسح الدين فعلوا كيت وكيت . فعلى الدين أن
يبوء بعارهم ، ويرجع بأصارهم !!

وهذا منطق يجافي العقل والعدل ولا ينبغي الالتفات إليه .

وأولى من ذلك أن تكون رجالاً لانخاف فى الله لومة لائم ، وأن نعلن سخطنا
واحتقارنا لأولئك الذين ينصبون أنفسهم حكامًا باسم الدين وهم لا دين لهم ، والذين
لا يهمهم من الدين إلا أن يكون دعمًا لإثرتهم وخداماً لشهواتهم !

وأن نسقط من أعيننا كذلك كل عالم يبيع دينه بعرض الدنيا ، ويسىء فى ركب
الظالمين ليتغاضى عن سيئاتهم أو يسوغ تصرفاتهم .

* * *

الحكم أداة لابد منها كل إصلاح

إن الإسلام ليس نظرية هندسية حسب الماء منها أن يفهم صحتها ويذكر أدلةها ، أو فلسفة عقلية يتسلى الإنسان بطالعتها ويدرسها إذا شاء لبعض عشاقها . . . بل هو منهاج استوعب مجموعة ضخمة من التعاليم الروحية والعملية وقدم للناس قواعد بينة لإصلاح العام تنس من قريب شؤون الفرد والمجتمع والدولة .

ومن الذي يزعم أن دعوة إصلاحية تبتعد عن ميدان الحكم وتزهد في الإفادة منه لمبادئها ؟ إن الإسلام لو لم ينص على أنه دين يبغى السيطرة على الدولة لما كانت هناك غرابة - مع ذلك - لاتجاهه إلى الحكم ومحاولته أن يتسلم مقاليده !!

ألا ترى الثورة في فرنسا^(١)؟ لقد قامت باسم الحرية والإخاء والمساواة . فلم تنفذ أغراضها بالتبشير والدعائية ، ولكنها أسقطت الحكومة القائمة واستولت على زمام السلطة وبشرت تنفيذ مبادئها ، واعتبر اتجاهها إلى الحكم بداهة لا تتحمل جدلا .

والثورة الحمراء التي اندلعت في روسيا^(٢) وقامت على مبادئ «ماركس» ، لم يخامر أصحابها قط أن الحكم بالنسبة لأغراضهم نافلة ، وأن أفكارهم يمكن أن تعيش بعيداً عن مراسيم السلطة ، ومظاهر القوة وهيمنة الدولة .. والإسلام قد جاء بمبادئ أ Zukى وأنقى من المبادئ التي تخضت عنها هاتان الثورتان .

وسبل الإصلاح التي شرعها يجب أن تحفر مجاريها العميقه في حياة الناس ، وتاريخ الدنيا بالأسلوب نفسه الذي يتوجه إليه دعوة الحق والخير في كل زمان ومكان .

وهو ما حدث مع الرسول العظيم صاحب هذه الشريعة ، فقد بدأ هادياً ومبشراً ونذيراً ، وانتهى قاضياً وحاكماً ، بعد ما تحولت رسالته من طور الدعوة التي تطارد وتضطهد ، إلى طور الدولة التي تأخذ لربها ونفسها ما تريد .

والحكومة التي أقامها الإسلام حكومة فكرة معينة ، ومبادئ مبينة . وهي في نظر نفسها وعند الناس ، مثلية هذه الفكرة وحاملة لوابتها .

(٢) كانت سنة ١٩١٧ .

(١) قامت الثورة الفرنسية ١٧٨٩ .

وهي إذ تطلب التمكين في الأرض والاستيلاء على الحكم ، إنما تقصد إلى تحقيق مراميها :

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَةَ وَأَمْرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(١)

وكما أن دولة مثل روسيا عرفت باحتضانها للشيوخية وقيامها عليها ، فالمفروض أن الدولة في الإسلام إنما تنهض على احتضان مبادئ الإسلام والدفاع عنه والدعوة إليه بالحسنى لا بالإكراه ..

والهدف الأول لوجودها تقديس عاطفة الدين ، واحترام حقوق الله ، وجعل كلمة الله هي العليا .

وقد قام النبي ﷺ بهام رئيس الدولة على هذا الأساس الواضح .
وكذلك مضى على سنته الخلفاء الراشدون من بعده ، طلبوا الحكم ووصلوا إليه لا شيء من جاه الدنيا وزينتها - فالدنيا وشهواتها كانت تحت أقدامهم ودبر آذانهم - ولكن الله ولكتابه وابتغاء وجهه .

وقد أفتوا أشخاصهم وأموالهم وأولادهم حتى قامت للإسلام حكومة ترعى عقيدته وتنفذ شريعته .

وسنسوق النصوص التي تستبين فيها معالم الدولة في الإسلام حتى يتضادر العقل والنقل على توكيده هذا المعنى .

وقبل سوق هذه النصوص ينبغي أن نلقى ضوءاً كاسفاً على الحالة العامة التي تواجهنا .

* * *

(١) الحج : ٤١

بقية من الحروب الصليبية

إن حرمان الإسلام من حقه المقرر في الحكم ، واعتباره دينًا معزولاً عن الدولة هو جزء من العداوة التقليدية التي تكنها أوروبا للإسلام وأهله .

وهي ترمي من وراء ذلك إلى القضاء على الإسلام بعد أن تفلح في القضاء عليه نظاماً مرعياً .

والنزعـة الصليبيـة هي التـى أـوحـت بـإـيقـاء التـشـريع الـوضـعـى وإـحـبـاط كـل مـحاـولة لـإـحـيـاء التـشـريعـات السـمـاـوـية التـى نـصـ القرآن عـلـى ضـرـورة تـطـيـقـها .

وقد يرتـاب البعض فـى أن أـورـوبا تـحرـكـها ضـدـ الإـسـلام نـزـعـات صـلـيـبـيـة حـادـة وـيـنـخـدـع بـما يـقـال وـيـشـاع فـى أن أـورـوبا طـلـقـت الأـديـان جـمـلة ، وـأـنـ بـيـنـهـا وـبـيـنـ المـسـيـحـيـة أـشـيـاء وـأـشـيـاء !

والحقيقة ما نقول ، فـمـلـكـ إنـجـلـنـترا يـلـقـبـ رـسـمـيـاً بـحـامـيـ المـسـيـحـيـة ، وـالـبـنـدـ الـأـولـ فـي بـرـنـامـجـ حـزـبـ الـحـافـظـينـ إـقـامـةـ حـضـارـةـ مـسـيـحـيـة ، وـالـحـزـبـ الـحـاـكـمـ الـآنـ فـي إـيـطـالـياـ وـأـلـمـانـياـ وـأـسـبـانـياـ وـغـيرـهـاـ هـوـ الـحـزـبـ الـدـيـقـراـطـيـ الـمـسـيـحـيـ . وـقـدـ صـوـتـ الـكـثـرـ فـيـ بـلـجـيـكـاـ لـلـحـزـبـ الـاشـتـراكـيـ الـمـسـيـحـيـ .

ويـوجـدـ فـيـ دـوـلـ أـورـوباـ كـافـةـ سـاسـةـ لـاـ يـصـدـرـونـ فـيـ أـعـمـالـهـمـ إـلـاـ عـنـ رـوـحـ مـسـيـحـيـةـ خـالـصـةـ .

وـصـحـيـحـ أـنـ هـنـاكـ نـزـاعـاـ نـشـبـ مـنـذـ قـرـونـ بـيـنـ الـكـنـيـسـةـ وـالـدـوـلـةـ اـنـتـهـىـ بـإـقـصـاءـ الـكـنـيـسـةـ وـهـزـيمـتـهـاـ .

بـيـدـ أـنـ الـكـنـيـسـةـ أـدـرـكـتـ آـخـرـ الـأـمـرـ أـنـ مـاـ حـاقـ بـهـاـ مـنـ هـزـائـمـ سـبـبـهـ أـغـلاـطـ بـعـضـ رـؤـسـائـهـاـ وـمـسـالـكـهـمـ الشـاذـةـ ، فـأـصـلـحـتـ مـنـ شـائـنـهـاـ وـاتـصـلـتـ بـالـحـيـاةـ الـعـامـةـ مـرـةـ آـخـرىـ .

وـظـلـتـ تـرسـخـ أـقـدامـهـاـ حـتـىـ سـمـعـنـاـ المـارـيشـالـ (ـالـلـنـبـيـ)ـ يـقـولـ أـثـنـاءـ دـخـولـ الـقـدـسـ : «ـالـيـوـمـ تـنـتـهـىـ الـحـرـوبـ الـصـلـيـبـيـةـ»ـ . وـهـوـ رـجـلـ عـسـكـرـيـ وـلـيـسـ بـرـاهـبـ وـلـاـ قـسـيسـ .

وـقـدـ بـلـغـ مـنـ حـقـدـ أـورـوباـ عـلـىـ الـإـسـلامـ وـأـهـلـهـ أـنـ سـمـحـتـ بـقـيـامـ إـسـرـائـيلـ وـأـمـدـتـهـاـ مـادـيـاـ بـمـاـ يـعـيـنـهـاـ عـلـىـ الـقـوـةـ وـالـعـدـوـانـ .

وهذه الدولة التى تعيش فى أحضان الغرب المسيحي تمثل اليهودية على أنها دين ودولة .

وهكذا يراد بالإسلام وحده أن يحرم من أسباب السلطان وأن يعيش فلسفة روحية مجردة ، فى الوقت الذى تتسلح فيه اليهودية وتتسلح فيه المسيحية وتسخران دول العالم ضدنا .

أفهذا ما يريده الأستاذ خالد ؟ وغيره من دعاة فصل الدين عن الدولة ؟
ولاشك أن الاستعمار أفلح فى خلق جيل من المسلمين يعيثون على أنفسهم ويحاولون - مع أعداء الإسلام - أن يقضوا على دينهم .

ويوجد الآن للأسف الشديد جمهور من المثقفين يعتقدون أن الإسلام دين لا دولة ، بل الأدهى من ذلك أن بعض العلماء قد حطب فى هذا الحبل ، وما أظنهم يعنون ما يقولون !

إن الدولة ليست للإسلام اليوم - وهذا منكر كبير وحدث خطير - ووقع ذلك على أنه افتیات على الدين وانتقاد من حقه ظاهر .

أما محاولة تسويغ الواقع وإعطائه الصورة التى يرضها الإسلام ، فهى محاولة لاستدراج الدين إلى الرضا عن الجريمة والخنوع للضمير والاعتراف بموت نصفه ثم إبقاء النصف الآخر على أبواب الفناء .

إن الحكم فى الإسلام ليس سياجاً فقط لحماية حدوده من عدوان خصومه والصادرين عنه ، بل هو كذلك قيام على حقائقه الأولى بالتعليم والتربية والأمانة والتوجيه .

و سنستعرض الآيات والسنن الدالة على ذلك ونرد على الاعتراضات والشبه التى أثارها بعض المؤلفين .

* * *

شبهات حول الحكم الديني

يقع في الوهم أن الحكم الديني إذا أقيمت به فسيكون رجاله هم أنفسهم أولئك الذين نسميهم الآن «رجال الدين» وقد تثبت في الخيال صور لعمائم كبيرة ولحي موفورة وأردية فضفاضة .

وقد تتوارد هذه الصور وملابساتها الساخرة فنظن أن الوزراء في هذه الحكومة سيديرون عجلة الحياة إلى الوراء ، وينشغلون بأمور لا تمت إلى حقائق الدنيا وشئون العمران بصلة .

ومن يدري ؟ فقد يشتغلون بالوعظ ومحاربة البدع والاستعداد للحياة الآخرة ، وحسبهم ذلك من الظفر بالحكم .

وهذا وهم مضحك ، ولعله بالنسبة إلى الإسلام خطأ شائن .

فنحن لا نعرف نظاماً من الكهنوت يحمل هذا الاصطلاح المريب «رجال الدين» . وقد يوجد فريق من الناس يختص بنوع من الدراسات العلمية المتعلقة بالكتاب والسنة ولكن هذا النوع من الدراسات لا يعدو أن يكون ناحية محدودة من آفاق الثقافة الإسلامية الواسعة ، تلك الثقافة التي تشمل فنوناً لا آخر لها من حقائق الحياتين ومن المعارف المادية وغير المادية .

والعلماء بالكتاب والسنة يمثلون فريقاً من المسلمين قد يكون مثل غيره أو دونه أو فوقه ، ولم يكن التقدم الفقهي مرشحاً للحكم في أزهى عصور الإسلام .

وقد كان «أبو هريرة» و«ابن عمر» و«ابن مسعود» من أعرف الصحابة بالكتاب والسنة ومن أكثرهم تحديداً عن النبي ﷺ فهل كانت منزلتهم في بناء الدولة الإسلامية منزلة الخلفاء الأربعة أو منزلة «سعد بن أبي وقاص» أو «خالد بن الوليد» أو «أبي عبيدة بن الجراح» ؟

الواقع أن المسلمين كافة رجال لدينهم - أو ذلك ما يجب أن يكون - والذى يخدم

دینه فی میدان القتال أو السياسة أو الحكم أو الصناعة أو العلم هو لاریب رجل لدینه
لا غبار عليه .

وليس أحد أحق من أحد بهذا الوصف ولا كان احتكاراً لطائفة دون أخرى يوماً ما .
والصورة الصادقة للحكومة الدينية - كما يقيمها الإسلام - صورة رجال أحرار
الضمائر والعقول ، يفتنون أشخاصهم وماربهم في سبيل دينهم وأمتهم .
صورة كفایات خارقة ، وثروات عريضة ، من بعد النظر ، ودقة الفهم ، وعظم الأمانة ،
تسعد بها المبادئ والشعوب .

صورة أفراد لهم مهارة « عبد الرحمن بن عوف » في التجارة ، « وابن الوليد » في
القيادة ، و « ابن الخطاب » في الحكم ، قد يولدون في أوساط مجھولة فلا تبرزهم إلا
مواهبهم وملكاتهم في مناحي الدنيا وميادين العمل .

إن الحكم الدينى ليس مجموعة من الدراویش والمتصوّفة والمنتفعين في ظل
الخرافات المقدسة .. ويوم يكون كذلك فالإسلام منه براء .

* * *

هل توجد الآن حكومات إسلامية؟

وقد يظن أن الحكم الديني أعطانا معايير واضحة عن أهدافه ، وعن أساليبه فيما نرى ونسمع في بعض الأماكن على وجه العمور .

وعلة هذا الظن أن تلك الأقطار وحدها هي التي تقطع يد السارق ، وتجلد الزانى ، وتقييم حدود الله ، أي أنها هي الحكومات المسلمة التي بقيت مصرة على تنفيذ هذه الأحكام في عصر قد جحدها ونفر منها نفوراً شديداً .

ونحن لا نماري في أن الحدود من الإسلام ، ولكننا نستغرب أن تحسب الإسلام كلها !!

ونحن نريد أن تقام الحدود لتحفظ الحقوق ، ويوطد الأمن ، وتحرس الفضائل ، لا أن تقام الحدود لتقطع يد لص صغير سرق دريهمات ، ثم يدرأ الحد ، بل لا يفكر في إقامتها أبداً على لص القناطير المقنطرة من خزائن الدولة ، ومن موارد الشعب !

وبعض الأقطار الإسلامية تعد من أفق بلاد الله إذا نظرنا إلى معيشة سكانها .. وأخرى تعاني من تحالف شديد في جل جوانب الحياة .. وأخرى تمتلأ بالكتّارين وأصحاب يد طولى وضمائر جانحة ..

إن كثيراً من بلاد الكفر أعدل حكماً ، وأرقى ضميرًا ، وأرفع مستوى من هذه البلاد !

فكيف يظن أن ما بها من فوضى وجور واعتساف صورة حكم إسلامي ؟

وما هو إلا مجتمع تعس من السادة والعبيد!

لقد قلنا إن التشريعات الجنائية والمالية ليست إلا فروعاً من الدستور الذي يجب أن يقرر أولاً وتحدد فيه حقوق الحاكم والمحكوم .

إذا فقد هذا الأصل فأى غناء للفرع بعد فقدانه ؟

وبعض البلاد الإسلامية ليس فيها دستور إلا سلطان الفرد المطلق .

وعندما يكون لسان الحال لحاكم ما هو لسان المقال الذى نطق بفريدة فرعون الكبرى
عندما صرخ فى أتباعه «أنا ربكم الأعلى» فكيف يقال إن هناك قانوناً قائماً ، أو هناك
حدوداً محترمة؟!

لقد كان بيت المال - أيام الخلافة الراشدة - للأمة ، وللحاكم منه الفتات الذى
يمسک عليه حياته فقط .

أما فى بعض الأقطار فبيت المال للحاكم ، يأخذ منه أولاً نصيب الأسد ثم يرمى
بفضله للمصالح العامة!!

فكيف يقال إن هذه حكومات دينية ، وإن حدود الله فيها أقيمت ؟
إن هذه البلاد - للأسف البالغ - بحاجة ماسة إلى ما يحفظ عليها كيانها المجرد ،
فإن تم لها ذلك أمكن أن ترتفع إلى المستوى الذى يرسمه لها الإسلام !
و قبل أن نصل إلى هذه المرتبة لا يجوز أبداً أن يقال . هذه حكومات طبقت الإسلام
دينًا ودولة .

* * *

مثار الخطأ ...

ولكن زميلنا الأستاذ خالدًا فى كتابه «من هنا نبدأ» بدلاً من أن يذكر هذه الحقيقة ويعامل على ضوئها الحكومات التى تنتسب للإسلام ولا تخضع لتوجيهه فيحملها أوزار مسلكها ويخلص الإسلام من جريرتها - حمل الدين نفسه هذه الأصار الثقال ، ثم بنى على ذلك أنه مadam هناك حكام قد قاموا باسم الدين فأخطأوا ، فليقص الدين عن الحكم أبداً ، وليحرم من السلطة التنفيذية !

إن هذا ظلم للإسلام وتجاهل لأهدافه ، ثم هو ترك للمجرم الذى أشيع شهواته باسم الله رسوله .

لماذا لا نقول بملء أفواهنا : إن هناك أفراداً سطوا على تاريخ الإنسانية - وكانوا على خط كبير من الجرأة والمغامرة - فسرقوا أقطاراً وأجيالاً ، وأسسوا بأسمائهم الشخصية دولاً ، وصنعوا لأنفسهم وبنיהם مجدًا

وعملهم هذا - برغم الهملة التى أحاطت به - لا يعدو أن يكون صورة مكيرة ألف مرة أو ألف ألف مرة للسارق الصغير الذى يسرق آنية من بيت أو قرشاً من جيب !

السارق الصغير فى أثناء عدوانه على حق الفرد وأمنه قد يقتل أو قد يجرح من يعترضه .

وكذلك يفعل الذين ظهروا فى تاريخ البشرية يلبسون ثياب القادة والفاتحين والمغامرين ، إنهم يدوسون حقوق الجماهير ويحطمون مقوماتها .

وقد أصيبت أم شتى فى الشرق الإسلامي المسكين بعاهات مستديمة عندما تعرضت لزنوات أولئك الأفراد الطامحين .

لماذا لا نضع الحريمة وأصحابها داخل إطار أسود ثم نقول : هؤلاء لاصلة للإسلام بهم ؟ بل إن الإسلام - مثل الشعوب - مotor من صنيعهم به واستغلالهم لنصوصه .

أما أن نحمل الإسلام آثام هؤلاء فذلك خطأ بعيد .

* * *

الحدود وضرورة إقامتها

ويبدو أن خالدًا لم تعجبه طريقة تنفيذ الحدود في الحكومات المنعوتة بأنها إسلامية فوقع في الخطأ السابق نفسه إذ حمل على الحدود ، بدل الحملة على الملابس والأوضاع الاقتصادية السائدة هناك .

والحملة على الحدود التي شرعها الإسلام لا مساغ لها ولا أساس .
والقول بأنها موقفة التنفيذ ، أو أنها ل لإيمان المجرد ، أو أن الرسول عطّلها يوم شرعت قول ي جانب الصواب .

إن الأوامر بإقامة الحدود صريحة في الكتاب والسنة .

وقد قام النبي ﷺ بتنفيذها جميًعاً في أحوال كثيرة ، ورفض فيها الشفاعة من أعز أحبابه ، واكتفى أحياناً بالقرائن الحاسمة ، ولم ينتظر توافر الشهود ، مما جعل الفقهاء يأخذون بالقرينة في موضع الشهادة ويقيم الحد بها .

وصحيف أن الرسول ﷺ راجع بعض الناس عندما اعترفوا على أنفسهم بالجريمة بيد أن ذلك تفسيره الذي يظهر سره ويكشف حكمته ، وهو إن دل على شيء فعلى سمو الدين وعظمته .

إن الغرض الأول من إقامة الحدود محاربة الجريمة ، وتعقب الزناة والسفالة واللصوص .

ولا شك أن بعض المؤمنين قد يلم بسيئة ما حرم الله ، فيضيق لذلك صدره ، وتسود الحياة في ناظريه ، ويهرب إلى الرسول ﷺ يبغى أن يظهر نفسه بالموت أو بما يشبه الموت .
فهل هؤلاء المساكين الذين زلت أقدامهم من حيث لم يحتسبوا ، يصح اعتبارهم مجرمين خطرين ، فنسارع إلى التنكيل بهم متى وقعوا في أيدينا ؟

إن رسول الله ﷺ ليس وكيل نيابة ، مهمته حصار المتهم بين المواد التي تهلكه ، ولكنها قبل ذلك مربٌّ كريمٌ ومحظوظٌ رحيمٌ وهو القائل : «أُقيِلُوا ذُوِّيَ الْمَرْوَاتِ عَشَرَاتَهُمْ ، فَوَاللهِ إِنَّ أَحَدَهُمْ لِيُعْتَرِفَ بِهِ بِيَدِ الرَّحْمَنِ»^(١) .

(١) «أُقيِلُوا ذُوِّيَ الْهَيَّاتِ» آخر جه البخاري في الأدب المفرد . وأبو داود وأحمد بن حنبل عن عائشه رضي الله عنها في صحيح الجامع . تحقيق ناصر الدين الألباني برقم ١٠٨٥ .

فإذا جاءه شاب تكاد عينه ت قطر لعصبية انزلق فيها - وهؤلاء غالباً من ذوى العواطف المهاجمة - فمن حق المجتمع بل من حق الإنسانية كلها أن تستبقى حياة هؤلاء الأشخاص ذوى الصمائر الحساسة والمشاعر المرهفة .

وهذا ما فعله الرسول ﷺ عندما راجع المقربين بالحدود وأعطائهم فرصة الفكاك منها . وإنك إذ تصور هذه الفتاة التي أسموها الغامدية ، وقد جاءت تطلب الرجم وهى حامل ، فلما أرجئت جاءت تطلب الرجم ومعها رضيعها ، فلما أرجئت جاءت تطلب الرجم ومعها ولدتها يسعى ، وببده قطعة خبز ، أتحسب الرسول كان يترك هذه الفتاة ليسىء بتركها إلى المجتمع ؟

كلا إنها التوبة من الخطيئة تسعى على قدمين .

إنها تشبه أن تكون ملكاً كريماً لا بغياً ملوثة .

فإذا رأينا الرسول ﷺ يعامل أضرابها من الرجال والنساء معاملة خاصة ، فلهذه الحكمة البالغة فقط .

أما حيث يظهر المسلك المعوج ، ويفيدو حق المجتمع في محاربة الفسق والعدوان فقد أمر الرسول بالقتل والصلب ولم تأخذه بأحد رأفة ، امتناناً لأمر الله ، وقياماً على تعليم دينه .

إن قصار النظر من الباحثين في الحدود يريدون أن يفهموا من وقف التنفيذ^(١) في بعض القضايا أن المبدأ القانوني نفسه قد انهدم ، وأن قيام التشريع وضرورة الحكم به قد أصبحا موضع شك .

ومن أين دخلهم هذا الفهم السخيف ؟

إن القوانين الموضوعة في هذا العصر لم تتعرض لهذا الإيهام ، مع أن القضاء كثيراً ما ينظر إلى الملابسات التي تحيط بالتهم ، والظروف التي تكتنف القضية ، ثم يصدر حكمًا مخففاً أو موقوفاً .

وكما تتحول الجنح إلى جنایات تتحول الجنایات إلى جنح .

(١) هذه العبارة قريبة الدالة من قول بعض الفقهاء . إن التوبة تسقط الحد ، إذا استبان للقاضي صدقها قبل أن يقيمه ، وهو قول شرحه ابن حزم ، ومال إليه ابن تيمية في بعض الحدود . ونحن نختار العمل به ، ونرى فيه تفسيراً حسناً لما ورد في السنن الصحيحة من تirth في إقامة الحدود ومراجعة للمعترفين بالجريمة . وتلقينهم أحياناً العودة فيما قالوا . وللقاضي أن ينظر في أحوال المتهمن على هذا الهدى النبوى السمح .

فهل يقال : إن الدولة قررت إلغاء القانون ، لأن الملابسات تتتحكم في أوصافه وفي إنجازه أو إيقافه ؟

أم يعتبر القانون قائماً ويعتبر النظر إلى هذه الملابسات جزءاً من القانون ؟
إن هذا ما يقوله العقلاء . ولست أدرى كيف خطب الشيخ خالد - ومن قبله الشيخ عبد المتعال - في هذا الموضوع فزعموا أن قوانين الحدود ليست جديّة (!) أليس هذا هو الهرزل !

عن عائشة : «أن قريشاً أهملهم شأن المخزومية التي سرقت ، فقالوا : من يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟ وظنوا أنه لا يجرئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكلمه أسامة رضي الله عنه ..

فقال : أتشفع في حد من حدود الله ؟ ثم قام فخطب ثم قال : إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ! وائم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها !»^(١) .

وعن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «من حالت شفاعته دون حد من حدود الله تعالى فقد ضاد الله عز وجل»^(٢) .

وعن الزبير أنه لقى رجلاً قد أخذ سارقاً يريد أن يذهب به إلى السلطان فشفع له الزبير ليرسله ، فقال : لا ، حتى أبلغ به السلطان . فقال الزبير : إنما الشفاعة قبل أن يبلغ السلطان ، فإذا بلغ السلطان لعن الشافع والمشفع .

* * *

إن الجرأة على الحدود التي شرع الله لعباده جزء من تملق المدينة العصرية وقوانينها الحديثة .

و «أوروبياً» لن تطرب لكلام أجمل في أذنيها نجماً من انسلاخ المسلمين عن دينهم عقيدة وشريعة .

ثم إن أمر العقيدة والشريعة سواء .

والعقل المدخول الذي يريد منا أن نتأول نصوص الفقه التشريعي في الحدود

(١) متفق عليه .

(٢) صحيح أخرجه أبو داود وأحمد وصححه الحاكم عن طريق يحيى بن راشد ، والطبراني في الكبير وسنن البيهقي .

والقصاص والمعاملات سوف يطلب منا غدًا أن نتأول كذلك نصوص الإسلام الأخرى
في الصلاة والزكاة والحج .

فليست هذه أولى من تلك بوقف التنفيذ !

بل إذا سرنا على منطق التعطيل - كما ردده الشيخ خالد - فإن العبادات ستسبق
المعاملات إلى أودية الفناء .

* * *

لقد تكلمت في كتاب « الإسلام والأوضاع الاقتصادية » عن جريمة السرقة
والزنا ، فلم أخدش الحدود التي قررها الدين - وحاشاي أن أفعل - ثم خضت في
ملابسات التنفيذ اليوم خوضاً حراً .

ولو قد سلك العلماء هذا المسلك لأنصفوا الدين وأراحوا الناس وأقرروا العدل .

* * *

جزء من عمل الحكومة الدينية

فالذين يفهمون أن الحدود موقوفة التنفيذ لمثل هذه الملابسات ، أو لما أحاطت به من ضمادات ، إنما يسيئون فهم النصوص الثابتة والآثار الواردة .

وقد رأى الأستاذ خالد أن هذه الحدود - على فرض ثبوتها وبقائها - يمكن أن تضم إلى القانون العتاد وترتفع على تنفيذها حكومة مدنية ، لا صلة للدين فيها بالدولة .

ونحن نقول : إن الحدود ثابتة باقية ، وإنها بعض تعاليم الإسلام التي تنہض بها الحكومة المعززة بدينها المتعصبة له .

ولو أن إنجلترا أدخلت الحدود في أحکامها ما تحولت بذلك إلى دولة إسلامية ! فالدولة في الإسلام مثلاً فكرة - كما أسلفنا القول - تعيش بها وتعيش لها ، كما تمثل روسيا الشيوعية وتقيم نظامها في الداخل وعلاقاتها في الخارج على ضوء الإخلاص التام لفكرتها تلك .

من قال إن وظيفة الدولة تطبيق عدة أحکام جزئية فقط ؟
إن الإسلام في الميدان السياسي ديمقراطية حرة ، وفي الميدان الاقتصادي اشتراكية معتدلة .

وقواعد التربية التي يدعم بها الأخلاق ويضبط بها المجتمع كثيرة .
ووظيفة الدولة أن تقيم كل شيء في الأمة ، وأن تسوق الرجال والأموال لتحقيق هذه الاتجاهات التي نصحت بها تعاليم القرآن والسنة .

أما أن تخيل صورة شاب سفيه كيزيد^(١) ، أو مجرم سفاك كالحجاج^(٢) ثم نقول : هذه ثمرات الحكم الديني ، فشروع عن الصواب ، واتهام لا موضع له ... !!

(١) يزيد بن معاوية ثانى خلفاء بنى أمية .

(٢) الحجاج بن يوسف الثقفى .

هل نريد إيماناً أعزّل أمّا الحاد مسلح؟ !

اتفق الباحثون من المسلمين ومن المستشرقين على أن عقيدة التوحيد أساس الإسلام ، وقد كتبنا في مقال لنا منذ عامين : أن استقرار هذه العقيدة معناه توطد حقوق الإنسان من حرية وإخاء ومساواة ، إذ أن التوحيد الحق يعني أن البشر كافة عبيد الله ، فإذا تخبر أحدهم وحاول فرض نفسه على غيره ، وجب قمعه ورده إلى مكانه على عجل .

ولكن المتكبرين من أرباب المال والجاه لا ينزلون عن سلطانهم الموروث بسهولة ، ومن ثم لا يتربون هذه العقيدة التي تزلزل أوضاعهم تنتشر في هدوء .

وليت من لم يكن بالحق مقتنعاً يخلّى الطريق فلا يؤذى من اقتنعوا

ولذلك منذ ولد الإيمان في الأرض ولد الجهاد معه !
وهو لم يشق طريقه في الحياة إلا على ركام من أجداث الشهداء .

وقد استمعنا إلى رسول الله وهم أحسن الناس بياناً ، وأعفّهم عرضاً وأصدقهم كفاحاً ، يحاولون بالإقناع المجرد أن يصلوا إلى الأفئدة المغلقة ، فماذا حدث لهم وبماذا أجيّبوا ؟

إننا نستقرئ القرون السالفة فلا نجد إلا أقواماً : ﴿ جَاءُهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُوا أَيْدِيهِمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴾⁽¹⁾ .

وليتهم سكتوا عن ذلك . فما هي إلا أيام حتى نستمع إلى دوى السلطة الغالبة يتكشف عن هذا الإنذار :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرِسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾⁽²⁾

(2) إبراهيم : ١٣ .

(1) إبراهيم : ٩ .

فإن تكن الدولة للكفر تمنحه في الحياة هذا المنطق العنيد ، فمن البداهات التي يجب ألا تناقش أن تكون لإيمان هو الآخر الدولة التي يدفع بها عن نفسه في بيئته الأولى ووطنه الذي يأرز إليه ويحتمى به ، والدولة التي يساند بها أشياعه في سائر بلاد العالم ، بل التي يحارب بها الظلم حيث كان .

وقد بدأ الإسلام كذلك ، طردهم الدولة القائمة بـكـة فكان أن أسس دولته بالمدينة .. ثم استعاد ما فقده أول أمره .

فلما نهضت الدولة الإسلامية الأولى على قدميها كان عملها الأول أن ساقت جيوش التحرير أفواجاً لتدرك الكسرية المتکبرة في فارس والقيصرية الباغية في الروم ، ولتسمح حق الحياة الكريمة للجماهير التي ترنحت دهرًا تحت وطأة هذه السلطات السفيهية .

وكان من المستحيل في ظل السلطة المقررة للملوك ، الأقدمين أن تنشر دعوة أو تستنقذ أمة بالمحاجة والإقناع .

وقد شعرت المسيحية في عصور الاضطهاد الأولى أنها في حاجة ماسة إلى سلطان يدفع عنها الأذى والعدوان ، فسعت إلى الحكم - مع قلة النصوص لديها بشأنها - حتى استولت عليه .

فهل الإسلام الذي تكاثرت نصوص الحكم فيه هو الذي يقال عنه : إنه دين لا دولة ؟

ومتي يقال ذلك ؟

في العصر الذي سلحت فيه مبادئ «كارل ماركس» وأصبح إنكار الألوهية عقيدة قاهرة ، تهدم بها المساجد في القوقاز ويشرد بها ثلاثة مليوناً من المسلمين .

وفي العصر الذي استيقظت فيه الخصومة التقليدية بين الشرق الإسلامي والغرب الصليبي ، لأن هذا الغرب يأبى إلا استذلالنا واحتلال بلادنا وقص أجنحة الإسلام بإلغاء تشريعاته وهدم تقاليده ، مستوحياً بذلك الكنيسة التي تعمل فيه من وراء ستار !!

إن الدولة في الإسلام لم تكن في عصر من العصور ألزم له منها الآن ، لا لأنها جزء من كيانه الحي فحسب ، بل لأن هذا الكيان كله مهدد بالزوال ، في عالم تدور أعاصير الفتن ولا يقوى على البقاء فيه إلا الأقوياء .

إن الحكم من الناحية العلمية إن لم يكن شطر الإسلام فهو شرط بقائه ، ومن الناحية الواقعية نستطيع الجزم بأن الحكومات التي لا إسلام لها ليست إلا امتداداً لشهوات الاستعلاء والشبع واحتقار الأديان جملة ، وإهمال أوامرها تفصيلاً ..

هذا في الشرق ، أما في الغرب فقد علمت أن المسيحية لها سيطرة غير مباشرة على تلك الحكومات .

فما ي قوله الأستاذ خالد من أن الدين ليس إلا علامات تنصب أول الطريق لترشد المارة إلى اتجاهاته المختلفة ، وأنه - لذلك - لا علاقة له بالسلطات .

هذا كلام خيالي يشبه الشعر الحالم ، فالطريق مليئة بالقطاع ، والدين إن لم يسر فيها قافلة منظمة مسلحة يوشك أن تتخبطه الشياطين من هنا ومن هناك .

* * *

غرائز الحكومة الدينية

اختار الشيخ خالد هذا العنوان ، ليس رد تحته مثالب الحكم الديني ، كما توهمنا ، وكأنه يصف طباع وحش مفترس الأظفار ، مخضب الأنابيب من دماء الضحايا !

وكم يكون سرورى كبيراً لو أنه جعل العنوان : «غرائز الحكم الاستبدادى» مثلا ثم أبان بعد هذا الحكم عن الإسلام ، وظلمه لدين الله ودنيا الناس جمیعاً .

إنه بهذا ينصف الدين من الأوغاد الذين استغلوه شر استغلال وافتاؤوا به على الحق المجرد ، والمنفعة المنشودة للشعوب المظلومة .

ثم هو بهذا لا يقع في تناقض مع نفسه كهذا الذي وقع فيه عندما كتب تحت العنوان «غرائز الحكومة الدينية» يقول :

« هي بعيدة عن الدين كل البعد . فالحقيقة أن الحكومة الدينية وإن ظفرت بهذه التسمية التي توهם أن لها بالدين صلة لا تستلهم مبادئها وسلوكها من كتاب الله ولا من سنة رسوله بل من نفسية الحاكمين وأطماعهم ومنافعهم الذاتية . . . » .

فلماذا إذن تسمى حكومة دينية ، مadam دستورها لا يمت بصلة إلى كتاب الله وسنة رسوله ؟

ثم لماذا تطرح أوزارها على الدين نفسه فيحرم من الحكم عقاباً له على تصرفات هي ضد طبيعته وشريعته ؟

ولماذا لم يقترح الأستاذ خالد بعدما تكلم عن طبيعة الإسلام أن تلتزم الحكومة الدينية حدود هذه الطبيعة الواضحة أو تجرد من لقب لا تستحقه ، وتدمغ بالصفة التي تناسبها ؟

على أن الأستاذ ماضى في طريقه يحارب في غير عدو ، ويحصى عيوبًا سبعة للحكومة ، هي حياثيات إقصاء الدين عن السياسة ، وطرده للأبد من الدواوين والمراسيم ، فلما أعزته الأمثلة التي تشهد لهذه النتيجة قال «وفي الحكومات الدينية

الإسلامية حدثت أهوال مروعة حتى إن حاكماً دينياً واحداً - وهو الحجاج - أباد
البقية الكريمة من صحابة رسول الله ﷺ .

ولأول مرة يقرع سمعى أن الحجاج حاكم دينى !!

وما أظن الحجاج نفسه طمح إلى هذا اللقب ، وما أظن أحداً من المؤرخين أسبغ
عليه هذا الوصف الغريب .

لكن الأستاذ خالداً فعلها ، وانتقل منها إلى أن دينًا يحكم الحجاج باسمه لا يصح
له أن يحكم ...

قال ابن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري لسليمان بن عبد الملك يصف الحجاج :
« يا أمير المؤمنين ، كان عدو الله يتزين تزيين المؤمسة ، يصعد المنبر فيتكلم بكلام
الأخيار ، فإذا نزل عمل الفرعنة . وأكذب في حديثة من الدجال » .

وتاريخ الحجاج مثل صارخ لفسق الحكام عن أمر الله واستهتارهم الفظيع بالدماء
والحرمات .

ولو لقى جزاءه في الدنيا لكان الشنق أهون عقاب ينزل به .

ومع ذلك فقد أصبحت تصرفاته في نظر خالد تفسيراً للإسلام ، وتوخذ حجة على
كتاب الله وسنة رسوله !!

ونستطيع أن نضم إلى هذا الدليل أن «نابليون بونابرت» - رضى الله عنه! - اعتنق
الإسلام ولبس عمامة التقى والصلاح على أيدي علماء الأزهر ، ثم ارتكب بعد ذلك
من الجرائم السياسية ما نعلم .. مما لا يصح معه قط أن يعتبر الإسلام ديناً ودولة -
بعد تصرفات نابليون الشائنة - فإن طبيعة الحكام الدينيين القاسية تجري في دمه !!
وتنطق بخطورة تحكيم الدين في الشئون العامة .

* * *

شطط !

ينقد الأستاذ خالد الحكومة الدينية فيتساءل : دستورها الذى تعمل له وتقوم به .. ما هو ؟ إنها حين تسأل هذا السؤال تفر وتهرب إلى الغموض الذى لا تستطيع أن تعيش إلا فيه وتقول : هو الدين هو القرآن .

لكن القرآن - كما قال علىٰ - حمال أوجه والسنة كذلك ...
وهذا الكلام سيئ جداً ، فلو أن الطعن فى أشخاص الحكم باسم الدين ملاً
صفحات الكتاب كله ما اكترثنا لذلك .

ولكن الطعن نصبح هنا على الدين نفسه فأصبح متهمًا بالغموض والإبهام .
فمقاييس الحكومة الدينية بعد ما كانت معللة باتباع الأهواء والشهوات ، أصبحت
معللة بأن القرآن غامض ، وأن السنة كذلك ، وأن دستوراً يعتمد عليهما فى سياسة
الشعوب إنما يعتمد على فراغ .

وهنا نختلف مع المؤلف اختلافاً كبيراً ، فالقرآن كتاب واضح يقول فيه منزله :
﴿.. تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾⁽¹⁾

والسنة مزيد من البيان لما أجمل القرآن ذكره من تفاصيل العبادات والحوادث .
ومن أيسر الأمور أن تعرف من الكتاب والسنة طائفة ضخمة من العقائد والأحكام
قررت ولم تشترج حولها الآراء ولم تتکاثر الوجوه .

ولو كانت نصوص القرآن والسنة بالتشابة التي ذكرها المؤلف لما عاش الإسلام يوماً
واحداً ، ولما ربى رجالاً واحداً .

وقد استشهد الشيخ خالد على آراء كثيرة بالأيات والأحاديث ، فقال : «إن إحدى
خصائص الدين قبل أن تخالطه الكهانات تحرير البشر من التسلط والاستغلال»
ووصل إلى هذه النتيجة السليمة من نصوص الدين نفسه التي وصفها بأنها حمالة
أوجه .

. (1) يوسف : ١.

صحيح أن القرآن اعتمد في أحکامه وتوجيهاته على التعبيرات العامة والألفاظ المرنة حتى يساير العصور كلها إلى قيام الساعة . وهذه آية من آيات إعجازه .

بيد أن العموم والمرونة شيء آخر غير الغموض والإبهام !!

وقد كان الخوارج على عهد «على» يكفرون المذنب ويتلقون آيات الوعيد فيسيئون تطبيقها على الناس ، و «على» وفقاء الصحابة يدركون أتم الدرامية بالملابسات التي صحبت نزول هذه الآيات .

ومن ثم وصى ابن عباس لا يحاج هؤلاء الخوارج بالأيات المجردة بل بالنسبة للموضحة فهيأشبئه بمذكرة تفسير للقانون .

ولم يقل أحد من العلماء أبداً إن كلا من السنة والكتاب مشكل وحمل أوجه .

* * *

نعم إن «على بن أبي طالب» أوصى «ابن عباس» لما أرسله لمناظرة الخوارج لا يحاجهم بالقرآن ، لأنهم يشغبون به ، ويجبئون إلى صيغ العموم فيه فيطبقونها على الكافر والمؤمن غير ناظرين إلى شروح السنة لها . فكان على يريد مواجهتهم بالنصوص الخامسة من كلام رسول الله ﷺ ، حتى يقطع جلدهم ، والستة في نظره تفسير لا مهرب منه .

فإيهام القارئ أن «علياً» يرى أن السنة هي الأخرى حمالة لوجوه ، ضرب من التدليس العلمي لا يستساغ .

والاعتماد على هذه الكلمة في اتهام القرآن والسنة بالغموض لا قيمة له أبداً ، إن كان المقصود من هذا الكلام أن النصوص التي جاء بها القرآن مشتبهة الدلالة فغير صحيح .

وإذا كانت بعض الآيات المتصلة بذات الله وصفاته فوق مستوى العقول ، فإن آيات العقائد والأحكام والأخبار والأوصاف - وهي أكثر القرآن - محكمة . ثم هي وحدتها منبع التشريع ومناط التكليف : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَآخَرُ مُتَشَابِهَاتٍ فَمَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَبَعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾⁽¹⁾

(1) آل عمران : ٧ .

وهذه الآيات المحكمة ، منها قطعى الدلالة فى موضوعه بحيث لا يتحمل إلا معنى واحداً لاريب فيه ، وهو كثير فوق الحصر .

ومنها ما يكون من اللفظ بحيث يتحمل معانى عدة تستفاد بحسب قواعد اللغة وأساليبها . وفارق كبير بين المرونة والفرضى .

وهناك علم أصول الفقه قد بين الأئمة فيه طائق استدلالهم وقواعد استنباطهم على نحو بلغ الغاية من الدقة .

وقد تكلم علماء الإسلام فى دلالات الكتاب والسنة وفجروا منها بحراً من الأحكام الزخارقة والصور الرائعة ، هى إلى اليوم آية من آيات الله فى القوة والسمو والوضوح .

فلما جاء على الإسلام عصر أصبح المتهمون فيه هم قضاة الناس وولاتهم ، جاء الشيخ خالد يستدل بأفضية المتهمين وأفهامهم على غموض الكتاب والسنة .

ونحن نعلم أن الناس يُعِيرُون بتركهم للدين وخروجهم على أحكامه - كما يفعل الوعاظ .
بيد أن الشيخ خالداً يُعِيرُ الإسلام بخروج البعض عليه ويريد ليحمله تبعه أعمالهم .

إذا ضل «الحجاج» فالعلة فى نظره أن التشريع غامض ، لا أن «الحجاج» حاكم ساقط .

وتطرد الأمثلة فى استدلاته على هذا التحو المتداعى ، حتى يخرج منها فى النهاية بأن الدين ليس أهلا لأن يحكم .

ولو كان عبث الحكم بنصوص الحكم سبباً لإهدار العمل بها ، فلم لا يكون عبث العامة بسائر الأحكام فى العقائد والأداب سبباً لإهدارها كذلك ؟ .

وننفض أيدينا من الدين وتکاليفه جملة .. أحسب أن هذه ستكون نهاية المطاف فى الحملة التى تشنه الإباحية على الإسلام .

وما هدم الحكم الدينى غير أول النذر .

ثم إن المسألة لم تكن ولن تكون أبداً غموض حكم الله فى أمر من الأمور ، إنما المسألة هل تنفذ الأحكام أم لا ؟

وهل تسير فى سبيلها المعدة أم تلتوى بها المأرب الدينية ؟

هل تسمح لها بأداء رسالتها أم تفسدها بالتمحل والتأنويل ؟

أما ما يقوله الأستاذ خالد من أن «علياً» و«معاوية» كانوا يتنازعان الاستدلال على

وجهة نظرهما بأيات واحدة وأن أصحاب «على» وهم يحرضون على دم «معاوية» كانوا يقدمون بين أيديهم طليعة هائلة من الآيات والأحاديث هي نفسها التي كان يحرض بها أصحاب «معاوية» على دم «على» وقتله ، فهذا كلام باطل وفهم سيئ لبواعث القتال الذي نشب .

ومعناه أن القرآن يصلح للاستدلال على الشيء وضده ، وأن غموضه المريب جعله سلاحاً ذا حدين يصيب العدو والصديق معاً .

ونحن نزيد الأدلة استطراداً على صحة هذا الكلام (!) : فقد زجرت رجلاً من يجرون خلف النساء ، يبغى بهن الفاحشة ، فقال لي مستدلاً على وجهة نظره من القرآن الكريم نفسه : ﴿قُلْ مَنْ حَرَمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ..﴾^(١)

وحدث أن نفت حكومة مصرية بضعة آلاف من خيار المؤمنين وأفضل المسلمين ، ففتحت لهم السجون والمعتقلات واستدللت على ذلك بقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقْتَلُوا أَوْ يُصْلَبُوا أَوْ تُقْطَعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾^(٢)

وعندما أعلنت الحرب العظمى سنة ١٩١٤ كتب أحد الشيخوخ يغري العرب بالعمل مع جيوش الحلفاء المحتلين ضد الترك المسلمين فقال : ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولُي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(٣)

وهكذا نحمل القرآن الكريم لوثات العقول والآفونس ، ومطامع الكبراء والسفهاء ونلبس الحق بالباطل ونقول إن القرآن حمال أووجه .

فيإذا تنازع الأمين والخائن آية من كتاب الله تركنا الآية بينهما ، ووقفنا مكتوفى الأيدي بدل أن نصفع الدجال الواقع ونضع الحق في نصابه .

وهكذا يقف الأستاذ خالد من النزاع بين «يزيد» و«الحسين» وبين «على» و«معاوية» فيحمل القرآن التبعة لأنه مطاط ، ويفر من قوله الحق في هذه المأسى القديمة وما قد يشابهها في هذه الأيام من أحداث .

* * *

(٣) النساء ٥٩ .

(٢) المائدة : ٣٣ .

(١) الأعراف : ٣٢ .

إسرائيل

وما كان على اليهود من حرج لو أنهم أسموا الدولة التي اقتطعوها من كياننا وأسسوا فيها ملكهم (الجمهورية اليهودية) أو (الاتحاد الاشتراكي اليهودي) أو غير ذلك من الأسماء التي تتفق مع الواقع لديهم .

فإن النظام السياسي الذي ارتضاه القوم لأنفسهم نظام جمهوري بحت .

ولم يسعد القدر هؤلاء اليهود كما أسعد جيرانهم في الأردن والجazz واليمن ، فتحكمهم أسر رفيعة العماد راسية الأوّلاد تصنّف على الدولة اسمها وتنسب الحكومة إليها فيقال : الحكومة المتوكّلة اليمنية ، والأردنية الهاشمية ، والعربية السعودية .

ويقال كذلك الحكومة الوايزلمانية اليهودية . . لا ، إن القدر لم يسعدهم بذلك - بعد - كما أسعد جيرانهم من العرب الأشاوس .

كذلك لا يكذب اليهود على الواقع لو جعلوا الاشتراكية عنوان دولتهم . فالاقتصاد يسود المستعمرات ولعله أساس النشاط الصناعي والتجاري .

وليس هناك مجال لعهود الإقطاع وأشباهها عندهم ، كما هو الحال عندنا في بلاد الإسلام المنكوب .

ومع ذلك فقد زهد اليهود في هذه الشارات البراقة ، والعناوين التي يمكن التوصل بها إلى كسب قريب في محافل العالم السياسية .

أجل لقد رفضوا هذه الأسماء وعادوا القهقرى إلى التاريخ القديم ، يتسبّبون في ترابه ، وينقبون في آثاره ، وطورو عشرات القرون ، ثم ظهروا بعد ميلاد عيسى بألفي عام ، ظهروا على الناس باسم « إسرائيل » ، رمز تمسكهم بدينهم وتشبيتهم بذكرياتهم واحترامهم لمقدساتهم .

واليهود الذين فعلوا ذلك هم أساطين المال والعلم ، ودهاقين السياسة والاقتصاد . .

وفيهם من اشترك في تفجير الذرة ، ومن ساهم في كثير من المخترعات .

ومع ذلك فما شعروا بخجل في الانتماء لدينهem ، أو فكروا في التخلص من آصاره .

ذلك يحدث بين اليهود ، فى الوقت الذى تجد فيه مأفوناً كل بضاعته من العلم
قشور قرأتها ، أو لغة أجنبية أجادها ، أو تقاليد إفرنجية عرفها ، أو ملابس أوروبية
ارتداها ، ثم هو يتحدث عن الدين فيلوى لسانه بكلمات الرجعية والجمود .

فإذا تكون جيل من هؤلاء الحمقى يقف من الإسلام هذا الموقف الزرى فأى بلاء
يصيب الإسلام منه ؟

أليس من العجائب التى تلدها الليالى السود أن الذين يرزوا فى العلم المادى يؤمنون
بأدیانهم الباطلة ؟

وأن الذين طالعوا أنباء مقتضبة عن هذا العلم يريدون أن يكفروا بالدين الحق ، أى
بالإسلام الحنيف ؟

* * *

بدعة فصل الدين عن الدولة

إن تجريد الدين من سلطانه وحرمانه من حقه في السيادة والحكم بدأ أول الأمر مع المسيحية ، وتاريخ العصور الوسطى يسجل صراعاً بين السلطتين الدينية والزمنية ، ليس هنا موضع تفصيله .

والضرورات العملية جعلت المسيحية ديناً ودولة . وإن كانت نصوصها العلمية لا تذكر ذلك في جلاء وصراحة .

ونحن نعذر رؤساء الدين المسيحي في سعيهم للحكم ، لأننا نعرف أن الحكم في أيدي أعداء المسيحية - قدماً - عرض المسيحيين الأقدمين لفتن هائلة . ولقد كادت الوثنية الحاكمة تقضي على الإنجيل وأتباعه ، فمن حق هؤلاء أن يستخلصوا الحكم من أعدائهم وأن يستأثروا به في أيديهم .

ومن ثم أصبح الباباوات حكامًا بعد مراحل شتى من الاستيلاء على السلطة التنفيذية . غير أن الباباوات أساءوا أبلغ إساءة إلى العلم والخلق والحضارة ، فكانت الثورة ضدتهم عنيفة شاملة ، ولم تستطع أوروبا أن تسير في موكب العمran والتقدم حتى تخلت تماماً عن كل إثارة لنفوذ رجال الدين .

وفي هذا العصر نلاحظ أن الكنيسة أصلحت شأنها ، وهذبت مسلكها ، واسترجعت أغلب ما فقدت من نفوذ ، وأصبح رجالها ملوكاً غير متوجين .

وأصابع الكنيسة تعمل عملها في توجيه السياسات الداخلية والخارجية للكتلة الغربية التي تتزعمها أمريكا وإنجلترا .

والذى يسمع تصريحات مستر «ترشل»^(١) ومستر «ترومان»^(٢) في هذه الأيام يظنها قد كتبت لتكون عظة الأحد في كنائس نيويورك ولندن .

لقد كان الأمر منذ قرن عداء بين الدين المسيحي والدولة .

وهو في هذا القرن ود مكين وتحالف ظاهر !

والمغفلون من ساسة مصر الذين يرون أن الدولة يجب أن تبتعد عن الدين لا يزالون يقرءون كتب القرن السابق من تاريخ أوروبا .

(١) رئيس وزراء بريطانيا وقتئذ .

(٢) رئيس الولايات المتحدة الأمريكية وقتئذ .

ولعلهم لم يشعروا بعد بأن السادة الذين يقللون منهم قد غيروا آراءهم فيتغيروا كذلك معهم . ولقد روى البخاري ومسلم : أن نفراً من الإنس كانوا يعبدون نفراً من الجن فأسلم النفر من الجن واستمسك الآخرون بعبادتهم ، فنزل قول الله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَتَغَوَّلُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾^(١) ولنفرض أن أوروبا أصرت على فصل الدين عن الدولة ؛ لأن تعاليم المسيحية لا تأبى ذلك ، فمن الذي قال إن المسيحية في ذلك بالإسلام ! وإن القرآن كالمخليل ؟ إن مقارنة النصوص والدلائل هي الفيصل الحاكم على طبيعة كلتا الديانتين وهي ميسورة لكل ذي تفكير .

وثم حقيقة تاريخية أخرى تفرق بين الحكم الديني في الإسلام ، وبين الحكم الديني في المسيحية .

فليست لحاكم ما في الإسلام قداسة ولا صفة إلهية خاصة .

فالخلفاء الذين أخطأوا في أحكامهم وجدوا من الرعية من يقوم باسم الله ورسوله وبدافع من الإسلام وحده ، لينقد تصرفاتهم ويكشف أخطاءهم وخطئاتهم . فإذا أسقطهم أقام حكماً دينياً آخر ، هو في رأيه أقرب إلى الحق .

وأعan على ذلك أن كل شخص في الإسلام رجل للدين ، وليس الدين احتكاراً على طائفة دون أخرى .

أما المسيحية فعلى العكس ، تجد للدين رجالاً موقوفين عليه ، لهم مراسيم وحقوق خاصة والدين أصدق بهم من غيرهم .

والحكومات التي أقامها هؤلاء الرجال كانت تتمتع بلون فريد من القداسة والترفع . وكانت الشعوب تنظر إلى أعمالهم كأنها اتجاهات الدين نفسه ، وكأن صلة الشعوب بالدين لا تتم إلا عن طريق هؤلاء الرجال !

فلما ضاق الناس ذرعاً بتصرفات آباء الكنيسة انفجروا ضد الدين ورجاله جميعاً ، فهوبي بهم وهوبي به !!

شتان بين الإسلام والمسيحية في هذا المضمار من ناحية البحث العلمي والواقع التاريخي على السواء .

(١) الإسراء : ٥٧ .

الحكم الإسلامي بين اليهودية والنصرانية

عندما أذكر الإسلام والأديان السابقة أذكر قول النبي ﷺ في حق عيسى : « أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة ، ليس بيني وبينهنبي ، والأنبياء إخوة أبناء علات ، أمهاطهم شتى ودينهم واحد »^(١) .
وإذا كان هذا الإحساس الصادق هو ما يكتنف نبينا النبي المسيحية ، فاستمع كذلك لما يقوله محمد ﷺ في حق موسى .

قال ابن عباس : « قدم رسول الله ﷺ المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء .
قال : ما هذا ؟ قالوا يوم صالح ! نبى الله فيه موسى وبني إسرائيل من عدوهم .
فصامه ! فقال ﷺ : أنا أحق بموسى منكم ! . ثم صامه وأمر بصيامه »^(٢) .
ذلك موقف رسول الإسلام من مؤسسي الدينين العظيمين قبله .
وإنما أخذ الإسلام على كل من اليهود والنصارى أنهم ينتسبون إلى الدين إدعاء ولا يصنعون له شيئاً .

وقد جاء في القرآن الكريم : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِّنْ رَّبِّكُمْ ﴾^(٣)
فإن الانتساب المجرد إلى دين ما ، لا يكفي ، ولو أخلص أهل الكتاب في إيمانهم لأدى بهم ذلك إلى احترام القرآن ورسوله ، ولكنهم لم يحترموا كتبهم احتراماً عملياً ، فلم يحترموا ما بعدها طبعاً .

ولقد ظهر منذ ربع قرن « الإخوان المسلمون » يدعون إلى تطبيق التشريعات السماوية ، سناً بسن وعييناً بعين ، وحسب الناس أن ذلك رجوع إلى القرآن وتعصب له وحده .
ولو كان أهل الكتاب من اليهود والنصارى صادقين في تدينيهم لنادوا بذلك أيضاً ، فهذه الأحكام جاءت بها التوراة وصدقها الإنجيل قبل نزول القرآن بقرن .

(١) صحيح عن أبي هريرة .. أخرجه البخاري ومسلم ، وأبو داود والإمام أحمد .

(٢) فتح الباري .
(٣) المائدة ٦٨ .

وكذلك تحريم الربا والزنا وغيرهما .

ولكن الحقيقة أن العاطفة الدينية الخالصة النزيهة لا وجود لها اليوم إلا بين أتباع محمد وتحت رأية القرآن .

والحكم الإسلامي وحده هو الذي ينتظر منه أن يحارب الإلحاد بحرارة وينصف موسى وعيسى من أتباعهما والمدللين باسمهما .

وإنى لأذكر أن الأستاذ « وهيب دوس » المحامى كتب فى مجلة « الشئون الاجتماعية » مقالاً بعنوان « لطفولة المشردة » جاء فيه :

« أليست حضارة العلم تقوم الآن على تعاليم موسى وعيسى ومحمد ؟
هل كان أحد هؤلاء الثلاثة شيئاً يذكر عندما كان في مرحلة الطفولة ؟
ألم يكن أولهم لقيطاً على الوصف الذي ورد في التواري ؟ ألم يكن ثانיהם في حكم اللقيط ينتمي إلى نجار ؟ ».

فما كاد هذا المقال ينشر حتى ثارت ثائرة الجامع الأزهر فكتب محتاجاً على وزارة الشئون .. كيف تبيح نشر مثل هذا ؟

وكيف يعبر عن سيدنا عيسى أو موسى بأنه لقيط ؟ وكيف يقال عن ابن البتول إنه ينتمي إلى نجار ؟ !

والكاتب كما رأيت من أعيان المسيحيين في مصر .

ومدافع عن المسيح هو الأزهر مدرسة القرآن والسنة .

إن حاجة العالم إلى حكم إسلامي تقوم فيه الموازين القسط ويقوم على حراسة الوحى أمر لا يسوغ التشكيك فيه من أحد العقلاء .

* * *

سلطة روحية وزمنية

لکی نعرف حاجة الإسلام إلى الدولة وأن الحكم ضرورة لا محیص عنها في
وصول الدين إلى أهدافه المرسومة ننقل هذه النبذة من كتابنا «الإسلام والمناهج
الاشترافية» بعنوان عمل الدولة :

«في الإسلام عبادات شخصية يؤديها الأفراد أداءً مباشراً كالصلوة والصيام وما يقرب منهما ، وفيه كذلك عبادات اجتماعية يؤديها الأفراد بوساطة الدولة كالجهاد والقصاص وإيتاء الزكاة وما شابه ذلك .. والأصل في هذا الضرب من العبادات .. أنه لحفظ كيان الجماعة الإسلامية وتأمين سلامتها في الداخل والخارج ، ولنرتقي قليلاً في فهم الطريق التي تؤدي بها هذه العبادات .

أمر الإسلام بالجهاد في سبيل الله فهل من المستطاع أن يذهب كل فرد على حدته لقتال الأعداء؟ هل يقال إن الأمة نزلت عند حكم الله إذا أرسلت أبناءها فرادى قياماً بواجب الكفاح المنشود؟ لا ، بل هناك تجنيد عام وقوى متساندة وقيادة منظمة ، ووسائل عرفتها الأم بالبداهة فكانت الجيوش ورسمت الخطط ، وعلى الفرد أن يسلم نفسه في سن معينة للدولة وهي تصنع به ما تشاء وتتكلفه بما ترى وبذلك يكون قد أدى ركن الجهاد . ولو أدى هذا الواجب الاجتماعي بأسلوب فردي لفشل الدولة في الدفاع عن نفسها ، بل لفشل الفرد في العودة بنفسه سالماً . كذلك تكاليف الخدمة الاجتماعية التي تفرض على المرء أنواعاً من الزكاة والصدقات والضرائب ... الخ » .

إن الإسلام عقيدة وأنظمة وأعمال . ووظيفة الدولة محددة في القرآن والسنة تحديداً لا يحتمل لبساً .

ويوم يفقد الإسلام سيطرته على الحكم فستبقى الكثرة الساحقة من تعاليمه حبراً على ورق لأن تنفيذها عن طريق الفرد مستحيل ، وليس العادات الاجتماعية هي التي ستتشل وتذوى فقط ، بل العادات الشخصية المخض من صلوات واستغفارات وصيام وحج وغير ذلك ، إنها عندما تُحرّم كنف الدولة تنكمش وتموت !

فكيف إذا تجهمت لها الدولة ونبذت ذويها وحرمتهم رعايتها .

إن وظيفة الحكم في الإسلام ليست إدارية فقط ولا قضائية فقط ، بل هي إدارية قضائية عبادية ، تضم النواحي جميعاً في عروة لاتنفصل .

فالخليفة في نظر الإسلام إمام للصلوات كما هو فيصل في الخصومات .

وإذا كانت تقاليد القضاء الآن تحمل القاضي يصدر الأحكام بصفته نائباً عن رئيس الدولة ، فإن الإمام في مسجده كان ينبغي أن يوم الناس بوصفه كذلك نائباً عن رئيس الدولة !

والنصوص الفقهية الباقية الآن في أيدينا تكشف عن ازدواج السلطتين الروحية والزمنية في شخصية الحاكم ، فهو القائد الأعلى وهو القاضي الأعلى وهو الإمام الأعلى .

ولولا غلبة الاستعمار الثقافي وسيطرة الدول المسيحية على الشرق الإسلامي ما انفصلت ناحية العبادات عن أختيها ، ولما عرا الناحيتين الأخيرتين من المسوخ والتشويه ما تم على حساب التشريع الإسلامي للأسف الشديد .

إن هذا الكلام واضح . فقول الشيخ خالد « إن الهدایة إلى الفضيلة عن طريق الترويض هي رسالة الدين » .

أى إنه لا ضرورة لقيام دولة ! يكفى أن يتطلع بعض الناس بهذه الهدایة لو شاءوا .

ثم قوله : « ألم تأت يوماً إلى طريق متدر فرأيت مع بدايته علامات ترشدك إلى متجهه؟ وهل هو مهد للسير أم به ما لا يمكن من عبوره؟ إن تعاليم الدين كذلك ». أى إنها كالعلامات الحمر والحضر التي تنظم المرور في الطريق ، فليس من شأن الدين إلا مجرد الإرشاد الآلى وليس له اتصال بالحكم .

هذا الكلام بالنسبة إلى الإسلام تخليط وشروع . فللدولة في الإسلام وظيفة تستنفد الليل والنهار قبلما تنتهي من أعバئها ، ووظيفة السهر في الداخل والخارج على حراسة العقيدة ، والإعلان عنها ، والتبشير بها ، وتحقيق أنظمتها وإنفاذ أحكامها ، والإشراف العام على شئون أتباعها ، وتكوين الأجيال الجديدة من بناتها وبناتها ، وتسخير الأعمال المدنية لخدمتها .

أما أن الدين كعلامات المرور فلا حاجة به إلى الحكم ، فكلام يفنده الواقع ، فلو أن علامات المرور لم تساندتها قوة تنفيذية لما أبه لها الكثيرون .

ومن ثم وقف الجندي - وهو شارة الحكم - إلى جوارها .

ومن ثم وضعت اللوائح والقوانين وأقيمت محاكم المروء لتبني المخالفات المتوقعة من الطائشين والمتهورين .

* * *

على أن هذا الكلام كله ينطوى على مغالطة مستهجنة .
فمن الذي يزعم أن الترويض والإقناع محور الإصلاح في الحياة العامة؟ وأن تأسيس الأخلاق وحمايتها ومجانبة الرذائل ومطاردتها لا تعتمد إلا على هذا الأسلوب النظري المدرسي الناعم الرقيق ؟

وأى مجتمع في الأولين والآخرين قام على هذا الأساس ؟
وأين إذًا مكان الحكومات ، ووازع السلطات ، ورعب القانون ، ورجال الأمن ، وغير ذلك مما يعتبر ألزم اللوازم في طبائع العمران البشري ؟
إن قوانين الأخلاق لم تستغن يوماً ما عن قوانين الجنح والجنايات .
وإن العظات والنصائح لم تعن إغلاق السجون وتعطيل المحاكم .
وقد يسأل عثمان رضي الله عنه « إن الله يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن » .

فلماذا يقال لدين : إما أن ترشد فقط وإما أن تنهك بأنك تخرج على طبيعتك وتلجم إلى الإكراه وتطلب الحكم لذلك؟ ولا يقال مثل هذا الكلام لغيره من المبادئ الأخرى ؟
لقد قامت باسم الحرية حكومات لم تترك إحداها الناس يفعلون ما يروق لهم ، فلماذا نترك حكومات الحرية تقيد وتحدد؟ ويحضر على حكومات الدين أن تستعين بالسلطة المخولة لها على قمع الجرميين ومحو ما تراه مثار فساد في المجتمع ؟
هل إذا أصدرت الحكومة الدينية أمراً بمحاربة العرى على الشاطئ ، ومنع السابحين والسباحات من الاختلاط فيه ، واتخذت الوسائل العملية لذلك تكون قد خرجت على طبيعة الدين ؟

يقول الشيخ خالد : « أما حين تتحول هذه الوسائل إلى سوط الحكومة الدينية وسيفها فإن الفضيلة تصاب حينئذ بجزع أليم .. » .

جزع أليم !

إن هذا منطق لا ينتهي به البتة تفكير سليم .

هذه مغالطات

كما يتحول الخلق النفسي إلى سلوك عملي ، وكما تتحول الأفكار النظرية إلى حقائق ملموسة ، وكما تتحول المناهج المسطورة في الكتب إلى وقائع منقوشة في صفحات الحياة المتحركة ، يتحول الدين إلى دولة .

مسألة نحسبها من البداهة بحيث يعتبر السؤال عنها عبثاً .

ومن ثم فنحن نعتبر من المغالطات المكشوفة تساؤل الأستاذ خالد في كتابه «ماحاجة الدين إلى أن يكون دولة؟ هل الدين أدنى مرتبة من الدولة حتى يتحول إليها ويندمج فيها؟» .

هذا تساؤل عجيب! من قال : إن تحول الفكرة إلى عمل يسىء إلى الفكرة؟

إن الفكرة لا ينال منها إلا أن تظل أمداً طويلاً حلمًا يت.repeat في نفوس المصلحين .

أما أن تواليها أسباب التنفيذ فتعرض نفسها نظاماً حياً ودولة نافعة ناهضة فأى عيب في ذلك؟! هذه مغالطة لاريب فيها .

ومن التساؤل المنطوى على هذه المغالطات قوله «كيف يمكن للدين أن يكون دولة وهو عبارة عن حقائق خالدة لا تتغير ، بينما الدولة نظم تخضع لعوامل الترقى المستمر والتبدل الدائم؟» .

أ لأن الدين حقائق خالدة ينبغي أن تعطل أحکامه في حياة متتجدة؟!

إن الصدق والشرف والوفاء وسائر الفضائل يجب إقصاؤها إذن عن الحكم ، لأنها أخلاق ثابتة الحقيقة ونظام الدولة متغير أبداً .. !

وبهذا المنطق نقصى الدولة عن الأخلاق كما أقصيناها عن الدين .

صحيح أن الحياة الإنسانية كلها – لأنظم الدولة وحدتها – قد مشت فيها سنة النشوء والارتقاء ، بيد أن هناك أصولاً لا إنسانية عريقة بدأت من الأزل إلى الأبد تقرر صلة الإنسان بالإنسان ، وترسم الأهداف العليا للبشر رسمًا لا يتاثر بها يعرو صور الحياة من تجدد وتطور .

وهذه الأصول المقررة موضع الاحترام والاستقرار في كل مكان .

إذا ترك الناس ركوب الحمير إلى الطيارات جاء من يطلب تغيير الدساتير العتيدة
في الأدب والخلق والدين ، بحجة التطور؟!

ما علاقة أشكال الحكم المتطورة بالروح التي يجب أن يصدر عنها الحاكم ، وهو يقوم على شئون الناس ؟!

وليس أدهى من هذا الكلام فى فصل الدين عن الدولة إلا قول الأستاذ خالد بعدينز : «إن الدولة عرضة للنقد والتجريح ، وعرضة للسقوط والهزائم والاستعمار ، فكيف نعرض الدين لهذه المهانة؟» .

أى إن تكاليف الحياة ثقيلة ومحرجاتها جمة ، فخير لمن نحنون عليه أن نحكم عليه بالموت حتى لا يواجه هذه الآلام التي لا تخلو منها الحياة .

فلنبعد الدين إذن عن الدولة حتى لا تهب عليه تلك الزعارة .

إن الحكومة عرضة للنقد والتجريح ، فهل كونها دينية يجعل التهجم عليها تهجمًا على الدين نفسه؟ من قال ذلك؟!

ومنْ الَّذِي يَزْعُمُ أَنْ تَصْرِفَاتَ الْحَكَامِ الْدِينِيِّينَ جَزءٌ مِّنْ دِينِ اللَّهِ يُعْتَبَرُ نَقْدَهُ أَوْ رَدَهُ امْتِهَانًا لِلَّدِينِ وَكُفْرًا بِهِ؟

والدولة عرضة للانتصار والانحدار ، فإذا تأسست على الدين فأى ضير على الدين
أن يكون في حال النصر زماماً يمنع المنتصر من الطغيان ، وفي حال الهزيمة حافزاً يغرى
بالمقاومة ويدفع الشعوب إلى رد العداون ؟!

ولنفرض أن حكومة دينية محضًا سقطت أمام أعدائها ، فهل ينقلب الحق باطلا لأنه انحدل في معركة ؟!

أى عار على الدين إذا لحقته الهزيمة على يد الدولة التي تنافح عنه؟

وقدِيَّا هزمَ الدِّينَ وقتلَ فِي هزيمتِه صَدِيقُونَ وَأَنْبِياءٌ ﴿وَكَانُوا مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابُوهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعْفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ..﴾^(١)

لأشك أن محاولة فصل الدين عن الدولة بهذه المغالطات اللغظية أمر لا طائل تحته .

(۱) آل عمران : ۱۴۶

الحكومة الدينية والمعارضة

يزعم الشيخ خالد أن الحكم الديني يقوم على الاستبداد الأعمى ويعد «الغرور المقدس من شر غرائز الحكومة الدينية ، وهى لهذا لا تقبل النصيحة ولا التوجيه فضلا عن المعارضة والنقد ، فحرية النقد وحرية المعارضة وحرية الفكر كل هذه المقدسات عملة زائفة فى نظرها لا تسمح بتداولها بين الناس أبداً وإن الحديث الذى قتل به الحسين لا يزال فى انتظارك إذا حاولت أن تنقد الحاكم الدينى أو تحطمه » .

ونحن نتساءل : أصحىح أن الحكم الإسلامى يقوم فى هذا الجو الخانق النكد ؟!
إننا إذا رجعنا إلى تعاليم الإسلام وجدها يخلق أمام كل حكومة معارضة جريئة يقظة ، تتعقب كل خطأ بالنقد ، وتزن كل فعل يصدر عن الحاكم بميزان لا يجوز ولا يحيف .

فإذا فرط جيل من المسلمين فى هذا الواجب - واجب توجيه الحاكم وإرشاده أو تأدبه وإصلاحه - فقد خرج على تعاليم الإسلام .

وانظر إلى قول النبي ﷺ : «إذا رأيتم أمتي تهاب أن تقول للظالم : يا ظالم فقد توعّد منها !»^(١) .

ومجاهدة الحكومات الظالمة إلى الرمق الأخير هو في نظر الإسلام أعلى مراتب الشهادة في سبيل الله : «سید الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله»^(٢) .

فليس الإسلام هو الذي يخلق رعية جاهلة مستكينة تعجز عن تأديب حكامها بهلأن تستنئم على ضيائهم وتخضع لهم .

فإن يكن ذلك موقف الإسلام في تأليب الأم على الحكام المستبددين فلا إسلام كذلك تعاليم محددة تكشف عن موقف الحكومة من الشعب وتضعه في إطار من العدالة والرحمة والانتصاح لا يسمح بالافتياض والاستبداد .

(١) حديث صحيح ورد بنصوص أصحها «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه » .. أخرجه أبو داود والترمذى .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك عن جابر .

ولشرح هذا المعنى موضع آخر . على أن الأم قد تبتلى ب الرجال مجرمين يلون أمورها ويقتلون بناتها . الأم كلها من مسلمين ونصارى ، من لهم كتاب ، ومن لا كتاب لهم ، من العرب والعجم ، من الماضي والحاضر .

فبالله لماذا يحمل الإسلام ويحمل الحكم الإسلامي وحده أوزار هؤلاء الحكماء المجرمين . !؟

لقد قال النبي ﷺ : « هلكة أمتي على يد أغيلة من قريش »^(١) . فهل تصرفات أولئك الأغيلة هي التي يستقى منها الطعن على قواعد الحكم الديني كما يفعل صاحبنا الأستاذ خالد ؟!

على أن الإسلام الذي اعتبر من شعائره العظمى نقد كل خطأ ، وحرب كل منكر ، سواء صدر من حاكم أم من سوق ، احتاط ضد الثورات الطائشة خشية عواقبها الوخيمة . وهنا يجب أن نذكر أن حرية النقد شيء ، وحرية الثورة المسلحة شيء آخر .

وكلمة الخروج على الحاكم كانت قد يمّا تعنى شهر السلاح فى وجهه .

ولا أظن أحداً ينتظر من الإسلام أن يبيع هذا الحق لمن يشاء متى يشاء . وكل ما ذكره الإسلام في إطفاء بنور الحرب الأهلية قول الرسول : « ستكون هنات وهنات فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضريوه بالسيف كائناً من كان »^(٢) . وهذا حديث لاغبار عليه .

وأرقى الأم الدستورية تعمل بوحده فى أيام حربها وسلامها ، فإن حق الثورة المسلحة ليس كلاماً مباحاً يرعاه كل غضبان .

أما اعتبار المعارضة المشروعة خروجاً على الدين وحكومته يقتل من أجلها المعارض استدلاً من الحديث السابق فهو ما لا موضع له فى أدمغة العلماء .

إن السفلة من الحكام قتلوا كثيراً من الناس جرياً على طبائع الاستبداد لا اتباعاً لأحكام الله ، فلا ينبغي الاعتذار للمجرمين بأنهم تأولوا آيات الكتاب وأحاديث الرسول ﷺ .

فهم لا يعرفون لله حقاً ولا لرسوله حرمة ، وقيبح بنا هذا الانتحال .

(١) صحيح - أخرجه البخاري ، والإمام أحمد ، تحت رقم ٧٠٣٨ في صحيح الجامع بنص « هلاك أمتي على يد غلنة من قريش » .

(٢) صحيح - أخرجه مسلم ، والإمام أحمد وأبو داود والنسائي عن عرفجة وتحت رقم ٢٢٩٣ في صحيح الجامع .

بين الحكم الديني والحكم القوهي

وهذا سؤال لابد من إيراده حينما نقرر علاقة الدين بالدولة ، هل يستطيع الإسلام أن يعيش في ظلال حكم قومي ؟

والجواب يؤخذ من تعاليم الإسلام نفسه .

عرفنا مثلاً أن الإسلام من الناحية الاقتصادية يحرّم الربا والاحتياط ، ومن الناحية السياسية يحرّم الأثرة والاستبداد ، ومن الناحية النفسية يحرّم الإلحاد والفساد ، ويوجّب مثلاً أن يكون رجاله - ولادة ورعيّة - مقيمين للصلة وقافين عند حدود الله .

فإذا كانت أداة الحكم منفذة لهذه الأمور كلها فإن الإسلام يعيش في كنف هذا الحكم ويطمئن إليه ولا يكترث بهذا العنوان الذي اتسم به ، عنوان الحكم القومي أو غيره من الألقاب والنعموت .

والمهم أن للإسلام تشعيرات وأهدافاً يريد أن يصل إليها حتماً .

وعلى الحكومة قسط ضخم من هذه التكاليف يجب أن تقوم به ..

أما إذا كان هذا الحكم القومي المنشود لا يبالى باتجاهات الإسلام الاقتصادية ولا السياسية ، ولا يكترث لتعاليمه الأخلاقية والاجتماعية ، ولا يلتفت لتشريعاته المدنية ولا الجنائية ، فهذا حكم مبتوت الصلة بالدين .

ومطالبة الإسلام أن يعيش هادئاً في كنفه يشبه مطالبة المستعمرات أن تخيا ذليلة تحت سيطرة الدول التي اغتالت حقوقها وسرقت مرافقتها ..

ويستحيل أن يكلف مسلم باحترام هذا النوع من الحكم ، بل واجبات المسلم تتجاه دينه تفرض عليه الجهاد الدائم حتى يمحو هذه المساخر المستولية على السلطة ، ويقيم حكماً ينفذ وصايا الإسلام ويحقق غاياته .

هذا ، ومن المفيد أن نذكر أن الدستور المصري^(١) القائم يعين إعانة تامة على تكوين حكومة إسلامية رشيدة ، وأن الإلحاد لا الإيمان هو الذي يتهم هنا بقلب نظام الحكم . وأن الاستقرار الدستوري من عوامل النجاح لبلوغ الأغراض الدينية السابقة .

(١) الدستور القائم في مصر قبل ١٩٥٢ .

هل يذهب الإسلام ضحية هذه الافتاءات؟

مع وضوح منهج الإسلام في كتاب الله وسنة رسوله ، ومع أن شعاعه ظل يتألق في ظلمات هذه الدنيا قروناً طويلاً ، ومع أن تاريخ الإسلام أزهى وأنصر من تاريخ الأديان الأخرى ، بل أزهى وأنصر من تاريخ الحضارة العالمية المعاصرة على ما في تاريخ كل دين وكل حضارة من صعود وهبوط وحرارة وبرود ، مع هذا كله ، فإن الأستاذ خالد ألقى نظرة على بعض المأسى التي ارتكبها أفراد معينون ، وحاول أن يتخذ منها قانوناً عاماً يطبقه على دين الله ، وآفة الشيخ خالد أنه :

(١) يقيس تاريخ المسجد على تاريخ الكنيسة! ، ومؤرخو العالم جمیعاً رفضوا هذا القياس ، ولم يجرؤ أحد من المستشرقين والمبشرين على التسوية بين كهنة المسيحية في موقفهم من العلم والحضارة وبين موقف المسلمين في هذه الناحية .

وليس يغض من جلال هذه الحقيقة أن الشيخ خالد اكتشف أن شيخاً من شيوخ العرب في أعماق الصحراء أمر بتطهير علم الجغرافيا وتدرس التوحيد بدله كما يقول!! أو أن عربياً كره سماع الراديو أو استعمال التليفون!! فإن تاريخ العالم لا يقوم على استقصاء نوادر المغفلين ، وحوادث الجاهلين .

وليس هذه هي العقبات التي توضع في طريق الإسلام .

(٢) ويخلط الأستاذ بين مطالب الدين الصحيح وأثار التدين الفاسد ، فإذا قامت جماعة باسم الدين تطلب حبس المرأة في البيت ومنعها من التعليم والتربيـة ، صاح ألم أقل لكم إن الدين لا يجوز له أن يحكم أو يسود؟!

وبهذه الطريقة في الاستدلال تلقي فأفعال الحكام السفهاء وصاغ منها براهينه على ضرورة فصل الدين عن الدولة!

والغريب عنده أن الإسلام يحمل أوزار المجلين باسمه ويبوء بإثمتها .

أما ما فعلته إنجلترا بفلسطين وإيطاليا بطرابلس وفرنسا بسوريا ولبنان وروسيا المسلمين وألمانيا باليهود وأمريكا بالزنوج ، فهذه كلها أمور لا تشين الحضارة الحديثة ولا تشوّه وجهها الصبور ، فأى منطق هذا؟!

إنه سرد حكايات يعرفها الناس عن الإرهاب الذى يسود جزيرة العرب ، زاعماً أنه أعطانا بهذا صورة الحكومة الدينية سنة ١٩٥٠ ، فلما أحس بأن هذا قسم مشتركة بين الحكومات التى ذكرها ، وبين بعض الحكومات القومية المتمدينة ، وأن مصدره فى كلتا الحالتين لا يمكن أن يكون الدين . قال : «بيد أن الحكومة القومية التى تتبع سبل البغى لا يمكن أن تبقى طويلاً» .

لماذا ؟ يقول : لأن من ورائها رأياً عاماً قادراً على أن يزلزلها ولو بعد حين . أما الحكومة الدينية - فى منطق الشيخ خالد - فالأمر كله لها لامعقب لحكمها ولا معارض لشیئتها .

وبهذا الاستدلال .. نصف نوعاً من الحكم بأنه ديني - رغم أنه مبتوت الصلة بالدين - ثم نصف الدين بأنه سوف يرضى أبداً بهذا النوع من الحكم مهما زُوِّر عليه . ويستخلص من كلتا المقدمتين أن الدين لهذه الأسباب لا يجوز له أن يحكم .

تلك هي الحيثيات الهزلية التى يفصل الدين بها عن الدولة . نتركها تحت تصرف القراء ، وسنزيدها بياناً عندما نتكلم عن مخازى الحكم القومى فى الديمقراطيات الحديثة!!!

* * *

أعود إلى الجاهلية الأولى؟!

عندما ضعفت الدولة الإسلامية في العصور الأخيرة وفسد الحكم في ظل خلافة مريضة جاهلة^(١)، وشعوب وانية منكوبة ، وامتدت مخالب أوروبا الصليبية إلى جسم الوطن الإسلامي الكبير تنهش وتلتتهم ، قامت دعوات شتى تنزع إلى إصلاح ما فسد وإقامة ما تتصدع ، وتحاول استنقاذ المسلمين مما حاق بهم من مصائب فادحة في الداخل والخارج .

ومن أعاظم الرجال الذين تفانوا في سبيل إقامة حكم إسلامي نظيف يعتمد على أمة فيها أخلاق القرآن ومناهجه ، واتجاهاته ، جمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده ، وأحمد عرابي ، وحسن البنا ، وعبد الرحمن الكواكبى ، وغير هؤلاء من نظروا إلى المسلمين على أنهم أمة واحدة ، وإلى أسلوبياتهم الموروثة على أنها علة مشتركة ، وعالجوها بروح يستهدف كتاب الله وسنة رسوله مباشرة .

ويبدو أن الأحوال التي واجهها أولئك الزعماء كانت أعتى عليهم مما يقدرون ، أو على الأصح مما تقدر عليه الأمة المهيضة التي يجاهدون من أجلها ، ومن ثمَّ فلم يستطيعوا تحقيق ما يبتغون!

بينما خلا الجولنوع آخر من الزعماء المدنيين جعلوا أوروبا قبلتهم وظنوا أن تقليدهم في كل شيء هو طريق النهوض بشعوبهم المستضعفة ، فمثلوا من حيث يعرفون أو لا يعرفون قصة الحمار حامل الإسفنج مع زميله حامل الملح ، لما اعترضهما مجرى ماء .

وكانت النزعة القومية الخالصة أهم ما نقلناه عن الغرب وجعلناه حجر البناء في إقامة الدولة الحديثة .

وإنك لترى وتسمع زعماء تركيا وإيران ومصر والعراق والجزائر وطرابلس يخطبون في هذه الفسالة العميماء ، فإذا كل دويلة مسلمة يضئيها السعي وراء استقلالها الخاص أو حماية حدودها الضيقية ، ثم لا تظفر من ذلك بشيء طائل ؟

(١) الخلافة العثمانية .

ولم نستفد من بركات النزعة القومية إلا خسران الوحدة الإسلامية وتمكن الاستعمار الصليبي ، ثم الصهيوني أخيراً من أكل حقوقنا ودوس حرماتنا .

وهل صحيح أن هذه خسارتنا فقط؟ كلا . فالحقيقة أن كل تزكية للنزعات القومية ، والعصبية الجنسية ، والوثنية الوطنية . إنما تتم على حساب فقد العقيدة نفسها ، لا على حساب فقد الحكم الإسلامي وحده .

وأن إحياء هذه النعرات الخبيثة مؤامرة على قتل دين الله ، وإعادة الجاهلية الأولى بكل أوزارها وظلماتها .

وأن ما فعل « مصطفى كمال »^(١) في تركيا ، وتابعه عليه زعماء مصر وغيرها من بلاد العروبة والإسلام ، كان تخبطاً لم يصب حقاً ولم يحقق نفعاً .

وأن تأييد الأستاذ خالد لقومية الحكم دون إسلامية الحكم كان منه خطأ كبيراً .

* * *

(١) مصطفى كمال أتاتورك - المترمى لجمعية الاتحاد والترقي - صاحبة الميل الصهيونية .. والذى استطاع بمعاونة أعداء الإسلام القضاء على الخلافة الإسلامية فى تركيا .

طبيعة الإسلام

إن الإسلام مبادئ عامة لا تفرق بين جنس و الجنس ولون و الوطن ، هو هداية من الله « رَبُّ النَّاسِ مَلِكُ النَّاسِ إِلَهُ النَّاسِ »^(١) إلى الخلق أجمعين .

هو نظام يقوم على أن الله وحده هو صاحب الجلاله والكرامة في مملكة لا فرق بين عربي وعجمي ، يحكم فيها بأمره ، وينفذ فيها شرعه ، ويتساوى فيها عباده ، وتخلو أركانها من الطواغيت والجبارية ، ومن فلسفة القوة ومنطق التكبر وقوسة العدوان والادعاء ! .

أترك هذا الدين العظيم والحكم به إلى تخريف الأفakin وحضاره المشعوذين من أكلة الحقوق والشعوب !

كيف ترك الحكم الإسلامي إلى الحكم القومي ؟! فتنسى رسالتنا ونضيع سعادتنا ونسفه أنفسنا ونجهل مع الجاهلين !

إن الفرق بين صاحب التفكير القومي والتفكير الديني كالفرق بين خفير في عزبة أحد الباشوات ، وبين عضو مشغول بالسياسة الدولية في مجلس الأمن ! شتان بين العقلين والهدفين والميدانين !

ومن ثم كان الارتكاس في هذه الحمأة عمى وردة . قال النبي ﷺ : « من قاتل تحت راية عمية يدعو لعصبية ، أو ينصر عصبية فقتلته جاهلية »^(٢) .

* * *

لقد تمحض هذا العصر عن مبادئ عامة بدأت تطغى بقوتها على العنصريات الخاصة .

انظر إلى الشيوعية وكيف تنتشر في العالم . وكيف ينسى معتقدوها قضايا وطنهم ويشغلون أنفسهم بقضايا مذهبهم الثائر .

لقد اعتبروا قرابة الفكرة قبل قرابة الوطن .

(١) من سورة الناس ١ - ٣ .

(٢) صحيح : أخرجه البخاري والنسائي عن جندب وفي سنن ابن ماجه عن أبي هريرة بن الصديق « من قاتل تحت راية عمية ينصر عصبية ويغضب للعصبية فقتلته جاهلية » .

والشيوعيون الآن في أمريكا وإنجلترا ضد حكومات بلادهم في صراعها السياسي مع روسيا ، فإذا كان هذا مبلغ سيطرة الفلسفات الأرضية على أهلها ، فكيف يطلب من الإسلام أن يكون له منزلة ثانية عند أهله ؟ ! .

بل كيف يطلب منه أن يذوب أمام القوميات والأجناس ؟ !

يجب أن نعلم أن الإسلام قربة قبل قربة الدم ، ورابطة قبل الوطن وفكرة موجهة ، وعقيدة دافعة ، وعاطفة مهيمنة ، قبل آية فكرة أو عقيدة أو عاطفة يهتز بها ضمير إنسان .

وأن القرآن إذا جاء بحکم فلا راد له .

وأن السنة إذا أوحىت بعمل فلا كلام بعدها ^(١) .

وأنه تحت رأية القرآن والسنة يصطف البشر كافة من زنوج وسكسون ومن هنود ولاتين ومن عرب وعجم وإفريقيين وأمريكيين ، لا يفضل أحدهم أخيه بشيء أبسط ، إلا أن يكون بتقوى الله ^(٢) .

* * *

(١) «وما كان مؤمناً ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ...» (الأحزاب: ٣٦) .

(٢) «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» (الحجرات: ١٣) .

خسائر المسلمين من آثار النزعات القومية

بدأت في تركيا حركة رجعية بالية لإحياء الجنسية الطورانية ، انتهت بحرب الخلافة الإسلامية وفصل الدين عن الدولة .

فماذا أفاد الأتراك من ذلك ؟! لقد كانوا باسم الإسلام وفي ظله يخيفون جارتهم روسيا ، وظلوا عدة قرون يديرون رحى الحرب في أرض روسيا نفسها !

أما اليوم فتركيا دويلة تتسلّل سلاحها من أمريكا ، وتعيش ذنبًا للديمقراطية المفككة ، وتقبع مرعوبة في أقل من ١٠٪ من حدودها الأولى ..

فماذا أفادها كفرها !!!

وكان العرب باسم الإسلام يعيشون في بلادهم كراماً ، فلما هاجت العصبية للعروبة في دمائهم وحاربوا الأتراك مع إنجلترا الكى يقيموا ملكاً عربياً خالصاً ، ماذا أفادوا ؟!
أصبحوا بين لاجئين ، وبين عبيد لإنجليز أو لليهود !

والعجب أن المرض الذي ساقهم إلى موارد التلف لاتزال له جراثيم تعمل عملها في أفكارهم وتصرفاتهم .

ولقد راقبنا الجدل العقيم الذي دار بين مصر من ناحية والعراق والأردن من ناحية أخرى بشأن مسألة فلسطين ، فراعتنا أعراض الداء الوبيـل فيما جرى بين الألسنة من كلام وخصام . كتب الشيخ « سيد رجب » محرر مجلة « نور الإسلام » - لسان الأزهر في الوعظ والإرشاد - يقول :

« طلت علينا صحفة « المصري » بحديث بحلالة الملك عبد الله يشكك به الناس في عروبة مصر ، وتصف المصريين بأنهم شعب إفريقي لا أصالة له في العرب ولا تجمعه بهم صلة رحم ولا نسب .

ومن ثم فلا حق له في الانتماء إليهم ، فضلاً عن تولى قيادتهم » .

وأخذ الشيخ الفاضل في تكذيب هذا الزعم قائلاً :

« إن مصر من الأصول الأصلية في العروبة مالم يشاركها فيه إقليم من سائر الأقاليم العربية . فلقد كانت السيدة هاجر أم إسماعيل بن إبراهيم سيدة مصرية وبها ثبتت خُولة مصر لجميع العرب فوق عمومتها بعد ذلك بالعرب الفاتحين .

فما من عربي في الدنيا من أبناء إسماعيل إلا من مصر أمه وفيها حاله وعمه .

وزادت مصر بعد هذا شرفاً على شرف بأن كان فيها خُولة إبراهيم بن رسول الله ، وأن أمه هي «السيدة مارية» القبطية ، فأي قطر من أقطار العروبة أعرق في حسبها ونسبها ، وأجمع لجديدها وقديمها ، وأنجب خالها وعمها مثل مصر ؟

على أننا - مع هذا كله - لا نقصد إلى قصر العروبة على من له فيها أب وأم أو حال وعم ، كيف ! والاستعراب أصل أصيل في العروبة ، بل هو أصلها الراسخ المكين . فإن إسماعيل بن إبراهيم هو نفسه كان عبرانياً كأبيه : وإنما استعرب بأصهاره الواحدين عليه من اليمن ، ثم أصبح المستعربون أفضل وأشرف من العرب العاربة » .

ومضى الشيخ سيد رجب بهذه الأدلة يفنن كلام الملك عبد الله ويلقى عليه التراب !

ونحن نتساءل فيما هذا الجدل كله ؟ وما يضرنا أو يفيينا من هذا النسب ؟ وما ينقصنا أو يزيدنا من إفريقيا أو آسيا !

وما فضل عبد شمس على توت عنخ أو تحتمس على عنترة !!؟

ولماذا لا يقال في إيجاز : إن الزنجي المسلم خير من الهاشمي المنافق ؟!
وإن قضية فلسطين من شأن الإسلام والمسلمين قبل أن تكون من شأن العرب والمستربين .

وإن صاحب الرسالة العظمى قال : « لينتهي أقوام من الفخر بآبائهم الذين ماتوا ، إنما هم فحم جهنم ليكونن أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخراء بأنفه . إن الله تعالى قد أذهب عنكم عبية - كبر - الجاهلية إنما هو مؤمن تقى أو فاجر شقى : الناس كلهم بنو آدم وأدم خلق من تراب » (١) .

(١) صحيح : أخرجه الترمذى عن أبي هريرة بالنص الآتى : « لينتهي أقوام يفتخرن بآبائهم الذين ماتوا ، إنما هم فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخراء بأنفه ، إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالدباء ، إنما هو مؤمن تقى أو فاجر شقى ، الناس كلهم بنو آدم وأدم خلق من تراب » .

دستور أصلي وقوانين فرعية

عندما ينفذ الحكم الإسلامي ستظهر في معالله الأولى الأمور الآتية حقائق لا تقبل جدلاً :

- ليس للوجود إلا سيد واحد تلتقي عند ذاته العظمى معانى التقديس والجلال ، الرغبة والرعب ، هو الله الواحد القهار .
- الناس جمیعاً أمة واحدة تذوب فيها العناصر والمعادن والأجناس والأوطان لا تفاضل بينهم إلا بالحق والعمل .
- المشرع الفرد هو الله وحده ، ليس لبشر أن يدين بشراً أو يشرع له .
- وأبناء آدم سواء في خضوعهم لقوانين الله لا يستثنى منهم كائن مهما علا شأنه .
- والوحى الإلهي دعامة العدالة في شئون الدولة والمجتمع ، فحيث لا يوجد الحق لا يكون هناك وحى ولا شرع ، بل دجل وتزوير .. ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾^(١)

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًاٍ بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾^(٢) توجد في الإسلام ت Siriقات فرعية كثيرة ليس أحدها أحق بالتنفيذ من الآخر ، وهى كلها مظاهر لطلع الإسلام إلى الحكم وهى منه على الدولة .

وهناك ما يزيد على ألف نص من آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ تتصل بأغراض شتى :

منها ما يتصل بالشئون الشخصية كالزواج والطلاق والحضانة والميراث .
ومنها ما يتصل بالشئون التجارية كالبيع والإجارة والشركة والمضاربة .
ومنها ما يتصل بالشئون الجنائية كالقصاص والديات والجرائم الأخلاقية والاجتماعية من زنا أو سرقة أو ما شابه ذلك .
ومنها ما يتصل بالمواхи الاقتصادية العامة كالربا والاحتكار .

(٢) الحديد : ٢٥ .

(١) الشورى : ١٧ .

ومنها ما يتصل بالمنازعات السياسية كالثورات والحروب والمعاهدات والخلافات العامة . على أن دائرة المعاملات مرنّة ، وقد أعطتنا الشريعة نصوصاً محددة وقواعد مطلقة . ومن البداية أن إحصاء ذلك يتطلب منا أن نعرض نصف الإسلام فليرجع من شاء إلى أمهات الكتب في الأصول والفقه ، يتعرف منها آفاق القانون الإسلامي الرحبة ، ومنادحه الواسعة .

إنما أردنا أن نضع أيدي المنكرين على ما يدحض شبههم ويدعوها هباء ، وكما قلنا ليست هذه التشريعات إلا حركات تدل على ما في الجسم من حياة وما ينضح به من قوة .

أما الروح الأصيل الصارخ بطبيعة الحكم في الإسلام ومعنى الدولة فيه ، فإنه ينبع من أساس العقيدة نفسها . فتوحيد الله محور لسياسة عالمية واجتماعية تقوم على الحق والتأخير والعدالة ولا تستغني عنها الحياة أبداً .

* * *

مكابرة

التتجنى على الحقائق الواضحة بجهلها أو جحدها يكلف الناس شططاً ويوقعهم في أغلاط أو مغالطات تحاكى عبث الأطفال .

هب أن رجلاً كون فكرة عن «تشرشل» داهية إنجلترا المعروفة أنه أديب وخطيب ، وأن حياته تقوم على الكتابة والخطابة فحسب ، وأنه لا يعرف عن السياسة شيئاً ولم يعمل في ميادينها يوماً!

فإذا قلت له : إن هذا الرجل ولد وشاخ في السياسة ، وإنه خاض حربين هائلتين وضرب دول العالم بعضها البعض وكان لتدبيره وتفكيره أثر عميق في تاريخ بلاده فكيف يوصف بأنه غير سياسي ؟ !!

قال لك : ولو ! .. إن الظروف هي التي اضطرته إلى ذلك !

وشن الحروب ، وعقد المعاهدات ، وتشريع القوانين ، وتولى القضاء ، وغير ذلك من الأعمال ، قد يتولاه الرجل ولا يسمى سياسياً .. !!

أمثل هذا الكلام يساق بين الناس على أنه استدلال وتدقيق أم على أنه لغو وهزل ؟!
بيد أن صديقنا خالداً يريد أن يوهم قراءه بذلك ، وبأن هناك «تحديداً» صريحاً لوظيفة الرسول ﷺ ومهمة الدين - النبوة لا الملك والهدایة لا الحكم ..

وصحيح أن الرسول ﷺ فاوض ، وعقد المعاهدات ، وقاد الجيوش ، ومارس كثيراً من مظاهر السلطة التي يمارسها الحكام - هكذا يقول خالد - ، وأقام بعض خلفائه من بعده حكومات واسعة النفوذ عظيمة السلطان ، ولكن هذا كله لا يعني أن هناك طرزاً خاصاً من الحكومات يعتبره الدين بعض أركانه ..» .

إذاً لماذا تولى الرسول شئون السلطات المختلفة وشرع أحکاماً معينة ، وقام بتنفيذها أو أرسل من يقوم بذلك ؟!

يقول الشيخ خالد «إنها الضرورات الاجتماعية التي أججأته إلى ذلك ليحقق المنفعة والسعادة لمجتمعه الجديد» .

فهل صحيح أن الرسول دفعه الضرورات المؤقتة إلى الحكم ؟
وأنه لو لا هذه الضرورات الملحة ما شرع ، ولا قضى ولا حارب ، ولا عاهد ! هذا
كلام ينطوى على تخليل وغلط فاحش .

فالله سبحانه وتعالى - لا الضرورات المزعومة - هو الذي حدد لنبه مهمته وجعل
الحكم جزءاً منها في قوله : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَأَكَ اللَّهُ﴾^(١)

وقد ندد الله بقوم من أهل الكتاب أعرضوا عن حكم القرآن لما دعوا إليه ، ودعوة
الناس إلى الاحتكام لرسول الله ﷺ ، وما جاء به يرفع معنى الضرورة بداهة ، قال الله
تعالى : ﴿أَلَمْ تَرِ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمْ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾^(٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾^(٣) .

ويقول في سورة أخرى : ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمْ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾^(٤) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمْ الْحَقُّ يُأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾^(٥) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٦) إِنَّمَا كَانَ قَوْنَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾^(٧) .

فهل هذه لهجة دين يعتبر الحكم نافلة ، وينظر إلى القضاء في الخصومات على أنه ضرورة ؟

وماذا يقول صديقنا في نفي الإيمان بالله ورسوله ﷺ عنمن لا يخضع لأحكام
الشريعة في مثل قوله تعالى : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(٨)
الحق أن الله شرع في كتابه ، وأمر الرسول ﷺ بالتنفيذ ، ووصى الناس بقبول

(٢)آل عمران : ٢٣ : ٢٤ .

(٤) النساء : ٦٥ , ٥ .

(١) النساء : ١٠٥ .

(٣) النور : ٤٨ : ٥ .

الأحكام المنزلة من حد أو قصاص أو تأديب ، واعتبر تعطيل هذه الأحكام المقررة كفراً أو ظلماً أو فسقاً حسب الملابسات التي تقترب بالتعطيل .

وما من نظام في الدنيا يهدم حكماً من أحكام الله إلا باء واحد من هذه الأوصاف أو بها جميعاً .

ومادامت هذه منزلة الأحكام المقررة فهي جزء من الدين ، وليس جزءاً من الدنيا يندرج في حديث «أنتم أعلم بشئون دنياكم» الذي أورده الأستاذ خالد في غير مورد!

إن هذا الحديث يقول للمسلمين : إن أساليب الزراعة والصناعة والتجارة ليست مما جاء الرسول ﷺ لتفقيه الناس فيه .

وسبب الحديث كما رواه مسلم عن رافع بن خديج قال : «قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يؤبرون النخل - تأثير النخل تلقيحه - فقال ما تصنعون ؟ قالوا : شيئاً كنا نصنعه ..

قال : لعلكم لو لم تصنعوه كان خيراً! فتركوه فنفضت - تساقط ثمرها - فذكر له ذلك .

فقال : إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشيء من أمر دينكم فخذلوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر .

فأى صلة بين الحديث - وهذه قصته - وبين شئون القضاء ونصوص الأحكام التي لم ينزل بها الوحي على نبينا محمد ﷺ فحسب ، بل نزل بها - من قبله - على أنبياء كثريين وأمر الرسول ﷺ بإقامتها نزولاً على حكم التوراة والإنجيل والقرآن؟ هذا خلط لا معنى له !!

* * *

مؤسس دولة

لنترك هذه الصفحة من شئون الدولة الداخلية ووظيفة الرسالة فيها .

ولننظر إلى سياسة الدولة الخارجية وموقف الرسول ﷺ منها ، لنجد أن الرسول ﷺ قد وضع الأساس لإقامة حكم إسلامي واسع النطاق ، بدأت دائرة تنداح ، وتتسع حدودها ، وتمتد أقطارها حتى شملت - أو كادت - المعمور من الدنيا .

قد بدأ الرسول ﷺ بإعداد الوسائل الحربية والنفسية وتهيئة المقدمات السياسية لهذا العمل الضخم ، فراسل ملوك العالم على عهده وطالبهم بالانضواء تحت علم الدين الجديد .

وكان هؤلاء الملوك يمثلون أسرًا استعلت على الشعوب واستهلكت قواها ومواهبها .

فلم تكن هذه الرسالة النبوية إلا صيحة النذير والتحذير تسبق ما بعدها من حروب التحرير والإنقاذ .

وهكذا ربى رسول الله ﷺ العرب ليربى بهم العالم ، وهدم فيهم الجاهلية ليهدم بهم الفرعونية والكسروية والقيصرية .

وأنقذهم من أصنامهم الحجرية ليحطّم بهم أصنام المجد الكاذب وليعطى الأمم المنهوبة فرصة الحياة الحرة في ظل إله واحد وأخوة عامة .

وكان التعليم الإلهي المخصوص هو الذي حدد لرسول الله ﷺ هذا الهدف كما روى الإمام مسلم : « ... إن الله تعالى نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب .

وقال : إنما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك ، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقطنان وإن الله تعالى أمرني أن أحرق قريشاً . فقلت : رب إذا يبلغوا رأسي فيدعوه خبزة . فقال : « استخرجهم كما أخرجتوك واغزهم نغز بك ، وأنفق فستنفق عليك ، وابعث جيشاً نبعث خمسة مثله وقاتل بن أطاعك من عصاك ... » ^(١) .

(١) من حديث مطول .. صحيح أخرجه مسلم والإمام أحمد عن عياض .

والواقع أن هذه الحروب كانت تتمشياً مع دستور الإسلام وطبيعته ، فهو لا يقابل العداون بالاحتجاج الصامت ! ، ولا يترك الشعوب ترثي تحت وطأة جلاديها ثم يذرف الدموع لها .

ولو قد فعل الإسلام ذلك ما استحق أن يكون ديننا ! ولما استحق رسوله أن يكون سيد الزعماء .

وإنما الذي حدث أن النبي العظيم بدأ على عجل يؤسس الدولة التي تختضن الحق وتنافح عنه ، وترغم الطواغيت على الفرار أمامه .

فما كاد يجمع الناس صفوفاً في المسجد حتى ساقهم صفوفاً في الميدان ، ثم ألقى بذور الأمل في نفوس أصحابه فأفهمهم أن هذه الدولة الفتية لن تلبث طويلاً حتى تستولى على مقاليد الأرض وتirth فارس والروم .

وفي حديث مسلم « إن الله زوى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوى لى منها ... »^(١) .

وكذلك قال النبي ﷺ « إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، والذى نفسى بيده لتنفقنَ كنوزهما فى سبيل الله »^(٢) .

وبهذه العقيدة وهذا اليقين سارت الجيوش الإسلامية .

وكان العمل الأول لل الخليفة الأول^(٣) إنفاذ جيش أسامة^(٤) ليقاتل الروم ثم تتابعت موجات الغزو واشتعلت جبهات القتال وانهزمت الأورستقراطية^(٥) الوثنية وتأسس الملك الإسلامي ، لا ليلبس محمد تاجه ، ولا ليستمتع خلفاؤه بأبهته ، فإن الدولة التي يقيمهها الإسلام لا مكان فيها لقياصرة أو أباطرة ، إنما الحاكم فيها إمام ، عمله في ديوانه كعمل إمام المسجد في محارباه !

واجب يؤدى لله ، لا ينطوى على ترفع أو كبرباء .

(١) من حديث مطرول .. صحيح . أخرجه مسلم وابن ماجه والإمام أحمد وأبو داود والترمذى عن ثوبان .. .

(٢) صحيح أخرجه البخارى ومسلم عن جابر بن ثمرة . (٣) أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

(٤) أسامة بن زيد بن حارثه « حب رسول الله » وقد ولاه رسول الله قيادة الجيش ليقاتل الروم وكان حديث السن .. وقد مات رسول الله قبل خروج الجيش لمقاتلة الروم .. ولما تولى أبو بكر الصديق خلافة حرصن على إنفاذ الجيش ل يؤدي مهمته .

(٥) كلمة لاتينية الأصل .. تطلق على الطبقة العليا المتحكمة فيمن أدنى منها بلا سبب أو طوية .

فارق بين حكمين

يقول الأستاذ خالد : « إن الرسول ﷺ لم يكن حريراً على أن يمثل شخصية الحاكم لأن مقام الرسالة أرفع مقام ». .

وهذا كلام مدخول ، فاما أن النبي ﷺ قد حكم فعلاً فهذا ما لم يختلف فيه مؤرخو المشرق والمغرب ، وهو ما اعترف به الأستاذ خالد ونسبة إلى الضرورة (!) .

وأما أنه حرص على ذلك فهذا ما لم يكن منه بد تنفيذاً لأمر الله الذي يقول له ﴿فَاحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾^(١) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢) .

وأما أن الحكم لا يليق بمقام النبوة وقيام الرسول ﷺ بأعمال الحكام مما يمس منزلته فهذا أمر يرجع إلى تصورنا للحكم وأسلوب الوصول إليه وطريقة التصرف فيه .

فالرسول ﷺ بل من دون الرسول من عباد الله الصالحين متزهون عن السعي إلى الحكم يوم يكون الحكم سلماً للمنافع الحرام ، وذرعاً للعلو في الأرض والفساد .

ويظهر أن الأستاذ خالداً لا يعرف الحكم إلا من طراز « باشوات » الشرق ، الذين يتولون الحكم مهزولين ثم يخرجون منه منتفخين .

لكن الدنيا قديماً وحديثاً عرفت وتعرف أن هناك رجالاً من أصحاب المثل يتولون الحكم فيفنون فيه من دوام الخدمة للألم التي وثبتت فيهم ، ويكون هذا الحكم نوعاً من التضحية وضرباً من الجهاد .

ولقد تولى يوسف الصديق إدارة المال والتموين ، بل طلب ذلك بنفسه .. فهل تحسبه سعي إلى الحكم ليكون صاحب المعالي يوسف بن يعقوب؟

وتولى خالد بن الوليد قيادة الجيش بل أشار على من منعه بذلك .. فهل صنع ذلك ليكون الفريق « خالد باشا » صاحب الأوسمة والشارات؟!

(١) المائدة : ٤٨ . (٢) الجاثية : ١٨ .

والواقع أن يوسف عليه السلام طلب المجال الذى يحسن خدمة الناس فيه ، وأن
حالاً طلب العمل الذى يقرب النصر به .

وأن كلّيهما عبد الله أولاً وأخراً يتطلّب رضوانه حاكماً أو محكوماً!!
والحكم بباب إلى التمكين في الأرض يفرح به أصحاب الدعوات لمبادئهم لا
لأنفسهم ، وقد حرص الرسول ﷺ بهذا المعنى وحده .

وكذلك فعل الراشدون من خلفائه . وكذلك يفعل أصحاب المبادئ في كل زمان ومكان .
أما طلاب الحكم للهوى والأثرة فليسوا من دين الله في شيء . ولعنة الله عليهم إلى
يوم يبعثون !

* * *

الحكم السماوي بين أمتي

من قديم أهل اليهود الربا وأكلوا الرشا ، ولما انتشر الرنا بين ملوكهم وكرائهم عطلوا الحدود التي كتب الله عليهم ، فهدموا نصوصاً وأولوا أخرى ونكثوا فيما أخذ الله عليهم من عهود .

فقال الله - عز وجل - معلنا سخطه عليهم : ﴿فِيمَا نَقْضُهُمْ مِّيثَاقُهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًا مَّا ذُكِرُوا﴾^(١) .

وظل هؤلاء اليهود يهملون أحكام الله ويجيئون بأحكام مخففة من عند أنفسهم حتى انهدم من بنائهم السياسي ركن الدولة الدينية ، وجاء النبي ﷺ وأحكام التوراة ملغاة .

وحدث أن يهودياً زنى - وهو متزوج - فأراد اليهود أن يؤذوه بعقوبة خفيفة ويتركوه ، فناقشهم الرسول ﷺ في ذلك حتى اعترفوا بأن حكم التوراة الرجم !

فقال النبي ﷺ : «اللهم إني أول من أحسي أمرك إذا أماتوه» . ثم أمر به فرجم .
بيد أن اليهود مضوا في هدم أحكام الله ، فهدم الله ملكهم وشتت شملهم ، وتمكن أيدي المؤمنين من نواصيهم .

* * *

وقد استخلف الله هذه الأمة في الأرض لينظر ماذا تعمل ؟

وأعطها القرآن أساساً للدين ودولة ، تجاورت فيه التشريعات الخاصة بالعقيدة والخاصة بالمجتمع والخاصة بالسياسة . وفي صفحات متتابعة من سورة واحدة تسمع قول الله عز وجل : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾^(٢) و﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾^(٣) و﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾^(٤)

فبأى منطق تأتى هذه الأمة فترمى ببعض هذه المكتوبات في البحر (!) كالقصاص والقتال وتحتفل رسمياً بالبعض الآخر كالصيام ؟!

إن اليهود لما صنعوا ذلك سألهم القرآن الكريم : ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِعَضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِعَضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(٤)

. (٤) المائدة : ١٣ .

. (٢) البقرة : ١٨٣ .

. (٣) البقرة : ٢١٦ .

أجل ، إن الأم أصحاب الرسالات إذا عبشت بما ائتمنت عليه كتبت عليها عقوبة خاصة .

وقد خوفنا النبي ﷺ من عواقب التفريط في مظاهر الإسلام التشريعية « ... لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلموا بها إلا فشت فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم ، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المئنة وجور السلطان ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ، ولو لا البهائم لم يطروا ، ولا نقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط عليهم عذابهم من غيرهم فأخذ بعض ما كان في أيديهم ، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم »^(١) .

ولماذا نحسب أنفسنا أعز على الله من الأم التي طمس وجهها لما تلاعبت بدينها ! بل لماذا لا نقول إن الاستعمار الذي أسقط الدولة الإسلامية ، علته الأصلية ، أن هذه الدولة كانت جسدًا لا روح فيه ، بل كانت جسدًا مشوهًا منقوصاً ، هان على أهله الذين لم يقيموا حكماً ، ولم ينفذوا حداً ولم يحترموا شرعة !!

فكيف يُبقي الناس على دولة ، أبناؤها أول من أعمل المعاول في نقضها !

إننا نترك للأستاذ الشيخ سيد رجب أن يبسط الحديث في المقارنة بين الأمتين اليهودية والإسلامية وبين النبوتين الكرمتين فيهما ، مقتطعين هذا الحديث الرائع من مقال له في « الإسراء ». قال :

« ولهذا : كانت نصيحة موسى لخديعه - عليهما السلام - وتوصيته إياه ، وهو بذاته ما يحصل بين قائدين إذا تناهى أحدهما عن القيادة لزميله ، فإنه يوصيه وينصحه ، ويبصره بما أفاد من تجارب ، ولاقي من خطوب ، حتى يأخذ لها أهبتها ، ويستعد بعدها .

بل لهذا أنت تقرأ فوائع سورة « الإسراء » فلا تفرغ من الآية الأولى بمفردها ، حتى تقع في قصة موسى والتوراة وبني إسرائيل .. وأية قصة ؟ ! فإن قصص بنى إسرائيل متشعب مختلف لا نهاية لصنوفه وألوانه ، ولكنك هنا تقرأ قصة يطالعك مغزاها من خلالها ، وتنطق بذاتها عن المراد من اختيارها هي قصة « الدين والملك » وكيف أن الله أعطاهمما بني إسرائيل متلازمين (كما أعطاهمما هذه الأمة متلازمين) فهناك دين وملك على أساس التوراة ، وهنا دين وملك على أساس القرآن ، وسنة الله فيما منح من دين وملك - هي أنه إذا حفظتهمما الأمة حفظا لها ، وإذا حادت

(١) من حديث مطول .. صحيح عن ابن عمر . أخرجه الحاكم في المستدرك وابن ماجه في سننه .

عن الطريق زال دينها ودنياها معًا ، ولهذه العبرة بما سبق والتبصرة لما يأتي جاءت الآيات بسننها القاهرة وحكمتها البالغة ، فاستمع الآن للقرآن ؛ وتبصر ما يقول :

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بَعْدَهُ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكَنَا حَوْلَهُ لِنَرِيهِ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ^(١)

ثم ماذا ؟ .. ثم كانت النفس متوجهة أنه سيفصل هذه الآيات تفصيلاً ، أو يلم بها على أي حال ، فيذكر كثيراً أو قليلاً ما رأه النبي ﷺ في رحلته ، وقد رأى العجائب في هذه الآيات كما روتة الأخبار . ولكن لا ! فإن الشأن في الحقيقة أعظم من هذا القصص ! إنه الدين كله ، وملك الإسلام أبد الدهر ، من محمد إلى القيامة . لهذا أجمل القرآن تلك الآيات - على عظمتها - إجمالاً ، وخلص سريعاً إلى المقصود الأهم : وهو رسم الطريق ، وتوضيح الخطة ، والتحذير من مخالفتها ، وبيان العاقبة وتحديد العقوبة .. وهذا كله ينطوي تحت هذه الآيات - التي نتلوها عليك - بمنطقها تارة وبمفهومها أخرى :

﴿وَاتَّيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَا تَتَخَذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا (٢) ذُرْيَةٌ مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣) وَقَضَيْنَا إِلَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لِتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلَمَنَّ عَلَوًا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أَوْلَاهُمَا بَعْثَانًا عَلَيْكُمْ عَبَادًا لَّنَا أُولَئِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خَلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْوِعُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَيَتَبَرُّوا مَا عَلَوْا تَبَرِيرًا (٧) عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدُونًا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (٨) إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُشَرِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ^(٢)

أسمعت !! ثم أفهمت !! .. إياك أعني ، واسمعي يا جارة » .

إن القصة تقصد عن بنى إسرائيل ، ولكنها تستهدفنا ، وتعنينا ، وتوجه إلينا وهي تقصد إلى أن تقول : إنكم خلفتم بنى إسرائيل في الدين والملك . وقد كان القوم على

. (٢) الإسراء : ٢ : ١٠ .

(١) الإسراء : ١ .

دين فضلهم الله به على العالمين ، وكانوا على ملك بلغ من شأنه في عهد سليمان ابن داود - عليهما السلام - أنه لا ينبغي لأحد من بعده ثم إن الله شد ملکهم ، وبقي محافظاً على عهده معهم ورعايته ما حفظوا هم عهده ووفوا ببيشاقه ، واستقاموا على طريقه ، فلما بدا لهم أن يضلوا السبيل ، ويحاللوا عن أمره ، ويختونوا أمانته بنبذ الدين ، وإهمال الشريعة ، واتباع الشهوات ، والإفساد في الأرض ، رفع الله عنهم حمايته ، وسلبهم عنایته ، ووكلهم إلى أنفسهم الطاغية ، فداستهم الأُمُّ ، وقهرتهم الدول ، وبعث الله عليهم - المرة بعد المرة - عباداً له أولى بأس شديد ، من البابليين ، والمصريين ، والفرس والروم ، فلم يزالوا بهم حتى أتوا على بنيائهم من القواعد ، فقضوا دولتهم ، ونكسوا علمهم ، ومزق وشردوهم في الأرض كل مشرد .

فحذروا أن تخذلوا حذوهم ، فتستروا في الأمر سنتهم ، أو تسيراً بسيرتهم ، فإنكم إن فعلتم جرت عليكم سُنَّةُ اللهِ بِمَا جرْتُ عَلَيْهِمْ ، وإنها السُّنَّةُ ماضية بحقها ، قاهرة بعدلها ، لا تhabi خليلاً ، ولا تظلم فتيلًا ، ولا يجد لها أحدٌ من دون الله تبديلاً ولا تحويلًا .

هذا هو مغزى القصة التي افتتحت بها سورة « الإسراء » فإذا فقهت ما قلناه لك : من أن صحيح الحكم في الإسراء والمعراج ، إنما هو الاحتفال بخت النبوة والرسالة في الأرض ، وتولية خاتم الرسل والأئماء محمد ﷺ إماماً الدين وسلطانه تحت راية القرآن ، وجمع التراث الديني كله إلى هذه الحوزة وتحت هذه الراية إلى يوم القيمة ، وإعلان ذلك في الأرض والسماء على الملايين من الملائكة والرسل والأئماء - إذا فهمت هذا كله - عرفت لماذا انتحت بك سورة الإسراء هذا المنحى ، وحدثتك فواححها هذا الحديث .

بهذا الشأن الجليل الخطير تحدثنا فوائح سورة الإسراء ، وهناك شأن آخر جليل خطير ينادي به الموقف من أوله إلى آخره ، وهو أن الأمر قد انتقل عن بنى إسرائيل ، ولن يعود إليهم أبداً الدهر . ومهما أقاموا أو أقيموا لهم من دولة ، فإنها لن تكون إلا دولة الشيطان ، أو « المسيح الدجال ». لا أقول هذا تعصباً ، ولكنه حقيقة ماثلة .

فإن لواء الدين - بكتابه وشريعته وسلطانه - إنما يعقد لأولى العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام .

وقد اختتمت النبوة والرسالة بمحمد ﷺ ، وبقى القرآن بهديه وشريعته مهيمناً على الدين كله إلى يوم القيمة ، أمراً لزاماً ، وكلمة من الله ماضية ، ووعداً مفعولاً .

واذا انكر هذا مُنْكِرٌ ، او شَكٌّ فيه مُسْتَرِيبٌ ، فليعلم أنه لم يسبق لكتاب ولا لرسول أن أعلن خَتَمَ النُّبُوَّةَ والرسالة قبل القرآن ومحمد عليه الصلاة والسلام ، بل كان كلنبي أو رسول يبشر من يأتي من بعده ، جاء القرآن فأعلنها حقيقة باهرة ثابتة ، تزول السموات والأرض ولا تزول ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدًا أَبَا أَحَدٍ مِّنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّنَ﴾^(١) .

وها هو ذا قد مضى بعد محمد ﷺ ما يقرب من أربعة عشر قرناً لم يأت الناس فيهانبي ولا رسول ، في حين أن أطول فترة كانت بين رسوليْن هي الفترة التي كانت بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، وهي لم تزد على نحو ستمائة سنة! فهلا تبين الشاكون - بعد هذه القرون الطويلة - صدق هذه الحقيقة التي أعلنها الله ونادى بها محمد وسجلها القرآن؟! لا فليعلموا - إذن - أنه ستمر القرون تلو القرون - إلى أن تقوم الساعة - فلا تزيد هذه الحقيقة الهائلة إلا رسوحاً ووضوحاً . «... وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّنَ»^(٢) .

وبقاء الأمر إلى الإسلام والقرآن أبد الدهر ، لا يعني أن المتنسبين إليهما يستحوذون على هذا الأمر ، ويقومون به في الناس ، بمجرد هذا الانتساب والادعاء ، وإن فرطوا في الإسلام وشريعته ، واستهانوا بالقرآن وهدایته! تلك أمانى السفهاء وأحلام الجاهلين ..

وفيم إذن قص الله علينا القصص ، وضرب لنا الأمثال ، وحذرنا مصارع السابقين؟!

أليس لنتَحَبَّ هذا المصير الذي أدانا إليه تفريطنا في جنْب الله واستهانتنا بأمره

(١) ، (٢) الأحزاب ٤٠ .

وهذيه؟ حتى داسنا الدول كما داستهم ، واستعبدتنا كما استعبدتهم ، بل لقد تداعت علينا الأم بأكثر ما تداعت عليهم (لولا حفظ الله الإسلام البُقْيَا عليه) فرأينا أكبر وأقوى أمتين في الأرض تختصمان ألد الخصومة ، ويختلفان أشد الخلافة في كل شيء ، فلا يصطلحان ولا يتتفقان إلا على شيء واحد هو تكين الأعداء منا ، واعانتهم علينا في السر والعلن وإذلالنا في بلادنا . وهذه هي العقوبة الأزلية لمن آتاهم الله الدين والملك ، فلم يحفظوا عهده ، ولم يؤدوا أمانته ، ولم يشكروا له كرامته ونعمته .

ألا وإنه لا نجاة لنا من هذه المحن ، ولا مخرج لنا من مضايقنا إلا بما شرعه الله لذلك من وسائل وأسباب ، قضى في كتبه ، وعلى لسان رسle ، أن يكون أولها - بل رأسها - التوبة والرجوع إليه جل شأنه ، وليس التوبة ما تهرف به ألسنتنا! بل هي أن نقلع عن جميع ذنوبنا وأثامنا ، مستغفرين الله منها ، ومصممين العزم على السير قدماً في سبيل الصلاح والإصلاح ، وإعداد الأمة بأقوى ما نستطيع روحياً ومادياً ، مقبلين في صدق وإخلاص على ما آتنا الله من كتاب وحكمة ، فنحل حلاله ، ونحرم حرامه ، ونهتدى بهديه ، ونعمل بشرعيته ، ثم لننتظر بعد ذلك المعونة والتأييد من الله ، بل إن تأييده ومعونته مودعان في كتابه وشرعيته لو كنتم تعلمون .

هذا هو المخرج ، وهذه هي الطريقة . . . ألا هل بلغت اللهم فاشهد .

﴿ رَبَّنَا آتَانَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيَّءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً ﴽ^(١)

* * *

(١) الكهف : ١٠ .

تاریخ وتاریخ

«أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ

فَاسِقًا؟ لَا يَسْتَوون !!»

بعض الناس لا تملكون حمى التشاوم إلا عند الحديث عن الحكم الدينى ! سرعان ما يقولون لك : إن الحكم الدينى الحق خيال ، والسعى وراءه حلم أصحاب المثل !! واستقراء حوادث التاريخ يدل على أن الخلفاء الذين حكموا باسم الله لم يعمروا طويلا ، ثم جاء من بعدهم من افتات على الحقوق والحربيات واستكبار هو وأولاده على الناس باسم الدين . ويستطرد هذا الفريق المتشائم يقول لك : إنك لن تجد كثيراً مثل أبي بكر وعمر .

أما النظم الديمقراطيّة الحديثة فقد رسمت حقوق الإنسان في تفصيل دقيق يقطع الطريق على الطغاة والجبارية ، ولأن ندعوا إليها في صراحة أفضل من أن نلعن القلوب بالنظريات الدينية التي لم يدعمها - للأسف - تطبيق واضح ..

هذا مجمل رأى الطاعنين على الدعوات الإسلامية والمعوقين لنشاطها في مصر وغير مصر .

وفي هذا الكلام مغالطة ، والذين يريدون أن يحملوا الدين وحده أخطاء الطبيعة البشرية من بدء الخليقة !!

إذا كان تاريخ الإنسان كما قالت الملائكة متسائلة عن سر استخلافه : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيُسْفِكُ الدِّمَاءَ؟﴾ فليس على حساب الدعوة إلى الله تسرب مثالب المستبددين والمنافقين .

والواقع أن المقارنة لكيما تصح يجب أن تكون بين الدين على أنه نظريات مكتوبة في صحفه المقدسة ، وبين المبادئ الأخرى على أنها نظريات اقترحها المصلحون وبشر بها الفلسفه .

أو بين الدين كما نفذ تعاليمه ممثلوه وحملته ، وبين الديمقراطيّة والشيوعية مثلا كما طبقها القادة والساسة القائمون على منهاجهما . هذه هي الأطراف التي يجوز التفاضل فيها .

أما المقارنة بين الحكام الدينيين بأشخاصهم وسيرهم ، وبين تعاليم الثورة الفرنسية ، ومواثيق مجلس الأمن ، وهيئة الأمم ، فهذه مقارنة غير مقبولة . إما أن نقارن بين رجال ورجال أو بين مبادئ ومبادئ .

والحق أن الذين طبقوا الديمقراطيّة مثلا كانوا أسلكاً وأسوأ أثراً من عشرات

الرجال الذين أساءوا إلى الدين يوم حكموا باسمه أحكاماً جائرة .

ولنلق نظرة فاحصة على النظام الديمقراطي من خلال تطبيقه في بلادنا على أيدي سدنته من أهل أوروبا الوافدين علينا أو المستعمرات لنا .

إن الجيل الذي كونته فرنسا بعد ثورتها ، والذى ترعرع فى أرضها وهو يسمع كلمات الإخاء والحرية والمساواة .

هذا الجيل الذى دمر السلاود والقيود وسوى بالتراب ما شاده الملوك من معاقل الظلم .. هذا الجيل جاء إلى الشرق ليصنع بأهله المساكين أقسى وأنكى مما صنعه بفرنسا ملوكها الفاسقون .

ومأسى الاستعمار资料 الفرنسي ومخازيه تاركة فى نفوسنا - نحن المسلمين - إحنًا لا تنتهى آخر الدهر ..

وكذلك الإنكليز والطليان ... وأخيراً الأميركيان ...

هاك وصفاً من أروع ما كتب الأدباء فى تصوير خفايا النفس والتوائها وراء أغراضها للكاتب الإنجليزى «شو» وهو يتحدث عن :

الديمقراطية الإنجليزية

من هو الإنجليزي ؟

إنه عندما يطعم فى شيء لا يعترف - حتى لنفسه - بأنه يطعم فيه ، بل يظل صامتاً صابراً إلى أن تلمع فى عقله - بوسيلة لا يعرف كنهها أحد - عقيدة قوية بأن واجبه ، والمثل العليا يقتضيان أن يغزو الدولة التى تحوز هذا الشيء الذى يطعم فيه .. وعندئذ لا يقف شيء فى سبيله !!

إنه استقراطى ، يفعل ما يحلوه ، ويستولى على كل ما يستهيه ، وهو فى الوقت نفسه كأحد أفراد الطبقة الوسطى ، وأصحاب الدكاكين ، يتبع غايته بالهمة والمثابرة ، ويفيد همه بعقيدة دينية راسخة ، وشعور عميق بالمسؤولية .

وهو لا يعدم مطلقاً وسيلة يتمسك بها بهظاهر المثل العليا ، فهو يغزو نصف العالم ويستعمره ، ويدعى فى الوقت نفسه أنه النصير الأكبر للحرية والاستقلال ، وعندما يريد سوقاً جديدة لبضاعة «مانشستر» الفاسدة ، يرسل مبشرًا ليبشر مواطنى هذه السوق بدين عيسى ، وعندما يقتل المواطنين المبشر - وهم غالباً يقتلونه - يتشدق الحسام دفاعاً عن المسيحية ، يحارب فى سبيلها ، ويغزو باسمها ثم يأخذ السوق مكافأة له من السماء .

ومن أجل الدفاع عن شواطئ جزيرته ، يضع إنجلترا على ظهر سفينته ، ويرفع علمًا يتوسطه على أعلى سارية ، ثم يبحر إلى أقصى الأرض مغرقاً ، حارقاً ، مدمرًا كل من ينزعه سلطان البحار !

وهو يتبعج بأن العبد يصبح حراً في اللحظة التي تطا فيها قدماه أرضاً بريطانية في الوقت الذي يبيع فيه أبناء فقرائه ، وهم في سن السادسة ليعملوا في مصانعه تحت السيطرة ، ست عشرة ساعة في اليوم .

وهو قد قام بثورتين باسم حقوق الشعب ، ثم أعلن الحرب على الثورة الفرنسية باسم المحافظة على النظام العالمي والقانوني^(١) .

ليس هناك شيء يزيد في حسنه أو في قبحه عن الحد الذي يقدم عليه الإنجليزي ، ولكنك لن تجد إنجليزياً واحداً يرتكب خطأ عن عمد ، فهو يعمل كل شيء عن مبدأ .. يحاربك عن مبدأ وطني ، ويسرقك عن مبدأ تجاري ، ويستعبدك عن مبدأ استعماري ، وبهلكك عن مبدأ النخوة .. وهو يؤيد ملكه عن مبدأ الولاء ، وبقطع رأس ملكه عن مبدأ جمهوري !

إن كلمة السر عنده هي دائمًا : « الواجب » !!!

ستعلم أن حملة الإسلام الأولين إلى أقطار العالم كانوا ملائكة !!
 وأن الحكم الإسلامي - على ما لصق به من أهواء النفوس - كان خيراً وبركة على الإنسانية جموعاً ...

وسيزداد يقينك في هذه الحقيقة عندما تقرأ السيرة القدرة لحملة الحضارة الأوروبية إلى المعروف والجهول من قارات الدنيا الخمس .

وسترى أن الحكم القومي يمثل لوناً من الأنانية الخبيثة التي لا نظير لها ، وأن غرائز هذا الحكم الإلحادي ملأت الأرض فساداً ، وأشعلت فيها نيران العداوة والبغضاء ..
 وأن العصابة التي تعمل لسلخ مصر عن الإسلام ليسوا إلا قطيعاً خرب الذمة من عبادة أوروبا المفتونين بثرواتها وسقوطها .

فلنتابع سرد الشواهد على نبل الحضارة التي ت يريد تغييبنا في الإسلام ، والتي تنشر الكتب لتحقير حكمه وتلويث تاريخه ، ولننظر .

(١) كانت إنجلترا تخشى من تسرب أفكار الثورة الفرنسية إليها أو تحمل قريباً من ديارها .

كيف مدن الإنجليز الهند^(١)

قدّر المبلغ الذي قبضته إنجلترا من الهند من ربع قرن بعشرة مليارات من الجنيهات ، وذلك عدا رواتب موظفي إنجلترا فيها ، وقد حددت مدة إقامة الموظف الإنجليزي في الهند بخمس سنوات ؛ لعدها كافية لإثرائه !!

ويمكن اجتلاء حال الهند من عبارة الكاتب الإنجليزي مستر «هندمان» الآتية : «إن من الأمور المخيفة حقاً أن تُكره الولايات الشمالية الشرقية في الهند على إصدار حبوبها إلى إنجلترا مع موت ٣٠٠،٠٠٠ شخص جوعاً من أبنائها في بضعة أشهر .

ثم ذكر ذلك المؤلف الإنجليزي أنه مات سنة ١٨٧٧ في مقاطعة «مدراس» وحدها ٩٣٥،٠٠٠ حسبما جاء في التقارير الرسمية ، ولم يحدث إلا ما يزيد الحالة سوءاً لما ينجم عن ضرورة دفع الضرائب الباهظة من أضعاف خصبة الأرض .

والمسوغ الوحيد الذي قيل عن الجزية السنوية التي تدفعها الهند إلى إنجلترا ومقدارها ٥٠٠ مليون جنيه هو قول مجلة الأسبوعين .

(إنها ثمن تمنع الهند بحكومة منظمة محبة للسلام) ...

وتسرّع الهند من هذا الوصف وهي تشاهد كل عام موت هنود بفعل الجوع يزيد عددهم كثيراً عن عدد الذين يقتلون في أشد الحروب هولاً وسفكًا للدماء» .

وكيف مدنوا الصين؟!

قال «غوستاف لوبيون» : لا يخلو من سبب ما يعزوه الشرقيون إلينا من قلة الشرف وانحطاط الأخلاق .

وستكون قصة علاقات «أوروبا» المتمدنة بالصين في القرن التاسع عشر من أسوأ صفحات تاريخ الحضارة ، وقد يدعى حفتنا إلى التكفير عن سيئات تلك العلاقات في أحد الأيام بشمن غال .

ترى كيف يفكّر أبناء المستقبل في حرب الأفيون الدامية؟! التي أكره الإنكليز فيها

(١) الحضارة العربية : لغوستاف لوبيون .

بلاد الصين بقوة المدافع على إدخال ذلك السم القاتل ، وحمل الشعب على تعاطيه
بعدما أصدرت الحكومة أمرها بتحريره ؟

حقاً إن فائدة إنجلترا من تجارة الأفيون مائة وخمسون مليوناً من الجنيهات في السنة .
ولكن عدد الوفيات السنوية في بلاد الصين من جراء استعمال الأفيون ستمائة ألف
شخص كما جاء في إحصاء الدكتور «كريستليب» .

أليس من الحق أن يكون جواب الصينيين كما روى ذلك الدكتور عندما يحاول
مبشرو الإنكليز تنصيرهم «باللساخريه تسموننا للقضاء علينا ثم تأتون لتعليمينا
الفضيلة»!!؟

ويظهر أن الصيني غير محق في ذلك .

ألم يعلم أن الإنكليزي يتصرف بأخلاق موروثة تأمره بالإنفاق على المشرين ، ليعدوه
للحياة الآخرة التي يسوقه إليها بسرعة ذلك الأفيون الإنكليزي؟!

حرب ابادة...

وسياسة الأوروبيين القائلة : إنه لا يجوز أن يمشي على الأرض فريق من الهمج أدى إلى إبادة أجيال من البشر ..

فإن المهاجرين الأوروبيين طاردوا سكان أمريكا الأصليين كما يطارد الصيادون الأرانب . وقد أوشك أصحاب الجلود الحمر على الانقراض نتيجة الاستيلاء على أراضي الصيد منهم ، وحصرهم في مناطق جديبة إذا حاولوا الخروج منها - بفعل الجوع - حذلوا كما يجدل البط .

وقد أبى همج أستراليا . كما لم يبقَ من أهل تسمانيا الأصليين أحد .

يقول الأستاذ عادل زعيتر : «والأسلوب الدقيق الذى كان يسير عليه ربابة السفن الإنجليزية لجمع ما يحتاجون إليه من العمال فى جزر الملايو هو أن يجتذبوا بشتى الحيل أناساً من أهل البلاد ثم يضربوا رقابهم .

وأخذوا من رؤساء القبائل المعادية عدداً من العمال في مقابل كل رأس من أولئك على أساس إعادتهم بعد زمن وجيزة، ثم لا يعيدون لهؤلاء حرفيتهم أبداً.

قال العالم الطبيعي «كاترافاج» إنه لا يجوز للعرق الأبيض الأوروبي أن يلوم أكثر الشعوب توحشاً من انتهاك حياة الإنسان.

فليراجع ذلك العرق تاريخه ، وليتذكر الحروب والوقائع التي كتبها بحروف من دم ،
وليتذكر ماذا صنع بإخوانه المتأخرین عنه وماذا أسفرت عنه خطواته من الدمار !!
وليتذكر اصطياده للإنسان كما يصطاد الوحش، الضاربة .

وليتذكر استئصاله أمّا بأسرها ليفسح لمستعمريه المجال . . .
وليعرف بأن حياة الإنسان - إذا كانت مقدسة - فإنه لم يُروَ أن شعباً انتهك
حـ متـعاـ بـفـضـاعـةـ مـثـلـهـ ».

والدول الديمقراطية في سياساتها العالمية مجتمعة هزأت بكافة ما تواضع عليه
الدنيا من مبادئ العدالة والشرف ..

وحركاتها اللطيفة أو العنيفة ناضحة بما يكمن فيها من شهوات ومارب .
ولم يحدث فى تاريخ المؤسسات التى كونتها هذه الأم الديمقراطى أن أصدرت
قراراً يوصى فى بواعثه وأهدافه بأنه نزيف ، خصوصاً إذا اتصل هذا القرار بالإسلام
وأهلها ..

وكما سخرَتْ هذه الدول فى محافلها الكبرى المروءات والفضائل ، سخرَتْ - فى
علاقاتها الفردية بالأمم المستضعفة - من كل حق مقرر وحرية منشودة .
وهذه فرنسا - مصدر الدساتير المثالية - نسمع ونرى من تصرفاتها مع مسلمى
شمال أفريقيا الدواهى المخزية .

وقد استعرض الأستاذ سيد قطب بعضاً من هذه الواقع نسوقها أمثلة صارخة
الفوضى .

* * *

الديمقراطية الفرنسية

قال : إن المأساة التى تمثلها الوحشية الفرنسية اليوم فى مراكش ليست هى الأولى .
فلقد مثلتها مرات ومرات فى مراكش ، وفي تونس ، وفي الجزائر ، وفي لبنان ، وفي
سوريا ، وفي الهند الصينية ، وفي القاهرة قديماً ...
وفي كل مكان على ظهر هذه الأرض دنسه أقدام فرنسا . . .

إن فرنسا لھى التى أطلقت على القاهرة مدافعاً من قلعة الجبل ، وداست سنابك
خيلها أرض الأزهر الطاهرة عام ١٧٩٨ .

وإن فرنسا لھى التى ضربت دمشق بالمدافع عام ١٩٢٥ وعام ١٩٤١ .
وإن فرنسا لھى التى مثلت من قبل فى مراكش عام ١٩٤٤ ما تمثله اليوم وأخزى .
وأخيراً فإن فرنسا التى مثلت فى الجزائر عام ١٩٤٥ مالم يمثله المغول والتتار^(١) فى
القرون الأولى .

لقد دمرت فرنسا فى مايو سنة ١٩٤٥ إحدى وأربعين قرية فى الجزائر ، على من
فيها من الأطفال والنساء ، والشيخ والشباب ..

(١) رغم أن المغول مغايرون للتتار . إلا أن الاسم قد أطلق على جنس واحد . . . من باب تغلب الكل على الجزء .

ولست أنا الذي أقول هذا ، ولكنها المضبطة الرسمية لمجلس النواب الفرنسي ذاته هي التي تقوله ، فقد سجل العدد رقم ٥٧ الصادر في يوم الخميس الموافق ١٢ يوليو سنة ١٩٤٥ ما يأتي :

«إن المحاكم العام في الجزائر قد أجابتنا عن سؤال وجهناه إليه في الاجتماع المشترك للجان تنسيق الأعمال للشئون الإسلامية بالداخلية . . . أجابتنا بأن إحدى وأربعين قرية دكت بالطائرات وبالوحدات البحرية ، فلم يبق منها ديار ولا حيوان ».

وكتب صحيفة كومبا الفرنسية عن مذبحة مايو هذه تقول : «لقد وزع السلاح على جميع الأوروبيين وخاصة الخفيف منه ، إلى حد أن النساء كن مسلحات . ففي إحدى المدن بينما طفل عربي لا يتتجاوز العاشرة ، يقطف زهوراً بالحدائق العمومية ، إذا بيوزباشي يطلق عليه عياراً نارياً ، فيرد عليه صريراً ».

قال مندوب جريدة ليبرتي - أى الحرية! - بعد المذبحة ما يأتي :

«إننا الآن بهليوبوليس - قرب مدينة قالمة - ولقد مضى على الجثث الملقة على قارعة الطريق أكثر من خمسة أيام ، دون أن يهتم أولو الأمر بدهنها وذلك تفتنا في إلقاء الرعب في قلوب الوطنيين ، الذين لم يزدهم هذا العمل إلا كراهية لنا وبغضنا . . . كأنما كان حضرته ينتظر أن يسبح الوطنيون بحمدهم ويقبلوا أياديهم شكرًا . . .

ثم مضى يقول :

«ولقد رأينا في أحد المناظر رضيئاً ملوثاً بالدماء ، يبحث عن ثدي أمه المقطوعة الرأس ، دون أن يهتدى المسكين إلى الثدي ، ودون أن تستجيب الفريسة لصراخ ابنها . . .».

هذا ما يقوله أبناء فرنسا أنفسهم عن وحشية فرنسا . . .

فما الذي يقوله ياترى في مصر والعالم العربي ، عبيد فرنسا .

إنهم لا يقولون شيئاً ، بل يختبئون في جحورهم كالفتران الهزيلة ، لا أقول حياء وخجلاً ، بل خشية وذعرًا أن يواجهوا ضمير هذه الأمة الشائر .

عمى التعصب

وجاء في الجزء السادس من السنة الثلاثين من مجلة الهلال تحت عنوان «لماذا دخلت تركيا الحرب؟» ما يلى :

كتب الدكتور «غودستاف لوبيون» ينبع على تركيادخولها الحرب إلى جانب ألمانيا سنة ١٩١٤ ، ويقول : إنها لم تستفدى من هذا القتال إلا خسارة بلاد العرب وأرمينيا وأرض الجزيرة وسوريا . . . ووقعها في أزمة مالية شديدة .

فكتب إليه (ع سنى) السكرتير العام لولاية بيروت رسالة مستفيضة شرح فيها الأسباب التي جعلت الأتراك ينحازون إلى ألمانيا . وأبان أن الحلفاء «إنجلترا وفرنسا وروسيا» حين ذاك ، كانوا تارة باسم الروح الصليبية ، وتارة باسم المسألة الشرقية يريدون تزييق الدولة العثمانية والاستيلاء على ما يمكن اقتطاعه منها ، حتى تقص أجنحة الإسلام ، وتقوت الدولة التي ظهرت في العالم بأنها ممثلة الكبرى !

فكان لزاماً على الأتراك أن ينضموا إلى الألمان في حرب هي بالنسبة لهم حرب حياة أو ممات . . .

وقد رد الدكتور غودستاف لوبيون على هذا الخطاب بالرسالة الآتية نذكر نصها :

باريس ٣ / ٤ . ١٩٢١ .

سيدي :

أراكم فيما كتبتتم على قام الإصابة ، وسائلى في نشره بإحدى الجرائد الفرنسية اليومية ، لكنى لست واثقاً من أن أوفق . . . لأن العقيدة الكاثوليكية المتوارثة فينا تجعلنا من ألد الأعداء للمسلمين .

وقد كتبت فيما مضى مجلداً ضخماً باسم حضارة العرب ، وذلك لأثبت فيه أن العرب هم الذين مدنوا أوروبا . لهذا واقبلوا تحياتي .

باريس ٢٨ شارع فينوون

الدكتور غودستاف لوبيون

هذا الفيلسوف لا يسعه إلا أن يعترف بالأسباب الدفيئة التي تجعل من الاستعمار الفرنسي نكبة فظيعة حيث حل . ولنست الديانة المسيحية الأصلية هي التي توحى بإيقاع العذاب على الناس وفتنتهم عن عقائدهم بهذا الأسلوب الدنيء ولكنها ببربرية قبائل اللاتين وجهالة طوائف المبشرين المتاكلين باسم عيسى . وعيسي - عليه السلام - منهم بريء .

والديمقراطية الأمريكية

كان المسلمون يحسبون الولايات المتحدة أرض المثل العليا ، ويتخيلون أن هذا العالم الجديد سوف يحتضن الإنسانية المجردة ، ويعلى قدر الفطرة ، ويتنزه عما وقع الأولون فيه من أخطاء .

أى إنهم يرثبون مع العمران الجديد لهذه البلاد صفحة جديدة من تاريخ الحياة خالية من سخائم الماضي القريب والبعيد .

وبلغ من سذاجة المسلمين في هذا التصور - وهي سذاجة تستحق العقاب - أنهم لما فشلوا في ضمان استقلال سوريا عقب الحرب العالمية الأولى اقتروا أن تكون سوريا تحت وصاية أمريكا لا فرنسا !!

ظانين أن فرنسا أسيرة حقد صليبي لا تحمد جذوته أبداً ، أما الأمريكان فهم أرقى من ذلك ضمائرا ! إنهم متحررون بلا ريب من آثار هذا الغل القديم ..

وعفا الله عن آبائنا هذا الظن الحسن ، إنهم كالأطفال الذين لا يرون في معاملة ما مكرًا ولا ختلاً .

وما دروا أن أمريكا هي الأخت الكبرى لفرنسا وإنجلترا ، وأنها قد تختلف عنهم في الوسائل ، ولكنها لا تختلف في نية أو غاية .

إن الولايات المتحدة أمة تكونت من هجرات معروفة الأصل والمعدن .

إنها ألف كثيفة من الرجال والنساء الذين قدموا من إنجلترا وألمانيا وفرنسا وغيرها ابتغاء الرزق في هذه الأرضي البكر .

وقد جمعت هذه الأخلال وحدة المصلحة المشتركة ، وسرعان ما غنيت بهم هذه البلاد ، ودرت عليهم خيرها الغزير ، وما كادت أقدامهم ترسخ حتى استحیوا فيها عقائدهم وتقاليدهم الأولى ، وليس في هذا عجب !

ولو أنهم لما بنوا عشرات الآلوف من الكنائس اكتفوا بعبادة الله وشكرا على النحو الذي يدركون ؟ ما استغربنا هذا السلوك .

ولكن القوم اجتروا ماضى أوروبا كله ، ورغبا أن يعيشوا بوحيه وهديه ، بل لقد رأوا أن يكملوا من الناحية الدينية - ما تعجز أوروبا عن إتمامه لقصور مواردها وكثرة مشكلاتها .

ومن هنا انطلق المرسلون الأميركيون من القساوسة والمبشرين والمستشرقين إلى آفاق الأرض يحاولون نشر المسيحية ورفع لوائها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ..

وكان ضغطهم على المسلمين في المجال الثقافي شديداً جداً ، وجماعاتهم ومدارسهم في الشرق الأوسط تكيد للإسلام كيداً ، وتبين لأمتهم الشر الكبير .

ونحن في هذا المجال الثقافي لا نلقى اللوم على أحد غيرنا ، فإن تقصيرنا الشنيع سر هذه البلوى .

وإذا كان الأتقياء من أهل أمريكا يرصدون جوانب ضخمة من ثرواتهم لنشر المسيحية بين أبناء الأمم الأخرى ، فليس في ذلك ما نحاربهم عليه .

والرد الطبيعي أن يلقى المسلمون هذا الهجوم العلمي بهجوم مماثل ، وهم رابحو المعركة حتماً إذا تحركوا .

أما أن يناموا ويستخطوا ، فلن يحترم لهم أحد سخطاً . !!

لكن البلاء الذي تجاهله بحزن ونشير الهمم لرده بقوة وصلابة ما انتهى إليه الأمر في هذه البلاد البعيدة من رغبة أكيدة في القضاء على العرب واسترخاص دمائهم واستنكار وجودهم .

وهي رغبة مجرمة مهد لها الغباء الكنسي وأمدتها بثارات تاريخية عفنة .

ونحن جازمون بأن سياسة قتل العرب في بلادهم وإحلال اليهود محلهم سياسة تستقي من روافد صليبية قدية لا عقل لها ولا قلب .

ومن حقنا أن نخاخص بكل ما أوتينا من قوة هذا الاتجاه الكفور والمحود .
إن الولايات المتحدة أول دولة في الأرض اعترفت بإسرائيل ..
وهي أول دولة تبعث لها بالعون المادي سيراً دافقاً لا انتهاء له .
وهي صاحبة كلمة « خلقت إسرائيل لتبقى » .
وهي أولاً وأخرًا لا تعرف للعرب حقاً ، ولا ترضى لهم وجوداً !
وهي الوراثة الآن لشاعر الكراهية ضد الإسلام ونبيه وحضارته ..!
وكثير من المسلمين يرى أن عداوة أمريكا للإسلام لا تقل عن عداوتها للشيوعية إن لم تزد .

والديمقراطية التي تسود الولايات المتحدة اليوم مشوهة بسيئات غليظة .
وكم للفضيلة والعدالة من مصارع في ديمقراطية الأمريكية ، خصوصاً إذا اتصل الأمر بالملونين أو المسلمين !!

إن عمى التعصب يستولي عليهم فلا يدركون كيف يتصرفون!
في هذه البلاد تداس تحت الأقدام كل شارة للعروبة الحرة ، وترسم صورة المستقبل على أساس انطلاق اليهود في مناطق الشرق الأوسط بعد إخلائه من أهله بأية وسيلة .
وأهله هم أولئك العرب المسلمين المساكين .

إن الأمريكيان يضيقون بهم في ميدان السياسة الخارجية كما يضيقون بالزنج في أرجاء الولايات المتحدة نفسها ..

فلا غرو إذا علت صيحات شتى لاستنكار هذه السياسة ، وإذا أحس قومنا الخطر على كيانهم من بقائهم ..

لا مفر من الاعتراف بأن خديعتنا كانت كبيرة في الخضارة الأمريكية ، فقد حسبنا الإنسانية الراقية قد وجدت مستقرها هناك في أرض لم تزل بكرًا وفي شعب لا تفته المطامع !

وزاد من تصديقنا لهذا الوهم موقف الرئيس (ولسن) عقب الحرب العظمى سنة ١٩١٩ ، فقد أبى الرجل أن يشارك دول أوروبا عملها الشائن في الشرق ، وتقدم بمبادرة نبيلة لتنظيم العالم على ضوئها .

ثم جنح الأميركيان إلى العزلة لما رأوا انصراف الدول المستعمرة عن طريقتهم الفاضلة .

ويبدو أن عوامل الإغراء ووساوس الإثم قد تغلبت على القوم في الأيام الأخيرة فقرروا أن يمشوا في ركب اللصوصية الدولية ، بل أن يكونوا طليعتها المغامرة ، وببدأ القناع ينحسر عن سياسة أمريكا في داخل حدودها وخارجها فإذا نحن أمام مأساة ليس ضحيتها الأولى الحقوق والمصالح المشروعة بل الأخلاق والمثل العليا ، وكل ما كانت الإنسانية تقدسه قدّيماً من شرف وفضيلة .

يقوم النشاط العام هناك على المنفعة المجردة - ودعك من كذب الإعلانات وتزويق الدعايات - وعلم الأخلاق جزء من فن التجارة ومقاييسه الأولى تعتمد على الربح والخسارة .. والأخوة كذبة كبرى ، فحرب الأجناس والألوان تدور رحاها علينا في أرجاء الولايات المتحدة ، ومن أيسر الأمور أن يتحول رجال الشارع هناك إلى قتلة يلتلفون حول زنجي تعس ليتلذوا من مشهد مصرعه وهو يشنق فوق شجرة جمizer لأيسر التهم وأتفهها .

ودفة السياسة العليا في أيدي اليهود ، ومن ثم تحولت المحافل الدولية إلى أسواق مساومة ، وعقد صفقات ، وحبك مؤامرات . مما جعل الدول الصغرى تيأس أبلغ اليأس من احترام الحق في هذه المؤسسات الدولية !

وإننا بعدهما شاهدنا الاتجاه الاستعماري الجشع لهؤلاء الأميركيان نحسب أن (ولسن) كان يعبر عن آرائه الشخصية وأماله الطيبة .

أما الأمة التي يرأسها فهي دون ذلك المستوى براحت بعيدة .

وإننا لنحدّر أن يسود العالم أساليب الحياة الأمريكية . إذ معنى هذه السيادة أن أحابيل الاسترقاء السياسي والاجتماعي ستزداد التفاafa حول أقدامنا وأعناقنا ، مع أننا أفلحنا في تمزيق الكثير منها بعد جهاد مرير .

وإن فريقاً كبيراً من الرجال الذين فجّعوهم الولايات المتحدة ليتفقون معنا في هذا التوجّس والحدّر . ما دفع محرر «المصري» أن يندد بأحوال أمريكا الداخلية والخارجية في مقال قال فيه تحت عنوان :

ديمقراطية ترومان^(١)

إذا كان الرئيس « ترومان » يظن أنه يفرض على العالم نوع (الديمقراطية) الذى تمارسه أمريكا ، فقد خاب فأله خيبة عظيمة ، فما كل العالم على استعداد لأن يقبل دكتاتورية ذليلة فى قناع من المظاهر السطحية يسمى (الديمقراطية) . . . !

ماذا يريد ترومان؟! وعم يبحث؟!

أ يريد أن تحرم شعوب العالم ثلاثة فى المائة من بنيها حق الانتخاب ، كما تفعل أمريكا حتى يرضى عنها سادة « وول ستريت »؟

أتريد أن تضطهد الشعوب والحكومات الملاليين من بنيها ، وتضعهم فى سجن عام ، أبوابه هى حدود الدولة حتى يرضى عنهم « الكونجرس »؟!

أ يريد أن يطرد الملاليين من مقاه وفنادق ومطاعم بعينها حتى لا ينسوا الملاليين الآخرى من أفراد الشعب ، لكن تكون هذه الشعوب ديمقراطية؟!

أ يريد أن تغل أمامهم أبواب الجامعات ، فإذا فتحت لهم بقوة القانون ، وضعوا لهم أقصاً من حديد يدرسون فيها المحاضرات حتى تتحقق ديمقراطيتهم المزعومة؟!

أ يريد الرئيس أن تشنق الأقليات فى بلدان العالم الأخرى على غصون الأشجار ، فى وضح النهار وغسل الليل ، دون رقيب أو حسيب ، ودون عقاب من القانون . كما يفعل زبانيته المتعصبون بالزنوج؟!

ماذا يريد ترومان؟! .. وعم يبحث؟!

أ يريد أن يصبح العالم بأسره عبيداً للدولار ، وأن يؤله الناس جمياً فما لهم من رب سواه ، حين تلتئج جيوبه وجيوب معاونيه فوق امتلائها بالذهب ؟ لأن أنفاسهم تضيق إن قل امتلاء هذه الجيوب؟

أ يريد من جديد أن يزج بالعالم فى أتون حرب أخرى ، تأتى على ما خلفته سابقتها من مدنية وحضارة؟! أما لادية الرئيس من حدود؟! ألا يفهم فخامته إلا لغة الذرة والقنبلة الهيدروجينية ، ألا يشم إلا رائحة الدماء والبارود؟!

أ يريد الرئيس ترومان أن يظل العالم فى الخديعة الكبرى التى يدفعه إليها ، فيصبح

(١) رئيس الولايات المتحدة وقتئذ.

شيوعياً كل ما لا ترضى عنه أمريكا ، ويصبح بالتالي عدو الديقراطية والحضارة والمدنية وتراث العالم؟

أ يريد أن يقبل العالم استعمار أمريكا الاقتصادي والعسكري ، ودكتاتوريتها التي لا تقل ظلماً واستبداً عن دكتاتورية سلفيه «هتلر» و«موسوليني» وإلا فالعالم شيوعي لا بد من سحقه ؟ !

أ يريد أن يفرض على الدولة العربية دولة لقيطة^(١) ، وأن يفرض مرة ثانية نوع علاقة هذه الدول بها ، وأن يحددها ويرسم خطوطها ، وأن يوقظ وزراء هذه الدول من نومهم ليذرهم بأن يتبعوا أوامره ونواهيه ، وإلا حظر عليهم السلاح ، وأمر تابعته بريطانيا أن تفعل مثله ؟ !

إن الرئيس ترومان يبحث عن كل هذا وعن غيره ، وهو يريد أن يجلس في بيته الذي أحال بياضه إلى قتام ، والذي استطاع أن يدمر بين جدرانه كل المثل العليا النبيلة التي وضعها سلفه العظيم الرئيس روزفلت !

يريد أن يجلس في بيته هذا ، فیأمر أقصى الأرض وأدانيها فتطيع !
ماذا يريد ترومان ، وعم يبحث ؟ !

إنه يريد ذلك ، ولكن ليعلم أنه غير مدرك ما يريد ، وأن فائه قد خاب خيبة عظيمة ، على الأقل في الركن الذي تعيش فيه مصر وشقيقاتها العربيات .

* * *

ولئن كنا نتطلع الآن فنأسى لأن عميدة الدولة الموسومة بأنها (ديمقراطية) ترتكب هذه المنكرات الغليظة ، إن ذكريات الماضي البعيدة تهيج في نفوسنا ، وتعيد لنا صوراً مشرفة للعصر الذهبي الذي لم ير العالم له مثيلاً ، عصر الدولة التي أقامها إمام البشرية الكبير محمد بن عبد الله صلوات الله عليه وسلم ، ومحا فيها الفروق بين الأجناس والألوان .

فقال عن رجل فارسي (سلمان منا آل البيت !! ..).

وجعل داعية الصلاة بلا الحبس يعلو الكعبة ليؤذن فوقها .

وكان فيها عبادة بن الصامت الأسود رئيس المفاوضين العرب لدى الفرس ، وكان أئمة الفقه في أمصارها من الأعاجم .

(١) إسرائيل .

الدولة التي أمر كتابها بالوفاء العام للعهود التي تعدد بين طرفين مختلفين دينًا ودمًا ، فلما قال اليهود (ليس علينا في الأمرين سبيل) أى لا حرج من الافتئات على الأجناس المغايرة (كذا) قال القرآن الكريم تعليقاً على هذا الزعم : ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥) بل من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين (١)

وذهب الإسلام في احترامه للعهود إلى حد التجاهل لأصرة الدين المشترك إن وقفت دون الوفاء الواجب ﴿وَإِنِ اسْتَصْرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ...﴾ (٢) .

والمستنصرة هنا قوم مسلمون والميثاق مع قوم غير مسلمين !!

فانظر كيف تقوم الدولة على المثالية المطلقة في منطق الإسلام ، وكيف تقوم على الانتهازية المطلقة في منطق الديمقراطية الحديثة ...

إن العالم الحديث بحاجة إلى أن تقوم فيه أمة عريقة في تدينيها ، سامية في تفكيرها ، مطهرة في منازعها ، تستخدم قوتها في إحقاق الحق وإبطال الباطل .

والكلمة الآن لحملة القرآن . لأمة محمد عليه الصلاة والسلام .

لوراث الفضائل السياسية والاجتماعية بين الأجداب والقفار .

* * *

إن الذين ينعمون على الحكم الديني ويوجسون خيفة من عودته - كما يقولون - ويحملون على مثيله علمياً وسياسياً يجب أن يقسموا تشاوئهم بالعدل بين أنواع الحكم التي وضعت أولاً على أساس سليم ، ثم شرد بها الهوى عن الصراط المستقيم .

ونحن لا نتحامل على نظام بعينه ، ولا نبرئ الطبيعة البشرية مما وقعت فيه من نزوات وشهوات .

بل نقول : إن ما اكتنف «الديمقراطية» من مفاسد على أيدي أصحابه لا يُسْوَغ العودة إلى حكم الفرد ، والاتجاه المقبول أن نطالب بتصحيح الأخطاء التي اعتبرتها .

(١)آل عمران : ٧٦، ٧٥ .

(٢) الأنفال : ٧٢ .

وما أصاب الحكم الديني من مفاسد على أيدي بعض الطغاة والظلمة لا يبيع لنا
أن ننجح إلى الإلحاد ، أو نؤكد فصم الدين عن الدولة ، أو نضع أمانة الحكم بين قوم
ليس لهم دين .

والحق أنه بعد حساب الأرباح والخسائر الناتجة عن تحكيم الدين وأخطاء الناس في
تطبيقه .. نجد أن أعظم فائدة عادت على البشر وصانت تراثهم ووجهت حضارتهم إلى
الخير كانت باسم الدين مهما لابسه من خلط .

إن خروج الإسلام من جزيرة العرب حرر مصر والشام وفارس ، وملأ بقاعاً رحيبة من
الأرض بالسماحة والخير . ذلك كله برغم أخطاء حكامه !

أما خروج الحرية من فرنسا مثلاً فإنه جعل الأرض التي تقع - لسوء الحظ - في
أيدي الفرنسيين مستعمرات عبيدة !!

وكم هلكت شعوب في أفريقيا وأسيا وهي تحاول استنقاذ حرياتها من مثل الحرية
الفرنسيين !!

إن الدين - من حيث هو مثل أعلى - يجب أن يبقى واضح المعالم فإذا قصرنا عن
بلوغه وقفنا دونه ونحن عارفون بقصورنا ...

أما إلغاء الدين فمعناه تحطيم منارات الكمال وتعيم الظلم في كل مكان .

ثم إن محاولة وضع الدين في الكفة المرجوحة باختلاف مقارنة بين تصرفات
سلطان الترك أو طواغيت العرب ، وبين المبادئ المثلية التي ظهرت أخيراً ولم تَعدْ أن
تكون حبراً على ورق ...

إن هذه المحاولة مغالطة لا تنطلي على العقلاة والمنصفين ...

* * *

الإسلام بين من جاهدواه وخدعواه

« عن مالك بن أنس قال لى أستاذى ربيعة :
يا مالك، من السفلة ؟ قلت : منْ أكل بِدِينِه.
فقال : منْ سُفْلَةُ السُّفْلَةِ ؟ قلتُ : منْ أصلح دُنْيَا
غَيْرَه بِفَسَادِ دِينِه، فَصَدَّقْنِي ». .

* * *

« لأنَّ آكل الدُّنْيَا بِالْطَّبْلِ وَالْمَزْمَارِ أَحَبُّ إِلَيَّ
مَنْ أَنْ آكَلَهَا بِدِينِه ». .

(الفضيل بن عياض)

إخلاص

حرص الأنبياء جمیعاً - وهم يبلغون عن الله رسالته - أن يؤکدوا للناس حقيقة معينة ، وهى أنهم لا يطلبون لأنفسهم شيئاً ، ولا يتتمسون على عملهم أجرًا ، وأنهم - على العكس - يعطون ولا يأخذون ، ويضخرون ولا ينتفعون ، وأنهم أصحاب مثل عالیة ، يقدمون أشخاصهم وأهليهم فدی لها ، وليسوا طلاب جاء لأنفسهم أو للأسر التي ينتمون إليها .

وقد قص الله سبحانه وتعالى علينا سيرهم الجليلة كابرًا بعد كابر ، فسمعنا إلى نوح يقول للناس : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (١٠٨) وما أَسْأَلْكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١)

وتكررت هذه المقالة بألفاظها ومعانيها ودعائيها على ألسنة هود مع عاد ، وصالح مع ثمود ، ولوط مع قومه ، وشعيب مع مدين ، وموسى مع الفراعنة .

وأجرت كذلك مراراً على لسان النبي ﷺ ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(٢) .

والقصد القريب من تردید هذا المعنى هو تحریر الدعوة إلى الله من أهواء الدنيا ودسائس الطمع ، وتوصیل الحق إلى الناس منزهاً عن كل غرض صغير ومأرب حقير ، ثم طمأنة الجماهير التي تستمع لصوت النبوة على ما بأيديهم من خيرات وأموال .

فليست الدعوة إلى الله حرفة لاقتناصها ، وليس دین الله وسيلة للاستيلاء عليها . !

والذين ورثوا النبوة في الحكم أو في الوعظ جعلوا هذه الحقيقة نصب أعينهم ، فلم يدر بخواطرهم أن الدين مصيدة للكسب العاجل أو ذريعة للسمنة والتبطل !!

(٢) سبأ : ٤٧ .

(١) الشعراء : ١٠٩ : ١٠٨ .

وقد يكون بيت مال المسلمين قدّيماً قد أجري رواتب للخلفاء والقضاة والمدرسين .
فهذا ومثله يشبه بدل التفرغ في زماننا ، حتى تجد مناصب الدولة للرجال الذين
يقومون على مصالح الناس قياماً خالصاً .

ودنيا الناس ، من الناحية الدينية البحث ، لن تضار من توظيف رجال يحسنون
الإشراف عليها لقاء ما يسد الخلة ويقوم بالأؤد ، ماداموا يتقون الله فيما يأخذون وفيما
ي فعلون . !!

والذين يعملون الله ينظرون إلى رواتبهم هذه النظرة ، مثلما فعل الخلفاء الراشدون ،
فهي ما كانت ولن تكون ثمن عبادة ولا أجر رسالة !
وتحقيق بالدعاة والمجاهدين أن يحضروا الله عملهم . وألا يطلبوا به عرضًا من الدنيا ،
وألا يخافوا فيه سطوة حاكم أو لومة لائم .

وأن يرفضوا الراحة في ظل النعم المتاحة ..
وأن يرفضوا أيادي قوم قد يخاصموهم في الله يوماً ..
وأن يخجلوا من الشبع بين الجياع .

وأن يحذروا أشد الحذر أن يكونوا حاشية لأصحاب السلطة ، فإن انزلقوا إلى هذا
الموضع فقد انزلقوا إلى مقابرهم .

وليكن وجه الله الكريم في كل عمل ، أول الرحلة ونهاية المطاف .

* * *

الجبهة الإسلامية في مصر وأحوالها

على ضوء هذه الفضائل كان الإسلام يرب من أبنائه عامة ، ومن علمائه خاصة
أن يفهموا دعوته وأن يقدموا نصرته ، غير أن خيبة الأمل جاءت فوق الضنو !

فقد جاء القرن الرابع عشر للهجرة وللنحوس في مطالعه سواد يغشى الآفاق ويغطي
أفئدة المؤمنين بالكابة !

وتتابعت الهزائم وتلاحت النكبات على هذا الدين العزيز بشكل يشير الحفاظ !!
كفرت دولة الخلافة وأعلنت بعدها عن الأديان جملة .

والخلافة التي طردها الأتراك كانت متاعاً سرقه المسلمين ولم تكن أمانة في أعناق
الرجال الذين يخدمون دين الله !

إن هذا المصير الزرى يعتبر طعنة في صميم الإسلام سجلت عليه هزيمة بشعة .
ثم أطبقت ظلمات الاستعمار الغربى على أنحاء الوطن الإسلامي الكبير فمزقته
شر مزق ، والاستعمار الغربى مزيج من إلحاد وقع وصلبية خبيثة ..

وأعقب هذا الانهزام السياسي للإسلام انهزام تشريعى واجتماعى وثقافى جعل تعاليم
الإسلام الباقيه أشبه بالخرائب المندثرة لدار نسفتها القنابل أو أكلها البلى ولم يبق إلا أن
تأتى «مصلحة التنظيم» أو «إدارة البلدية» لتمحو آثارها وتلتحقها بالأرض الفضاء !!

ألا تصدق أن النظم المدنية الحديثة تطمع في ذلك ؟!

بلى ، إنها تعد العدة لتضرب ضربتها الأخيرة ثم تطوى آخر ما بقى للإسلام من
أعلام .

وهنا نسأل . ماذا فعل الأزهر ؟ ! وماذا فعلت الجماعات الإسلامية الكثيرة التي
جعلت عنوانها خدمة الإسلام ؟ !

والجواب أن هذه الجبهة الإسلامية من هواة ومحترفين . من جنود رسميين ومن
متطوعين شعبيين . لم تبذل إلى الآن جهداً مذكوراً .. !

وقد مضت الجاهلية تغمر الأسواق والميادين بأفكارها وفلسفاتها دون أية مقاومة ، بل إن قصة الشيخ « خالد » وكتابه « من هنا نبدأ » ليست إلا مأساة لرجل من علماء الأزهر ومن أعضاء الجماعات الإسلامية رزق فضل حياة في عقله وضميره فكانت ثورته الجامحة على الدراسات الميتة والأعمال البليدة والكهانات الفارغة سبباً في شططه الذي نبهنا إليه .

والعلة الأولى في شرود هذا الكتاب عن النهج الحق هو انهيار هذه الجبهة التي تزعم العمل للإسلام وهي تغري الناس بالكفر .

ونحن إذ ننقد ما كتبه الأستاذ خالد عن « الدين والكهانة» مضطرون تعقب طائفة من التصرفات التي سببت في اعتقادنا كتابة هذا الباب ، ومخطيئن الأستاذ خالداً نفسه فيما ربطه به من نتائج . . .

لا حاجة إلى هذه النقول

كما تستقدم الحكومة بعض الخبراء الأجانب لحل مشاكل لا تستعصى على النظر القريب ، والجهد اليسير - لو صدقـتـ الـنيـات - استـقدمـ الأـسـتاـذـ خـالـدـ طـائـفـةـ منـ الخـبـرـاءـ الأـجـانـبـ لـلـاسـتـشـارـ بـأـرـائـهـمـ فـىـ مـوـضـوـعـاتـ طـالـ الـبـحـثـ فـيـهاـ ،ـ وـسـجـلـ الأـسـلـافـ كـمـاـ سـجـلـ الـكـتـابـ وـالـسـنـةـ مـنـ قـبـلـ حـكـمـهـ عـلـيـهـ .

والكلام في «الكهانة والدين» لا يتجاوز هذه الحدود .

فقد حمل الأستاذ خالد حملة شعواء على المتجررين بالدين ، الذين يأكلون باسمه ويسيئون إليه أبلغ إساءة ، والذين يظهرون للناس في لبوسه وهم متجردون من فضائله وأدابه . . .

ونحن نؤيد الأستاذ في هذه الحملة : ونعتقد أنه لو جاز لعلماء الإسلام ورجالاته أن يخلدوا للراحة والدعة في عصر ما ، فإن هذا العصر بما وفد به على الإسلام من مأسٍ وهزائم يجعل السكوت منكراً والهدوء حراماً ومطلب الجاه والترف جريمة ..

حرام على الرّاحُ بعْدَكُ أو أرى دمًا بدم ، يجري على الأرض ماءُه !
فلا ملكَ الباقي تراثُ الذي مضى ولا حَمَلتْ ذاك الدُّعاءَ منابرُه !

فكيف بن يطلب التقدم في أم منكوبة ، ويسعى إلى دعم أثرته في شعوب
مأكولة ؟ ! .. هذا هو الضلال المبين !!

سمى الأستاذ خالد هؤلاء كهاناً ثم راح ينقل عن «معالم التاريخ الإنسانية»
للكاتب الإنجليزي «ويلز» أوصاف هذه الكهانة وأساليبها النابية في المكر والاحتيال .
ولا حاجة بنا كما قلنا لهذا النقل ، ففي مصادر الشريعة وأقوال الأئمة تفصيل
أوسع وإصابة أحکم . . .

ولنذكر السنة الأولى لهؤلاء الكهان ، إنهم كما يقول خالد : يدعون (الناس إلى
القناعة المقدسة . بيد أن الكهنة أنفسهم ألد أعداء القناعة ، وأسبق العالمين إلى
اقتناص الغنائم والبحث عن المال والجاه) .

إنهم يملأون بطونهم بالمطاعم ويقولون للناس «جوعوا تصحوا» ويشيدون القصور
ويشترون الأطيان ثم يحدثون الناس عن «الفقر المحبوب » ! .

لاشك أن النعمة على هؤلاء واجبة ، فهل تظن أمرهم خفى على حراس الإسلام
من قديم ؟ ! إن مواجهتهم بالنقض والتجريح لا يكاد يخلو منها عصر .

يا واعظ الناس قد أصبحت متهمًا إذ عبت منهم أمسوا أنت تأتيها
تعيب دنيا وناسًا راغبين لها وأنت أكثر منهم رغبة فيها !!

وكان يحيى بن معاذ الرازى يقول لعلماء الدنيا : «بيوتكم كسروية ، ومراكبكم
قارونية ، وأوانیکم فرعونية ، وما ثيکم جاهلية ، ومذاہبکم شيطانية .. فَأين الشريعة
الحمدية » ؟ !

وأين ما نقله خالد عن «ويلز» في هذا المعنى من قول النبي ﷺ : «سيكون في
آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين ، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين ،
الستهم أحلى من العسل . وقلوبهم قلوب الذئاب ، يقول الله تعالى : أبى تفترؤن ،
أم على تجترئون ؟ ! ، فبى حلفت لأبعثن على أولئك منهم فتنة تذرُّ الحليمَ فيهم
حيران » .

ولسنا بصدده استقصاء النصوص في هذا الموضوع ، فإن هذا يخرج بنا عن غرضنا
ولكننا نلفت النظر إلى أن الإسلام في هذا العصر بحاجة إلى رجال يدفعون عنه
ويبذلون له ويقدمون أنفسهم وأموالهم في سبيله . .

وإنىأشهد معالشيخ خالدأن الرجال الذين يمثلون الجيش المدافع عن الإسلام فى
جبهته المترامية لا يشرفون دينهم ولا يشرفون أنفسهم !!

وهذا أهون ما يقال فى وصفهم ، إذ كيف تستقيم عبادة الله وعبادة المال ؟!

وكيف تستقيم سُنَّةُ الْجَهَادِ مع شدة الحرص على تقييع النفس والأولاد؟!

ولكن العقول التي التوت فيها حقائق الدنيا والآخرة اجتمعت فيها هذه الأصداد ،
ومن ثم رأينا رؤساء «للجمعيات» الدينية وشيوخاً في الأزهر الشريف يسمون
والإسلام مهزول ، ويستريحون وشعوبه عانية !! .

وقد اتخذ هؤلاء الناس طرقة للفرار من تكاليف الإسلام الصحيحة أدق وأخفى من
الطرق التي يسلكها مهربو المخدرات خوفاً من رجال الأمن !

فهذه جمعية تكتفى بالعبادات الشخصية ، فإذا حاولت إقحامها في الفروض
الاجتماعية والقضايا العامة قال لك رجالها : نحن لا نشتغل بالسياسة !!

وكان من أثر هذا الفهم أن فلسطين سقطت في أيدي اليهود ، دون أن يبذل لها
هؤلاء الصوامون القوامون جهداً ألبتة !!

وهذه جمعية تحارب عبادة القبور وتقليل المذهب . وتشبع بذهب نبذ البدع ..
وعشق السلفية فإذا سألتهم عن الرأي في عبادة الأحياء والخضوع لطاغيت الحكم ..
سكتوا !!

مع أن حكومة هذه البلاد تعلن مناهضتها للفساد وقطع الطريق ثم تتولى هي الأخذ
دونهم ، كما تقاتل الشركات الكبرى محلات الصغيرة لتحتكر السوق وحدها!!!

وكم من مجاوز ومبادر فعلوها ، سكت عنها دعاة التوحيد ! سكوت المقابر .

وهذه جمعية اتخذت لها عنواناً من النشاط الاجتماعي البراق ، وهدمت العبادات
الشخصية أو غضت من قيمتها مع أن هذه العبادات أعمدة الإسلام ، وضوابط
الأخلاق ، وحافظت العقيدة .

وهذه وهذه . . . كم يطول بنا السرد والتعليق على مناهج هذه المؤسسات وعلى إثراء أصحابها وتوطيد مكانتهم في المجتمع على حساب الدين .

أما شيخ الأزهر فترى كثيراً منهم لم يترك منصبه حتى أثري منه ثراءً واسعاً ، وكان منهم من يفخر بأنه امتداد محمد عبده - ومحمد عبده كما تعلم امتداد لجمال الدين^(١) - ولكن هيئات . . . !

أما جمال الدين فقد ظل يصارع الطواغيت حتى صرّعوه ! وأشبه الناس به في رؤساء الجماعات الإسلامية الشهيد حسن البنا .

إن بين القاعدين شبهاً مشتركاً من الاطمئنان إلى الدنيا والأمن والنفس والنفيس ، وبين المجاهدين شبهاً مشتركاً فيما يقع عليهم من ترويع وما يصيب أهله من ذعر . وقد يبدأ قال الشاعر عقب موقعة كربلاء .

بنات يزيد في القصور مصونة وبنت رسول الله في الفلوات !
إن المصلح لا يتملق المجتمع ، ولا يترضى الناس ، ولا يكتثر للأوضاع العتيدة ، فإن وظيفته تقوم على المحو والإثبات فيما يرى ويسمع حسبما تملّى به قواعد الشرع .
وإن المصلح لا يحرص على المال ، ولا يجري وراءه ، ولا يغريه بريقه فهو قد يكلف - لو ورث مال قارون - أن ينفقه لإنجاح دعوته ، وإبلاغ رسالته .

وأى رجل يعمل للإسلام وهو خارج على هذين المبدئين فهو فاشل البتة . ولذلك يقول الرسول العظيم : «ما ذئبان جائعان أرسلان في غنم بأفسد لها من حرث الماء على المال والشرف في دينه»^(٢) ، يعني بالشرف حب الوجاهة والظهور . ونحن نقول لمن يعملون على إنهاض الإسلام من عشرته : إن الرسول قد رسم لنا طريق الجهاد ، وإن شارات الكهانة - كما يقول الأستاذ خالد - أبعد ما تكون عن هذا النهج النظيف .

(١) جمال الدين الأفغاني .

(٢) صحيح : عن كعب بن مالك .. أخرجه الإمام أحمد والترمذى .

علماء الدين ورجال الحكم

عندما يكون الحكم إسلامياً لحماً ودمًا وتكون السلطة القائمة أداة لتقرير الحق وتحقيق الخير ، وعندما ينظر الشعب إلى رجاله على أنهم منه وإليه ، شرفهم بشقته ومنحهم حبه ، وقاموا فيه خداماً لمصلحته ، وحراساً لشريعته ، عندئذ لا يتصور في الصلة بين الحاكم والمحكوم إلا الإخلاص العميق والتأييد المكين .

وارتفاع العلاقات بين الحكومة والشعب إلى هذه الدرجة من السمو قد يستغرب في العالم الشرقي اليوم حيث يعيش كبراؤه وراء حصون وأبراج .. !

فإذا علمت أن النساء - في إنجلترا مثلا - يقفون في الصفوف أمام محلات التموين لا تحرسهن إلا قلوب الرعية ! أدركت طرفاً من الصلة التي ينشدتها الإسلام بين الحكومة والأمة ، تلك الصلة التي تقررت أيام الخلافة الراشدة الأولى قبلما يتحول الأمر إلى ملك عضوض .

كأنما كان الحاكم والدًا وأفراد الشعب أبناءه .

وفي آداب هذه الصلة المؤثقة يقول النبي ﷺ : « إن من إجلال الله إكرام ذى الشيبة المسلم ، وحامل القرآن غير الغالى فيه ولا الجافى عنه ، وإكرام ذى السلطان المقطسط » ^(١) .

وقال : « ثلاثة لا يستخف بهم إلا منافق : ذو الشيبة فى الإسلام ، ذو العلم ، وإمام مقسط » ^(٢) .

فانظر أين يضع الإسلام الحاكم العادل ، وكيف يجعل محبته وموالاته من الدين ، بل لقد اعتبر المشى إليه لتكريمه عبادة ، وسلكه بين أفضل القربات إلى الله .

فعن معاذ بن جبل : « عهد إلينا رسول الله في خمس . من فعل واحدة منها كان ضاماً على الله تعالى : من عاد مريضاً ، أو خرج في جنازة ، أو خرج غازياً في

(١) حديث حسن - أخرجه أبو داود « وتحت رقم ٢١٩٩ في صحيح الجامع .. عن أبي موسى » .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير وتحت رقم ٢٦٠١ في ضعيف الجامع .. عن أبي أمامة .

سبيل الله ، أو دخل على إمام يريد بذلك تعزيزه وتقديره ، أو قعد في بيته فسلم
 وسلم الناس منه »^(١) .

فلنطوا هذه الصفحة من تاريخ الحكم في الإسلام وأدابه !
 وللننظر مرغمين إلى الناحية المقابلة عندما يكون الحكم سيئاً ، والولاية قاسطين^(٢) لا
 مقدسرين .

* * *

إن العلماء - قبل جمهور المسلمين - يجب أن يكونوا صوت المعارضة الداوى وسوط
 الإنذار الكاوى ، ولسان النقد الذى يكشف الريبة ويفضح الخطيئة والذى لا يجعل
 لحاكم كرامة إن جافى الحق وافتات على الأمة وتلاعب بالإسلام ، فإذا فرط العلماء
 فى ذلك فليسوا من الله فى شيء .. !

قال سعيد بن المسيب «إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فاحذروا منه فإنه لص»!
 وتأمل ما قاله الإمام أبو حامد الغزالى مرشدًا العالم المسلم إلى الموقف الذى يتزمه
 بإزاء الحكام الجرميين :

.. ومنها أن يكون مستقصياً عن السلاطين فلا يدخل عليهم أبنته ما دام يجد
 إلى الفرار عنهم سبيلاً ، بل ينبغي أن يحترز عن مخالفتهم وإن جاءوا إليه فإن
 الدنيا حلوة خضرة وزمامها بأيدي السلاطين ، والمخالط لهم لا يخلو عن تكلف فى
 طلب مرضاتهم واستئمالة قلوبهم مع أنهم ظلمة !

ويجب على كل متدين الإنكار عليهم وتضييق صدورهم وتقبيح فعلهم ، ثم إن
 الداخل على هؤلاء الملوك إما أن يلتفت إلى تجملهم فيزدرى نعمة الله عليه !

أو يسكت عن الإنكار عليهم فيكون مداهناً لهم !

أو يتكلف في أسلوبه كلاماً لمرضاتهم وتحسين حالهم ، وذلك هو البهت الصريح ،
 أو يطمع في أن ينال من دنياهم . وذلك هو السحت !

(١) «خمسة من فعل واحدة منهن كان ضاماً على الله : من عاد مريضاً أو خرج غازياً أو دخل على إمام يريد
 تعزيزه وتقديره ، أو قعد في بيته فسلم الناس منه وسلم من الناس» صحيح ، أخرجه الإمام أحمد والطبراني
 في الكبير وتحت رقم ٣٢٥٣ في صحيح الجامع عن معاذ بن جبل .

(٢) ظالمين .

وعلى الجملة فمخالطتهم مفتاح للشرور ، وعلماء الآخرة طريقهم الاحتياط ، وقد قال النبي ﷺ : «من بدا جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن»^(١) .

وقال : «سيكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتنكرون ، فمن أنكر فقد بريء ، ومن كره فقد سلم ، ومن رضى وتابع أبعده الله تعالى»^(٢) .

وقال مكحول الدمشقي : «من تعلم القرآن ، وتفقه في الدين ، ثم صحب السلطان تلقاً إليه وطمعاً فيما لديه خاض في بحر من نار جهنم بعدد خطاه» .

وسئل سعد بن أبي وقاص - وقد تأخرت به سنه حتى رأى ملك معاوية - فقال له بنوه : «يأتي الملوك من ليس مثلك في الصحابة والإسلام فهلا ذهبت؟

فقال لهم : يابنِي آتى جيفة قد أحاط بها قوم؟!

والله ما حييت لا أشاركهم فيها .

قالوا يا أباانا إذن نهلك هزاً !

قال : «يابنِي لأن أموت مؤمناً مهزولاً أحب إلىَّ من أن أموت منافقاً سميئاً» !

* * *

ومسحة الصدق تتلألق على هذا الكلام الخاص النزية . وهو علاج لا ريب فيه لأولئك الوصoliين الذين يتأكلون بالدين ويبيعون للشيطان ضمائرهم ، ثم إن كلام «ويلز» إلى جانبه لا يساوى شيئاً .

وقد يكون هذا الأديب الإنجليزي راسخ القدم في طائفة من الفنون والأبحاث ، لكن كلامه في المشاكل الإسلامية بالنسبة إلى كلام الغزالى يشبه كلام الرجل العادى بالنسبة إلى الأخصائى العريق .

وإليك ما نقله عنه خالد .. نكتفى بمحقطفات منه حتى لا يطول اقتباس ما لا جدوى فيه :

«.. كان الكهنة يلقنون الناس أن الأرض التي يزرعونها ويدأبون فيها ليست

(١) صحيح أخرجه الطبراني في الكبير تحت رقم ٦١٢٤ في صحيح الجامع عن ابن عباس .

(٢) ورد بنص : «إنه سيكون عليكم أئمة تعرفون وتنكرون فمن أنكر فقد بريء ومن كره فقد سلم ، ولكن من رضى وتابع ..» .

صحيح .. أخرجه الإمام أحمد في مستنده والترمذى وتحت رقم ٢٦٣٩٥ في صحيح الجامع ، عن أم سلمة رضى الله عنها .

لهم . وإنما هي للآلهة التي في المعابد وقد يهبهها الآلهة للحكام ، ويهبها الحكام من يشاءون من خدمهم وموظفيهم . . . » .

ثم قال ويلز « . . وفي مصر كانت المعابد أو فرعون «الرب» أو النبلاء يتلقون إيجار الأرض . وانحط الرجل العادى إلى حال تقليدية مزمنة من التبعية والخضوع ، وكان الفاتحون حريصين أن يضعوا أيديهم فى أيدي كهنة الشعوب والمذائن التى يتغون طاعتها ، حتى لا يكون لسود الناس من الأمر ولا من الحياة ولا من الأرض شيء . . . » .

ثم ماذا ؟ ينتقل الشيخ خالد بعد سرد هذه النصوص التاريخية الرائعة !! إلى وصف حال المسلمين حكاماً وعلماء ليعالج بهذا الدواء السكسونى ظلم الولاة وسكتوت المسؤولين من المرشدين والدعاة فيقول : «هذه تعاليم الكهانة منذ آلاف السنين فهل تغيرت الآن ولو قليلاً ؟ إن رجل الشارع الكاذب الداعوب لا يزال فريسة هذه الكهانة التى تدعوا إلى الرضا والتسليم ، ويتفاوت تأثيرها حسب تفاوت الوعى بين ضحاياها ، ففى اليمن مثلاً ترى الكهانة صورة طبق الأصل لتلك التى حدثنا عنها « ويلز » .

ولقد حدثنى صحافى زار اليمن إبان حوادثها الأخيرة بأن أكثر ما راوه هو نسبة كل شيء ملك اليمن (الإمام) فيشير الرجل إلى بيته قائلاً : هذا بغير الإمام !! وإلى حماره قائلاً : هذا حمار الإمام ، وبشر الإمام ، وأرض الإمام ، وغمم الإمام . . . إلخ . وهكذا تعمل الكهانة على إذابة شخصية الأمة ، وتهوى بها إلى درك سحق من الذل والخضوع كيما تسلس قيادها وتسير من ورائها مرتبة :

يا عمرو أنت إمامنا و الخليفة النفر الأول

تلك هي شرعتها قبل ٣٠٠٠ سنة من الميلاد ، وهى مدفوعة اليوم وكل يوم لالتزام هذا المنهج .

والكهنة المعاصرن قادرون بعد أن يقرأوا ما كتبه «ويلز» أن يضعوا أيديهم على الحوافر الشريرة التى تدفعهم لاقتراف الآثام» .

ونحن نعرف معرفة اليقين أن فى الشرق الإسلامى حكومات سفيهه باغية ! وكذلك نعرف أن هناك فريقاً من العلماء باع دينه بدنياه ، ومشى فى ركابهم يأكل من موائدهم ويعيش فى ظلالهم !

بيد أن تطبيق آراء «ويلز» على هذه الحالة قياس مع فوارق بعيدة .
واستيراد الأحكام التي تكشف المحن وتحقق الصلالة وتشفي العلة في متناول اليد .
والأمر لا يحتاج إلى تاريخ وفلسفة وخرافة .
فإن المبادئ الأولى في الإسلام فيها غناء ، غير أن العبرة بتطبيق الأحكام
لابتصورها المجرد .

إن اليمن التي استشهد بحالتها خالد قامت فيها ثورة ، قال مشعلوها عنها إنها
تحطيم للمظالم وتحقيق للعدالة ومحو لاستبداد الفرد بالأمة وإثبات لحق الجماهير في أن
تحيا كما خلقها الله طليقة لا رقيقاً .

وقتل في هذه الثورة إمام اليمن الذي يعتبر هناك ملك الآبار والأغنام وكل ما خلق الله .
ولم يكن الثوار يعرفون عن «ويلز» هذا شيئاً .
بل كانوا يستظهرون بالإسلام في ثورتهم^(١) .

ولو نجح ثوار اليمن كما نجح ثوار فرنسا في القرن الماضي لكان لهم ولليمن شأن آخر .

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهي ولا المخطئ الهبل

الكهانة والإسلام

إذا كان الشيخ خالد يريد - بإطلاق اسم الكهان على العلماء المفرطين في دينهم -
أن يشفى غليلا فلا عليه أن ينعتهم بما شاء .

ومن دعا الناس إلى ذمّه ذمّوه بالحق وبالباطل
لكن الخطأ الكبير أنه توسيع في مدلول هذه الكهانة حتى جعل الإسلام كالمسيحية
وحتى جعل المسجد كالكنيسة !

ومضى في خطته حتى جعل تاريخ الدينين واحداً ، ثم تورط فيما اقترح من
إصلاحات - بناء على ذلك - فخرج عن طبيعة المسلم الذي يعرف فضل دينه وغناه
بمواد البناء وأسباب البقاء ، وبلغ به الشروd في تلك المتابهة التي سلكها أن جاء من عند
نفسه ببرنامج لإصلاح المسجد والكنيسة معاً !!

(١) تأمرت الحكومات العربية على إطفاء الثورة وقتل قائدتها ابن الوزير .

وستحدث عن هذه السقطة الجسيمة عند انتهاء الكلام إليها .

والذى نلقت إليه الأنظار الآن أن الكهانة صفة رسمية فى أديان أخرى كالبودية والبرهمية ، ولقب لاغبار عليه بالنسبة إلى رجال الدين المسيحى الذى تقوم تقاليده للآن على جعل رجال الكهنوت همزة الوصل بين الناس والمعبد ، وعلى تكليفهم بأداء طقوس معينة فى الأفراح والأحزان ، والأمور العامة والخاصة .

أما الإسلام فبرىء من كل دلالة دانية أو قاصية لهذا الاسم .

وإطلاقه على أي طائفة من المسلمين لا يعدو أن يكون اتهاماً فى يقينها وصلاحها ، وتشبيهاً لسلكها بسلوك أصحاب الملل الفاسدة والتّحل الشاردة .

ورغم بعض العلماء به - كما فعل خالد - قد ينظر إليه على أنه تجوز في التعبير ، وإيغال في الإهانة .

أما أن يصل الأمر إلى اعتبار ذلك حقيقة علمية نتصيد لها الشواهد والدلائل فهذا لا معنى له ، وما لا يقبل من أحد قط .

ولقد شعرت بغضاضة شديدة ، ودهشة عميقه عندما تكلم الأستاذ خالد عن الكهانة والعقل ! فأراد أن يوهمنا بأن هناك كهانة شرقية إسلامية قد أعلنت الحرب على العقل البشري ، والتقدم العلمي !

وأنها أطفأت الأنوار على الإنسانية الساعية للحضارة والنهوض .

وأنها أخفقت في محاولتها الباطلة « كما - والكلام للأستاذ خالد - قد حاولت أخت لها من قبل ؛ وهى الكهانة الغربية ، محاولتها الخاسرة وأبطرها الظفر الذى أحرزته أول الكفاح واستمرأت لحوم العباقة حتى دفعت الثمن أخيراً من حياتها وسار موكب العقل فى زحفه الميمون وسيظل يسير » .

ياللدواهى ! أين هذه الكهانة الشرقية الإسلامية ذات البطش الرهيب بالعلم وعباقته ؟ !!

كهانة إسلامية هي أخت للكهانة المسيحية ؟ !

لا شك أن هذا التعبير يصلح عنواناً لقصة خيالية غير مضحكة وغير مسلية
للأسف .

إن الأيدي البيض التي أسلافها الإسلام وعلماؤه لحضارة العالم لا يستطيع مؤمن
ولا ملحد إنكارها .

وإن القول بkehaneh إسلامية خاصمت العقل البشري ساعة من نهار ، بله عصراً من
الزمن قول باطل معجوج !

وليس يصلح لتسويغ هذا الكلام أن الأستاذ خالدأ سمع من تلميذه له أن خطيباً
بمسجد في إحدى حارات القاهرة قال للمصلين يوم الجمعة - والعهدة على الأستاذ
خالد وتلميذه : -

(لعلكم تقرؤون في الصحف الكافرة أن العلماء سيتصلون بالقمر ، وأن المريخ كوكب
عامر بالناس . هذا كفر ، فالقمر ليس غير كوكب منير والشمس كذلك ، والأرض
تدور) ١ . هـ .

أفضل هذا الهذيان الفارغ يسوغ مؤلف أن يذكره ، وأن يستنتج منه هذه النتائج
الغريبة ؟ !

وهل يصح للأستاذ أن يكتب تحت عنوان : «(الكهانة توسل بالمسجد والمنبر
لتقويض المجتمع) (إن الكهانة تحارب العقل لأنه يُرى الناس عوراتها ويبدى لهم
سوءاتها ، ويعمل جاداً لفض سوقها .. إلخ)» .

لقد اشتغلت أنا بنفسي بالمسجد إماماً ومفتشاً نحو عشرة أعوام ، وأعلم أن الشيخ
حالداً اشتغل واعظاً بالجمعية الشرعية عدد سنين ، فما شعرنا للكهانة الشرقية المزعومة
بسياسة جامدة تقيدنا .

بل على العكس لا يوجد في الدولة رجال مطلقوا السراح في أسلوب الدعوة
والإرشاد كالعلماء^(١) .

(١) وقتئذ .. إذ مرت عصور كتمت الأفواه وألقت بالشرفاء من رجالات الدعوة في غيابات السجون .

وإنما يتفاوتون بمواهبهم ودراستهم ومدى حرارتهم وإخلاصهم .

ثم لنفرض جدلاً أن هناك كثيرين من أمثال خطيب القمر والرييخ الذى ذكره لنا خالد !

أولاً لنفرض أن خطباء مصر أجهل من خطباء نجذب واليمن !

بل لنفرض أن رجال الجمعية الشرعية - حيث كان يعمل الشيخ خالد - شنقاً سرّاً أحد علماء الذرة المصريين !

فهل هذه الواقع المتخيلة تبيح لنا القول بأن هناك كهانة إسلامية تُعدّ أختاً للكهانة المسيحية؟!

هذه الكهانة التي ظلت عصوراً متطاولة تنشر الذعر والإرهاب في ميدان الفكر، وتنشب أطافرها المتوحشة في أنفاس العلماء والمخترعين، وتسن التشريعات وتقييم المحاكم التي تجعل من الجهل قوة مهيبة، ومن العقل جريمة منكرة محذورة !!

شتان شتان لا يختلف في هذا اثنان . . . !!

• • •

السقطة الكبيرة

لقائل من الناس أن يذكرنا بأن صاحب (من هنا نبدأ) أراد أن يجسم عورات الملتصقين بالإسلام ، والإسلام منهم براء .

وأن الفصل الذى عقده للدين والكهانة يدور على محاربة الجهل والخداع والاستغلال ، وهذا ما يتافق مع روح الإسلام ونصوصه .

ونحن نقول : إننا نحارب التدين الباطل بالتدين الصحيح ، ونحارب الكهانة المنافقة بالإسلام الحق ، ونختبر كل ما يجده فى الدنيا من أسماء وحقائق بما لدينا من كتاب وسنة ، فما وافق مواريثنا المقدسة من كتاب الله وسنة رسوله قبلناه ، وما جافاه بذنه ولا كرامة !

والأستاذ حارب الكهانة - التى افترضها فى الإسلام المعاصر - بكهانة أخرى جاء بها من عند نفسه .

ذلك أن تشبعه بالروح القومية خيل إليه أن اليهودية والمسيحية والإسلام أديان متساوية ، وأنها قد تصاب بمرض واحد فيوصف لها دواء واحد !!

والفكرة الوطنية فى العصر الحديث تقوم على جعل الأديان - سماويها ووثنيها - تحت وصايتها المشتركة .

ومن ثم نسمع رئيس حزب مصرى يقول لأتباعه : اذهب إلى المسجد يوم الجمعة إن كنت مُسلِّماً ، وإلى الكنيسة يوم الأحد إن كنت مسيحيًا ، وإلى المعبد يوم السبت إن كنت يهودياً!

ومقصود توجيه الأديان كلها - إلى ما فيه نفع الوطن - وتسخيرها على حد سواء فى تدعيم الناحية الروحية ، أو توطيد الأمان العام .

أما أن ينظر مثلا إلى الإسلام على أنه دين ذو رسالة عامة تسسيطر على الأوطان والأجناس ، فهذا امتداد خطير يعالج بالبتر كما يعالج غو السرطان !
والشيخ خالد يميل إلى هذا الاتجاه .

بل إنه يعتقد العصبية القومية المطلقة في الحكم وغيره ، ولايفاوت بين دين ودين .
ولو أنه حارب الكهانة لوجه الله ونصرة الإسلام لما وجدنا بكلامه أساساً ، ولتأولنا مبالغاته وافتراضاته على ما بها من هزل .

ولكنك تسمع إليه يقول : «أترانى نسيت الكنيسة؟ لا! وكل هذه المقترفات التي أدعو إلى تنفيذها بالنسبة إلى المسجد لابد أن تنتظم الكنيسة أيضاً فيؤلف من رجالها الراشدين (كذا) من يشرفون على توجيه رسالتها توجيهًا يخلق الشعب الذي يحيا بالدين ولا يموت .

ولكى تثمر هذه الخطة ثمرتها فلابد من الدعاية الواسعة النطاق عن طريق الإذاعة والمسرح الشعبي (!) وإقامة مسابقات أدبية ذات جوائز مغرية للمؤلفين الذين يصوغون تعاليم الدين صياغة تنزع الناس إلى تمجيد الدين والحياة .. .

أى دين هذا الذى يراد حمل الناس على تمجيده !!

إنه ليس المذكور فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(١)

﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾^(٢)

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَعْبُدُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾^(٣)

إنه أعم من ذلك وأوسع دائرة ، فهل يشمل ما تواضع الناس على تسميته ديناً فحسب ؟ !
ومن ثم جعل الأستاذ خالد من حقه أن يرسم برنامجاً لإصلاح الكنيسة والمسجد
معاً عن طريق الإذاعة والمسرح !!
مالك وللكنيسة يا أستاذ خالد !

إن كنت تريد إصلاحها فهل ستتأتى بهؤذن يصرخ فوق سقفها بتوحيد الله ؟ !
وإن كنت تتبعى مصالحتها فلِمَ ترسم للقوم ولمَ تقترح عليهم ؟

وإن كنت تريد إصلاح المجتمع الإسلامي فهل يتلمس الإصلاح إلا من الرجوع
بالمسلمين إلى المنابع المتقدة من فيوض الوحي الإلهي ؟ .. أى إلى الكتاب الكريم والسنّة
المطهرة ، وإعلان حرب عشواء على المدخلين . والمخرفين من ضلوا هذا المنهج القوم .
أما أن يتلمس خيراً للشرق الإسلامي المتعب من الجاهلية الحديثة التي خرجت
 علينا في ظل النزعة القومية المجردة فأأمل في سراب .

وهذه النزعة ليست إلا حركة التفاف يقوم بها الإلحاد ، ليجتث بها جذور الإسلام
من هذه البلاد .

(١) آل عمران : ٨٣ .

(٢) آل عمران : ٨٥ .

(٣) آل عمران : ١٩ .

كلمة صريحة

إننا نحب وطننا ، فتلك غريزة الحيوان قبل الإنسان .

ولكننا لا نبيع ديننا بملك المشرق والمغرب .

وديننا هذا الذى نفتديه بكل ما نحب له سياسة تشريعية معينة ، وسياسة اقتصادية معينة ، وسياسة عالمية معينة .

وله فى البيت والأسرة والشارع سياسة اجتماعية معينة .

ومن السفالة أن يطالبنا مخلوق بتعطيل هذه التعليمات جمیعاً باسم القومية أو الشيوعية أو الديمقراطيّة أو أى اسم آخر لا نعرفه ، لأنّ معنى ذلك أنه يطالنا بالارتداد والكفر .

«والإسلامية» التي نؤمن بها ونعمل لها ترفع شأن الوطن ، وتضمن لكل فرد يعيش تحت سمائه حياة زاخرة بالبر والعدالة والمساواة ، وإن اختلفت الملل وتبانت النحل .

ثم إن حالة الشرق الآن وحاجة العرب بالذات أكثر تطلبًا لإقامة النهضة على أساس إسلامي وصريح ، وبخاصة بعد الكوارث المتلاحقة التي أصابت البلاد والعباد في كل ميدان .

وما دام الإسلام يعطى أبناء الديانات الأخرى ما لا يناله من حقوق ، ويفرض عليهم ما على أبنائه من واجبات ، ولا يتعرض لعقائدهم التي آثروها بردّ ولا نقد ، فإن ما يسمى «مشكلة الأقليات» ليس إلا مكرًا استعماريًا خبيثًا يراد به الكيد للمسلمين خاصة ، وتسويغ الجور عليهم واحتلال بلادهم !!

وهذا يجعلنا نضاعف اليقظة والجهاد حتى نصل إلى نصر حاسم للإسلام وأنظمته وأهدافه .

إن الاتجاه القومى الحديث منذ نشأته فى أوروبا ، ومنذ اعتبار أساساً للتنظيم الدولى ، لم يكن ينظر للأديان عموماً إلا على أنها ضرورات يحسن التمشى معها إلى حد غير

بعيد ، وعند نقل هذا الاتجاه إلى الشرق الإسلامي شابتة عناصر كثيرة من الإلحاد السافر والتقليل الأعمى .

وكان المسلمون على حال من الضعف والرخاوة جعل مقاومتهم لهذا الانقلاب فاترة كليلة الجهد .

وقد يكون غيرنا رحب به وهش له ، لا لشيء إلا لأن هذا الاتجاه يمكن استغلاله استغلالاً واسع النطاق في هدم شرائع الإسلام وتعاليمه ! وذاك ما حدث فعلا .

فإن الإسلام من حيث هو جنسية عامة بين أتباعه في قارات الأرض الخمس قد ضعف كثيراً على حين قوتها القوميات الخاصة !

ثم إن الإسلام ضعف كذلك بوصفه قوة حلقية عاصمة من الدنيا والرذائل ، ولم يوجد شيء يغنى عنه في رفع مستوى المسلمين الأدبي !

هذا إلى أن الاستعمار الغربي حرص أشد الحرص على تحطيم الإسلام كعقيدة دينية ذات طابع عسكري يتنادى المسلمين بها لرد العداون ودفع التغييان .

كما أن أوروبا حضرت الأقليات على أن تطالب بحق الشريك المساوى في العدد كأنهم النصف . أي أن الشخص الواحد يطلب لنفسه مثل أنسبة تسعة عشر شخصاً .

ولن تعدم الدولة المحتلة للبلاد الإسلامية أن تجد من يقوم بهذا التحدي المعيب ! والعهد قريب بما كان يكتبه ولا يزال يكتبه «سلامة موسى» في جريدة مصر الطائفية المعروفة من مقالات لا يستفيد منها إلا الإنكليز !

ونحن - إن نعجب - فلخلفاء هذه الحقائق المريمة عن الأستاذ خالد ، وانزلاقه إلى مغاراة هذا التيار الذي يحاول منذ قرن أن يجرف الإسلام .

* * *

موقف علماء الأزهر من هذه النزعة

يحزننا أن نقول : إن الأزهر لم يبدأ حربه ضد هذه الحركة إلا مؤخراً ، بعدما شعر رجاله بالأخطار الهائلة التي تهدد الإسلام في صميمه .
ونخشى أن يكونوا جاءوا بعد قيام القطار .

لقد تركوا الشيطان يلقى غراسه في الأرض ويعهد غاءها ، فلما بدأت الثمار السامة تغص بها الخلوق وتتفقر منها النفوس تعالت صرخات الألم .

وإليك مقتطفات من كتاب أرسلوه إلى رئيس الحكومة يبثونه شكوكاً لهم .

«إن الناظر في حال أمتنا العزيزة وما ألم إليه أمر الدين والخلق فيها ليهوله ما يرى ويأخذه كثير من الحزن على حاضرها الذي صارت إليه ، ويواجهه كثير من الإشراق على مستقبلها الذي هي مقبلة عليه .

فقد استهان الناس بأوامر الدين ونواهيه ، وجنحوا إلى ما يخالف تقاليد الإسلام ، ودخل على كثير منهم ما لم يكن يعهد من أخلاق الإباحة والتحلل جريأً وراء المدنية الزائفة ، وأغتراراً ببريقها الخادع ، وكثرت عوامل الإفساد والإغراء في البلاد ، ولاسيما أمام ناشئتها وفتياتها المرجحون للنهوض بها والأخذ بيدها في حاضرها ومستقبلها ، فمن حفلات ماجنة خليعة يختلط فيها النساء بالرجال على صورة متهتكة جريئة تشرب فيها الخمر ، ويرتكب فيها ما ينافي المروءة والخلق الكريم ، إلى أندية يباح فيها القمار ، ويكسب على موائدها الذهب وتبتز فيها الأموال ، وتزلزل بسببها البيوت والكرامات ، إلى ملاعب للسباق والمراهنات تنطوى على ألوان من الفساد وإضاعة المال ، إلى مسابقات للجمال إنما هي معارض للسوق والإثم يرتكب فيها ما يندى له جبين الدين والخلق والمروءة ، ويباح فيها من المحرمات أكبرها وأخطرها ، إلى شواطئ في الصيف يخلع فيها العذر ويطغى فيها الأشرار ، إلى أخبار ذلك كله تذكر وتنشر وتوصف وتصور و تستشار بها كوامن من الشهوات والغرائز في غير تورع ولا حياء ، إلى كثير من ألوان المنكرات وفنون الموبقات .

كل هذا يحدث في البلاد ، ويُعمل عمله المتواصل في أخلاقنا وتقالييدنا حتى اشتد الخطب ، وجل الأمر ، وأصبح في حاجة إلى علاج سريع .

لقد أورثتنا المدنية الأوروبية وما وفدها من وافدات الرذيلة والإباحية وما غزينا به في أخلاقنا وتقالييدنا الكريمة - أورثنا كل ذلك عرفاً فاسداً ، وذوقاً مريضاً ومجتمعاً صار ينظر إلى هذه المفاسد نظرته إلى شيء مألف فلا يكاد ينكرها فضلاً عن أن يغيرها ، بل أصبح يراها - إلا قليلاً من عصم الله - آية من آيات التقدم وعلامة على النهوض والرقي ، ورضيت بها القوانين ، بل حمتها ونظمتها ، وجَبَتْ من كسبها الحرام الضرائب والرسوم كما تجبيها من الأعمال المشروعة والمكاسب الشريفة .

ألا وإن أكبر الفساد بعد الورقة في الفساد أن يرى الغي فيه رشاداً والضلال هدى ، فإنه حينئذ دليل على تأصل جرائمه وتمكنها من القلوب ، وصيغورة الأمة إلى الزمان الذي يرى فيه المعروف منكراً والمنكر معروفاً والقبيح حسناً والحسن قبيحاً .

وإن لنا في بعض الأمم الحاضرة لعبرة إذ أفسدها الترف ، وفت في عضدها الانحلال ، فسقطت يوم الجهاد أمام أعدائها ولم تطق صبراً على ما أصابها من بأسهم وقوه شكيمتهم ، وقد نادى بذلك قادتها وولاة أمرها ، ولكن بعد فوات الأوان ، وتلاؤموا عليه ، ولكن بعد أن فاتتهم الفرصة فأصبحوا على ما فعلوا نادمين » .

* * *

وسوف تسأل : ماذا حدث بعد هذه الشكاية ؟ ، والجواب العاجل لم يحدث شيء ، ولن يحدث شيء !!

لقد قوبل مبلغوها بانحناءة تنطوي على التوقير والإجلال حتى إذا أداروا أكتافهم وتواروا عن الأنظار ألقى - بقلة اكترات - في أقرب درج ، ولا نقول أكثر من ذلك . إنك تطلب من سدنة الأوثان أن يكسروها فوق رءوسهم أنقاضاً .

وكل ما شكا منه السادة من كبار العلماء لا يزال باقياً ، بل إنه يزيد !!

* * *

التحرر من الخوف والطمع والاتجاه إلى الشعب

والطريقة المثلثة للإصلاح ليست هذا الوعظ المكتوب أو المخطوب ، فإن النبي ﷺ لم يلجم إلأى الوعظ إلا ملماً ، وبقدر ما يعينه على وظيفته الأولى - وهي التربية وإعداد النفوس بالعمل الريتيب ، والخلق القويم ، والأسوة الحسنة - ومن ثم كان يتخلو أصحابه بالنصيحة مخافة السامة عليهم .

وانظروا قول ابن عباس لعكرمة : «حدث الناس مرة في الجمعة ، فإن أبى فمرتين ، وإن كثرت فثلاث ، ولا تمل الناس هذا القرآن !

ولا ألفينك تأتى القوم وهم في الحديث من حديثهم فتقصر عليهم - قصص الدين - فتقطع عليهم حديثهم فتملهم ولكن أنصرت فإن أمروك فحدثهم وهم يشتهونه» .

ولذلك نؤكد هنا أن محاولة العلماء خدمة الدين عن طريق الكلام الكثير خطأ تسيء إلى الدين ويسيئون بها إلى أنفسهم .

والواجب أن يعنوا بالتنظيمات الشعبية ، وتأليف الجماعات التي تتعارف على العبادة ، وتعاون على الخير ، وتتوافق بالحق ، وترتبط للعدو ، وتستعد للجهاد .

وهذا المسلك يتخاصى العلماء أن يحددوا مسلكهم من الحكومة وأن يهاجموها إذا تهجمت على الدين .

وبالحرى أن يبصروا الأمة بحقيقة إذا كانت المبادئ التي قامت عليها منافية للدين نفسه .

إن فساد الحكم في الشرق داء قديم ، وعبء العلماء في محاربته ثقيل .
فإذا فسد الحكم فعلى العلماء ألا يكتفوا بالإنكار القلبي .. !

وإلا صاروا وعامة الناس سواء . وخانوا الأمانة التي حملوها ، وخاسوا بالميثاق الذي عقدوه .

والحاديـث المشهور «صنفان من النـاس إـذـا صـلـحـا صـلـحـا النـاسـ وـإـذـا فـسـدـا فـسـدـا
الـنـاسـ : الـعـلـمـاءـ وـالـأـمـرـاءـ»^(١).

أَمَّا الَّذِينَ يَتَمْلَقُونَ الظُّلْمَةَ وَيَتَرَضُّهُمْ ابْتِغَاءَ سُلْطَةٍ زَائِلَةٍ ، أَوْ مَنْصَبٍ تَافِهٍ أَوْ مَتَاعٍ قَلِيلٍ ، فَأُولَئِكَ لَيْسُوا بِعُلَمَاءٍ . بَلْ هُمْ شَرَارُ الْخَلْقِ .

قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ أَشَدَ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالَمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ عِلْمٌ»^(٢).

وقال : «يكون آخر الزمان عباد جهال وعلماء فساق »^(٢) .

وقال «من طلب الدنيا بعمل الآخرة طمس وجهه ، ومحق ذكره ، وأثبت اسمه في النار»^(٤) .

وقد نكب الإسلام بعدد كبير من هؤلاء ، وإنها لفتنة لأندرى لم ينتهى أمر الناس معها .

أسمعت إلى نبي ذهب - قبل أن يدعو الناس إلى التوحيد - إلى مقر الأصنام ليقدم لها الولاء ويستأذنها في الدعوة إلى الله ؟ !!

إن ذاك مثل الذين ي يريدون خدمة الإسلام . فيفكرون قبل كل شيء في أقرب الطرق إلى قلب الحاكم لترضيه و توقيره .. !!

تحرروا أيها الناس من الطمع فى المناصب ، والخوف من الحكم ! ، وإلا فلن تبلغوا رسالة الله .

(١) عن ابن عباس في الخلية لأبي نعيم رقم ٢٤٩٥ في ضعيف الجامع .

(٢) عن أبي هريرة في شعب الإيمان للبيهقي والطبراني في الصغير . ورقم ٨٦٨ في ضعيف الجامع .

(٣) رواه الحاكم في المستدرك .

(٤) رواه ابن عباس تحت رقم ٣١٤٣ في ضعيف الجامع .
والآحاديث الضعيفة يقوى بعضها بعضاً ولا تحالف القرآن روحًا وهدفًا .

بين الهلال والصليب

«ستفتدون مصر - وهى أرض
يسْمُى فِيهَا الْقِيراطَ -
فاستوصوا بِأهْلِهَا فَيُرَأِّ
فإِن لَهُمْ ذَمَّةٌ وَرَدَمًا».

«حديث شريف»

لعلك تلحظ في يسر - وأنت تطالع القرآن الكريم - أن تعاليم الأديان واحدة ، وأن كلمة «الإسلام» ربما كانت جديدة على أسماع الناس في العهد الأول للبعثة العامة ، ولكن القرآن أكد أن هذه الكلمة قدية قدم النبوة ، وأن المسلمين السابقين من لدن الحق - تبارك وتعالى - كانوا يؤدون الرسالة نفسها التي قام محمد بأبعائها ، بل كانوا يؤدونها تحت العنوان نفسه «الإسلام» الحنيف !

والفروق الطفيفة في التشريعات الفرعية لا تخدش هذا الأصل العتيق .

ثم إن حقائق العلم الواحد قد يدرسها للطلاب عدد من المدرسين المتفاوتين الكفاية والمقدرة فتخرج من فم أحدهم أوضح وأبلغ من الآخر .

ولذلك اختلفت درجات الأنبياء وإن اتفقت تعاليمهم :

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَنْ كَلَمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرِيمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقَدْسِ﴾^(١).

وربما كان السر في عظمة محمد وامتيازه على غيره من الدعاة إلى الله ، أن أحداً من المرسلين الأولين لم يبلغ مبلغه في تمهيد طريق الحق ، وربط الناس به على ضوء من العقل الحر والعاطفة الحارة .

ومن أرسل بصره في مجالى سيرته الزاكية لمح عملاً فارغاً يطمس آثار الجاهلية في جلادة وحزم ، ويفتح الآفاق على حضارة جديدة أعلنت قدر الإنسان ووثقت صلته بالله الواحد الديان .

وليس هنا موضع الكلام عن صاحب الرسالة العظمى ، بيد أننا نذكر من قرآن ما يشرح لنا معالم الوحدة التي تجعل الأنبياء صفاً واحداً يسعى إلى غاية مشتركة .

فنوح يقول : ﴿إِنَّ كَانَ كَبِيرًا عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِّرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكِّلْتُ فَاجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرُكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غَمَّةً﴾ إلى أن يقول ﴿وَأَمْرَتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٢)

وفي إبراهيم يقول : ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مَلَةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفَهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٣) إذ قال له ربُّه أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

(١) البقرة : ٢٢٥ .

(٢) يونس من الآياتين : ٧١، ٧٢ .

(٣) البقرة : ١٣١، ١٣٠ .

وفي يعقوب - الملقب بإسرائيل ، والذى تحاول الصهيونية الحديثة أن تنتسب له - يقول : ﴿أَمْ كُتُمْ شُهَدَاءِ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لَبْنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ أَبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(١)

وفي موسى حين يعلم قومه مقاومة الظلم ومصايرة الأحداث السود : ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكُّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾^(٢)

وفي سليمان حين يدعو ملكة سبا لعبادة الله ونبذ عبادة الكواكب : ﴿فَأَلَّتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُقْرِي إِلَيْكُمْ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾^(٣) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ^(٤) أَلَا تَعْلُوْا عَلَيَّ وَأَتُؤْنِي مُسْلِمِينَ﴾^(٥) ، وقول ملكة سبا بعد ذلك : ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٦) .

وي يوسف لما شرفه الله بالنبوة والملك وساق إليه مجد الدنيا والآخرة . يقول : ﴿رَبِّي قَدْ أَتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطَّرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْتَ وَلِيَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِيقِي بِالصَّالِحِينَ﴾^(٧) .

وفي عيسى الذى أحسن عبادة ربه وبذل جهده كله ليقود الناس إلى الله ويظهر نفوسهم من أدران الهوى والشرك ، فإذا السفهاء يتنكرون له ويحاولون الاعتداء عليه ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفُرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَا مُسْلِمُونَ﴾^(٨) .

والآيات التى تشير إلى وحدة الأديان فى الموضوع والعنوان كثيرة ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِرَسُولِ مِنْ قَبْلِكَ﴾^(٩) .

وتبعاً لهذا كانت عواطف المسلمين تتوجه إلى اليهود والنصارى على أن الكل إخوة ، بل كان إحساس المسلمين بأواصر القربي بينهم وبين أهل الكتب الأولى إحساساً ظاهراً صادقاً .

ويبدو هذا بالنسبة إلى النصارى فى حادثتين نقاصهما عليك :

لما اشتد ضغط الوثنية المخرفة على المسلمين فى مكة أشار النبي صلى الله عليه

(٤) النمل : ٤٤ .

(٣) النمل : ٣١ ، ٢٩ .

(١) البقرة : ١٣٣ .

(٢) يونس : ٨٤ .

(٧) فصلت : ٤٣ .

(٥) يوسف : ١٠١ .

(٦) آل عمران : ٥٢ .

وسلم على أصحابه المضطهدین أن يلجموا إلى الحبشه . ورأى في جوار ملكها المسيحي عاصماً من الفتنة وأماناً .

وقد حاولت قريش أن توغر نصارى الحبشه على المسلمين الفارين بدينهن إليها . وتوسلت إلى ذلك بأن المسلمين لا يرون في عيسى وأمه معنى الألوهية الذي يلحظه الأحباس فيهما ، ولكن النجاشي استمع إلى حديث القرآن عن مریم ومیلاد عیسی ، وخلب لبه فيفضل التمجيد والكرامة الذي يغمر به الإسلام قصة الميلاد . ثم أبى أن يقصى المسلمين عن جواره .

وفي الوقت الذي كانت أفئدة المشركين تهوى فيه إلى مجوس فارس ، كان المسلمون يعطّفون على نصارى الروم ويتمنون لهم الخير ، وقد حزنوا أشد الحزن لما هزم الفارسيون الجيوش المسيحية .

بل كان حزنهم مثار شماتة من جانب العرب المشركين حتى طمأنهم النبي صلوات الله وسلامه إلى أن المحوسيّة ستنتكس ، وأن المسيحية ستنتصر ^(١) **الْمَ** ^(٢) **غُلْبَتِ الرُّومُ** ^(٣) **فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلْبِهِمْ سِيَغْلِبُونَ** ^(٤) **فِي بَعْضِ سِنِينِ اللَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ** ^(٥) **وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَذِيْرِ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ** ^(٦) **بِنَصْرِ اللَّهِ** ^(٧)

وكما أمل المسلمون في مطالع تاريخهم أن يلقوا الخير عند النصارى تطلعوا إليه عند اليهود .

فما كادوا يهاجرون إلى المدينة حتى سارعوا إلى عقد حلف معهم يقوم على تأمين الحقوق ودفع العداون .

بل إن عواطف الحبّة وسلامة الصدر جعلت المسلمين يتوقعون من اليهود أن ينصرّوا دعوة التوحيد أو على الأقل يخلوّا بينها وبين الوثنية ، فلا يتدخلون في الصراع الذي نشب بينهما على الحياة والموت ... لا يتدخلون إلى جانب عبادة الأصنام .

انتظر أهل القرآن أن يسمعوا من أهل التوراة شهادة حسنة تقر الحق في مجتمع طال عليه الأمد وهو لا يعرف ربّه إلا أحجاراً منحوته ^(٨) **وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ** ^(٩) .

(١) الروم : ١ : ٤ . (٢) الرعد : ٤٣ .

ولكن الذى عنده علم الكتاب ضن بالكلمة المطلوبة : بل شهد أن الوثنية أفضل من دين محمد !!!

الواقع أن المسلمين - كأصحاب **المُثُلِ** دائمًا - تطغى عليهم طيبة القلب وصفاء الطوية فينشدون السلامه ويحسنون الظن ثم يفجؤهم ما ليس في الحسبان فيعلمون أنهم مهما أحبوا مكرهون .

ومن ثم يقول الله لهم : ﴿ هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحْبِنُّهُمْ وَلَا يُحْبِنُّكُمْ وَتَوَمُّنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوْكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصُوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ .

ومع ذلك التاريخ السابق .. فإننا نحب أن نمد أيدينا وأن نفتح آذاننا وقلوبنا إلى كل دعوة تؤاخى بين الأديان وتقرب بينها وتنزع من قلوب أتباعها أسباب الشقاق .

إننا نُقبل مرحبي على كل وحدة توجه قوى المتدينين إلى البناء لا الهدم وتذكرهم بنسبهم السماوى الكريم ، وتصرفهم إلى تكريس الجهود لمحاربة الإلحاد والفساد ، وابتکارهم أفضل الوسائل لرد البشر إلى دائرة الوحي بعدما كادوا يفلتون منها إلى الأبد .

وهذه الوحدة المنشودة ليست مركباً كيمياً تذوب فيه العناصر المكونة له وتفنى خصائصها ! فهذا مستحيل .

ونحن لا نقبله ولا نفكريه ! .

بل ستبقى الأديان كما هي ، وسنستفيد الكثير من هذا التعاون .

وفي حدوده الواسعة نحب أن نقرر ما يلى :

أن ما يقدسه أتباع دين ما ، لا يكره عليه أتباع دين آخر .

فاليهود لا يرغمون على الإيمان بيعيسى ، والنصارى لا يرغمون على الإيمان بمحمد .

ومهما اعتبر المعتقدون لدين أن ما لديهم حق وأن ما لدى غيرهم باطل ، فلا مجال لإقصام هذا في ميدان الحياة العامة ، واستغلاله في إيقاع المظالم والاضطهادات ...

والآديان - من مصادرها الثابتة - تحترم هذه القاعدة كل الاحترام ومن الإنفاق - كذلك - ألا نكلف أتباع دين ما بأن ينزلوا عن تعليم من تعاليم كتابهم ، أو وصية من وصايا نبيهم ليكون هذا التنازل عربون المودة لغيرهم ، وإلا كان هذا التكليف معناه تغليب دين ، ونصر أمة على أمة ! .. ومحور التفاهم يدور على الاحترام المتبادل لا الاستهانة والهضم !!

فإذا اختلطت مذاهب شتى فى وطن واحد فإن تنسيق مصالحها كلها ليس بالأمر العسير .

وضمان المصلحة المعقوله لأشیاع كل نزعة دينية لا يهدى - بداعه - حق الكثرة فى إعلان سيادتها وتنفيذ برنامجها ...

وقواعد الديمقراطية الحديثة تقوم على هذا الأساس .

ألا ترى حزب العمال فى إنجلترا يزيد خمسة أصوات فقط على حزب المحافظين ، ومع هذه الأغلبية الضئيلة فقد انفرد بالحكم ، وفرض نظمه الاشتراكية على البلاد جموعا !

فإذا كانت مصر تضم كثرة مسلمة تبلغ أكثر من ٩٠ % فمن حق مسلميها يقيناً فى نطاق ما أسلافناه من قواعد أن يجعلوا الدولة فى مصر إسلامية لحماً ودماء .
وانه لما يساعد على ذلك أن الإسلام كما رأيت يرى نفسه صدى الكتب الأولى ، وامتداداً صحيحاً مشرقاً لتعاليم موسى وعيسى عليهما السلام .

* * *

هذه أسس نضعها لإقامة تعاون مشترك بين أهل الأديان السماوية ، ونحب أن نقول فى صراحة إن هناك أساساً أخرى لجمع المنتسبين إلى الأديان فى صعيد واحد وهذه الأسس معروفة بل مطبقة فعلاً فى أكثر من قطر من أقطار العالم الربب وهى تجمع بين اليهودى والنصرانى والمسلم على أنهم جمیعاً إخوة سواء ... ولكن بعد أن تسلّخهم جمیعاً من عقائدهم وتستوثق من نبذهم لرسالاتهم وشرائعهم .
وآخرى بنا أن نسمى هذه «بالوحدة الالادنية» !

إن هناك يهوداً لا يعرفون موسى ولا التوراة !

هل قرأت الدعوة التى وجهها «أينشتين^(١)» إلى أخطر المؤتمرات العلمية يطالبها أن تحارب فكرة الألوهية وتنهى الأذهان من هذه الخرافات ؟ ! ويعتبر النجاح - فى محاربة الله !! - أكبر كسب تحركه الإنسانية (!) .

هل هذا يهودي ؟ وهل يسمع لمثله رأى فى التعاون بين أهل الدين ؟ !

(١) وقد تحول هذا العالم «أينشتين» بعد ذلك إلى حظيرة الإيمان ... وله فى مجال الإيمان كلمات حسنة وأراء متزنة .

ثم ننزل من قمة العلم الطبيعي حيث يوجد هذا العالم الملحد ونهبط إلى السفح فنرى «محمد التابعى» المسلم - كما يقال - و«سلامة موسى» المسيحى - كما يقال - فإذا كلا الشخصين يدعو بقوة وحماسة إلى إقرار البغاء وإباحة الزنا !!

ولا عجب فلا هذا ولا ذاك يؤمن بالله أو يصدق باليوم الآخر !

ولiken هذان الشخصان من رجال الصحافة أو السياسة .

ولكن كلامهما فى شئون الأديان لا يسمع إلا يوم يسمع رأى الشيطان فى شئون الوحي !

ومع ذلك فالوقاحة تجعل «سلامة موسى» يكون عصابة من الشطار أو الغرار لترسم خطوط التعاون بين المسلمين والأقباط فى مصر !

* * *

إننا نستريح من صميم قلوبنا إلى قيام اتحاد بين الصليب والهلال ، بيد أننا نريده تعاوناً بين المؤمنين بعيسى ومحمد لا بين الكافرين بال المسيحية والإسلام جمیعاً .

والذين يخوضون في العلاقات بين عناصر الأمة المصرية - كما يصفونها - صنف من الناس لا نطمئن إلى تقواه ، ولا إلى ابتغائه وجه الله !

ومن فترة طويلة وعصابة «سلامة موسى» تعكر المياه لتصيد فيها وقد استهدفت لإثارة الضغائن بين المسلمين والأقباط .

١ - هدم الإسلام بإعلان حرب متواصلة على شريعته ، ومحاولة إرغام المسلمين على تركها ونسيان أحكامها .

٢ - هدم المسلمين أنفسهم بإغراء القلة القبطية أن تحكمهم و تستأثر دونهم بالنصيب الأكبر من المناصب والوظائف العامة .

وسنسوق في المقالات المقبلة الشواهد على هذه النيات الخبيثة من كلام العصابة التي يتزعمها حضرة سلامة موسى أفندي المسيحى ظاهرًا ، ذو الباطن الذى فضحته الأيام !

* * *

إنها مؤامرة على الأديان كلها وإن كانت في ظاهر الأمر حملة ضد الإسلام وحده ،
ورداً لشعائره وشرائعه ، وغضباً من مكانته وجدواه على الناس والحياة .

وعصابة «سلامة» في كيدها للدين الله تبع المبدأ المشهور في الدعايات المهرجة
الباطلة ، مبدأ «اكذب ثم اكذب فسيقع في أذهان الناس من هذا الكذب المتلاحم
شيء ما » .

وقد دار محور كذبها في الأيام الأخيرة على أن المسلمين أعداء للأقليات التي
تعيش بينهم (!) وأن الكثرة المسلمة في مصر تكن السوء لغيرها (كذا) !!

إن أربعة عشر قرناً مضت على ظهور الإسلام وعلى دخوله هذه البلاد لتحشد
الأحياء والأموات صفوأً صفوأً تصفع هؤلاء الرجال وتترد في حلوقهم . . .

فإن الأقليات الدينية لم تُسم سوء العذاب إلا في «أوروبا» المتعصبة المتوحشة .
لقد عاش اليهود بيننا قرونًا متطاولة مما وقع عليهم ضيم ، ولا غصب منهم درهم ،
ولا استبيحت لهم حرمة !

في الوقت الذي كان اليهود في أوروبا يُذبحون فيه ويُحرقون .

وكانت الحكومات من الروسيا في الشرق إلى إسبانيا في الغرب ينصبون المشانق
والماحرق لتزهق أرواحهم بالآلاف لأنهم «قلة مسكنة» !!

وما كانت حركة «هتلر» الأخيرة في إفناه اليهود إلا صورة لما تواطأ الأوروبيون على
اقترافه من آثار غليظة ضد أعدائهم في الدين !!
ولم تبرأ من هذا الوباء وحده إلا بلاد الإسلام . . .

بل إن المسيحيين في أوروبا قد انقسموا فرقاً تتبع بتعذيب خصومها في الرأى .
والمذاييع البشعة التي لوثت تاريخ أوروبا السياسي لا يمكن نكرانها والواقع التي فتك
فيها الكثرة الكاثوليك بالقلة البروتستانت أو بالعكس مسطورة بالدم في صحائف لا
يحيوها الزمن .

ولم يكن هنا أسعد على وجه الأرض من النصارى الذين يعيشون بين ظهراني
المسلمين .

وإلى اليوم . نستطيع أن نلأ أفواهنا فخرًا بأن سماحتنا وترفتنا فوق الريب التي
يحاول أن يرجف بها أولئك الخراصون من عصابة «سلامة» .

وأننا لن نفقد من أخلاقنا الأصيلة ذرة مهما وجدنا من جحود وكنود !!

نعم مهما وجدنا من جحود وكنود !

فقد أكرمنا آلاف اليهود ، فخانونا ونسوا أننا أمناهم يوم كان العالم أجمع يتقارب إلى الله بقتلهم ، نسوا ذلك كله ، وانضموا إلى الجبهة الاستعمارية في الغرب ضدنا .
وجزونا جزاء سنمار .. !!

وها هي ذى عصابة مأفونة من الملحدين المبغضين لله ورسله كافة يحاولون إثارة فتنة عمياء بترويج أكذوبة فارغة ، لم تعرف فى ماضينا ولم تعرف فى حاضرنا ولن تؤثر علينا فى غدنا .

لا لأننا نهاب أحداً من الناس .. بل لأننا مسلمون .

والإسلام يعلمنا أن ننصف الناس ، ولو من أنفسنا .

والدوانع إلى هذه الأكذوبة أنهم يريدون إقامة حكم لا دينى فى مصر التى يسكنها ٢٢ مليون مسلم .

فإذا قامت جماعة من المسلمين تريد أن ترجع الناس إلى أحكام السماء وتنادى بضرورة احترام القوانين والتقاليد التي شرع الله .. .

صرخت هذه العصابة : أغاثونا ، نحن فى خطر !!

وقد نقل كتاب طائش - نشرته هذه العصابة - كلاماً لإسماعيل صدقى باشا يصور الاتجاه الإلحادي فى حكم هذه البلاد .

قال الباشا - الذى لا دين له - : «يجب أن نباعد بين سياستنا وبين الاتجاه الدينى . لقد بدأت تصطيع بصبغة دينية . وهذه نعمة قديمة انتهت منذ مئات السنين . ولم تعد السياسة العربية ولا الإسلامية تلائم العصر الحاضر ، بل إن سياستنا قامت فى الماضي على غير هذا الأساس .

فمحمد على الكبير - ذلك الرجل البارع - كان يتطلع إلى الغرب وكانت إصلاحاته غربية ، ومن بعده إسماعيل ، وكذلك كان الملك فؤاد .

بل إن سعد زغلول خريج الأزهر لم تكن سياسته عربية ولا إسلامية ، بل كانت مصرية خالصة تتجه نحو «أوروبا» ، فلماذا تتجه اليوم هذا الاتجاه - الإسلامي - وأى مصلحة لنا فيه؟ » .

يقول الدكتور «زغيب» - وهو من أعضاء العصابة - هل بعد هذا كلام واضح صريح من رجل كان فريداً في ذكائه ، وحيداً في تفكيره ، ممتازاً في بعد نظره ورجاحة عقله ..؟

هذا الكلام هو قرة عين سلامة وعصابته .

وكل معول ينقض بنيان الإسلام فهو في نظره مسلك ينطوي على الفهم والخصفة ويدل على التقدم والارتقاء .

فإذا قال أحد : إن لله وحيًا ينبغي أن يطاع ، انبعث صوت هذا الغرّ يطلب النجدة من أوروبا وأمريكا قائلاً : الأقلية في حظر !!!

وقد علمت أن تحدث هذا الشخص عن الأقباط خدعة تستر وراءها أخبيث النوايا نحو التوراة والإنجيل والقرآن .

وفي كتاب آخر نشرته هذه العصابة جاءت هذه العبارة «إننا عانيانا مذبحة فلسطين - ولم نزل - تحت تأثير فكري عنصري ، واستجابة لإثارة طائفية ، ومن العبث أن نخفي ذلك أو نتجاهله ». .

ومعنى هذا الكلام أن فلسطين كان يجب أن تترك لليهود ، وأن الحمية الدينية التي دفعت المسلمين لنجددة إخوانهم هي نزعة طائفية بغيضة يجب البعد عنها ، كما يجب البعد عن كل دوافع المروءة والشرف في إغاثة المظلوم وإعانة الضعيف . . . !!!

هذا هو الهدف الذي يروج له الأوغاد في بلادنا ، والذي يعتبرون الوقوف له تعصباً تستصرخ من أجله أوروبا وأمريكا ! لكي تحميا الأقليات ! .

وقد مضى الكاتب في حقده المشوب على الروح الإسلامية الذي استيقظ فجأة في دماء الشباب المتقطوع لقاتللة اليهود في فلسطين . ولم يجد ما ينتقصه به إلا أن يولول كالمرأة الفزعية فيقول : «قد رأينا كيف كان يوم الصهيونية أغرب علينا ، راحت فلسطين - أى ضاعت ! - ودخلنا الحرب زاعمين أننا سمنعن دولة اليهود فمنعنا دولة العرب ». ثم يوجه الحديث للدعوة المسلمين «أفتريدون يوماً آخر للنصرانية - نعم هم يريدون ؟ ». .

هكذا يتسائل الكاتب القدر ثم يجيب !!

ما هذا اللغو الذى تتصفه العصابة الماجنة ؟

إن المسلمين والمسيحيين هرعوا جميعاً لمقاتلة اليهود المعذبين .

وقتال هؤلاء اليهود لو لم يوجبه داعى الدين لأوجبته مصالح الدنيا .

فما هو الغرض من الكلام عن النصرانية فى هذا المجال ؟ !

الغرض واضح ، إن عصابة سلامة - كما قلت فى صدر هذا الحديث - فى سبيل محاربتها للإسلام تريد أن تستثير الأقباط . وأن توهّمهم بأن كل يقطنة إسلامية تعنى العداون عليهم^(١) !! .

ولا شك أن جمهور الأقباط يعرف أن هذا التوهم لا مكان له ألبته ، وأن الحكم الإسلامى طيلة القرون الأولى كان أنظف كثيراً جداً من أنواع الحكم التى هيمنت على «أوروبا» فى العصور الوسطى وأذاقت شتى الأقليات الغصص والويلات .

ثم إن المتدينين من المسلمين والنصارى لن يقبلوا قيام حكم إلحادى كهذا الذى تدعوا إليه عصابة (سلامة موسى) وتصدر الصحف والرسائل تمهيداً له .

إنها تدعوا علينا إلى إقامة حكم لا دينى فى مصر ، وتطلب من جمهور المسلمين أن يهملوا تعاليم دينهم فى هذا الشأن ، وأن ينزلوا عن حقهم من حيث إنهم كثرة كبرى .
وفى هذا يقول سلامة موسى : «أعتقد أنه يجب فصل الدين عن الدولة ، وأنه ليس من حق المدارس الحكومية أن تعلم ديناً معيناً .

ومهمة المدارس هى إيصال المعارف إلى رءوس التلاميذ ، وليس الدين معارف ! إنما هو تربية العواطف ، وهى تربية يجب أن تترك للأبوين » .

وينكشف الغطاء عن مقاصد هذه العصابة جملة فى محاولتها قطع الأواصر بين مسلمى مصر و المسلمى العالم ومطالبة جمهور المسلمين فى مصر أن يذكروا شيئاً واحداً وينسوا ما عداه . وهو أنهم مصريون فحسب !!

ويعلق عضو من أعضاء هذه العصابة على مولد الحزب الوطنى القديم فيقول : «إنه أول حركة خرجت بالقومية المصرية إلى معناها الواضح المحدود ووضعت أسس القومية المصرية وخلصتها من ميوعة الدولة العلية^(٢) والاندغام فى الكل الإسلامى .

إنها أول ثورة فى الشرق لم تقم على أساس دينى . . . » .

(١) لقد برع سلامة موسى وأتباعه بطرق وأخرى أن يزرعوا جذوراً للفتنة . (٢) يقصد الخلافة العثمانية .

ويقول : « إننا نسجل بكل فخار هذه المادة الرائعة من برنامج الحزب الوطني فقد جاء فيها : الحزب الوطني حزب سياسي لا ديني فإنه مؤلف من رجال مختلفي العقيدة والمذاهب . . . » .

أما أنا مصريون فنحن لا ننكر وطننا ولا نجحد حقه . . .
وأما أن شرط المصرية الصحيحة الانسلاخ من الإسلام والتنكر لفريائه ومعالمه
فهذا ما نستغرب الدعوة إليه !!

لماذا لا يخلص المسلمون في مصر لدينهم . ويبقى الأقباط كذلك مستمسكين
بأناجيلهم وكنائسهم؟!

وقد كانوا كذلك دهراً طويلاً من غير نكير
هل الإلحاد شرط الوطنية؟ ! والكفر بالله دليل المصرية الصحيحة؟ !!
ما هذه السفالة التي تنحدر إليها الأجيال الجديدة؟ !

أى غضاضة - يا قوم - فى أن تكون الوحدة الوطنية بين متدينين لا ملحدين؟!
وبأى وجه صفيق يطلب منا أن نذهل عن إخواننا في العقيدة ونتركهم وشأنهم في دنيا
 مليئة باللصوص والظلمة؟ !

ولماذا نتهم بالتعصب إذا أصغينا لشكايتيهم ، فإذا تحركت عواطفنا لنصرتهم صاحت
هذه العصابة المجنونة - عصابة سلام - (أدركوا . نحن في خطر . الرجعية عادت إلى
مصر) !!

ثم يقال للمسلمين - أجل للمسلمين وحدهم - لا أديان في الوطنية ولا وطنية في
الأديان !!

وفي الوقت الذي تقام فيه الحواجز الكثيفة بين أتباع محمد وبين قرآنهم
وشرعيتهم ، ويفرض عليهم بالعنف أن يهجروا الإسلام ..

في هذا الوقت نفسه يشتد التبشير المسيحي وترصد له الآلوف المؤلفة وتسانده
الدول المحتلة بأساطيلها وجيوشها ، ويقول الدكتور زغيب ميخائيل مفتخرًا بأمريكا :
«والشعب الأمريكي - رغمًا عما يذاع عنه - شعب متدين قبل كل شيء محب
للحرية يكره الاستعباد ويثور للظلم .. إلخ» .

والدكتور زغيب هذا قبطى صعيدي؛ ومع ذلك فهو يعتز بهذه الروح المسيحية الأمريكية وينوه بها.

ثم يوجه الكلام إلى المسلمين في مصر - لكنه يتركوا الإسلام - فيقول: «إننا نريد أن نتشبه بتركيا الناهضة، تركيا التي أوجدها كمال أتاتورك وليس تركيا القديمة، التي عممت الظلم، وأفسدت الأم، وخربت العمران أكثر من أربع مائة سنة». وماذا يطلب الدكتور؟

هو نفس طلب سلامة موسى وسائر أعضاء العصابة الماجنة التي ت يريد القضاء على الدين والمتدينين فيقول: «فصل الدين عن الدولة هو الدعوة العصرية إلى الديمقراطية». ولذلك رأينا هتلر وموسوليني يرددان الدين إلى الدولة ثم رأينا «بيتان» أيام الاحتلال الألماني - لفرنسا - يفعل ذلك.

و ما زلنا نرى الدولتين الفاشيتين - إسبانيا والبرتغال - تجعلان الدين أساساً من أصول العدل...».

وأى عار في ذلك؟! إننا نحن المسلمين في مصر يسرنا جداً أن تكون فرنسا مسيحية لا داعرة، وأن يكون الدين أساس حضارتها، لا الفساد والتحلل، ويهممنا أن يكون الدين كذلك في مصر.

فإذا كانت الكثرة في مصر مسلمة قام الحكم على أساس إسلامي.

وإذا كانت الكثرة في أمريكا مسيحية لا يهودية قام الحكم على أساس مسيحي. وستبقى للأقليات حرمتها الدينية مصونة مرعية.

أما تعليم حكم الإلحاد فلا...

إننا الآن نسمع أقبح الشتائم موجهة إلى الإسلام، ولكننا نكرر غيظنا. وسنمضي في سبيلنا الصحيح لا نلوي على شيء.

وسنرى أن لعصابة سلامة موسى غرضاً آخر من وراء هدم الحكم الإسلامي نعرض له فيما بعد.

* * *

الجبهة الشيوعية تقصى الدين قام الإقصاء عن ميدان الحياة العامة ، والجبهة الاستعمارية ترى ضرورة فصل الدين عن الدولة - إذا كان هذا الدين هو الإسلام - لأن فصله عن الدولة طريق إلى انحلال عراه وانطمس معاله خصوصاً إذا كانت شعوبه عانية في إسار الاحتلال الأجنبي .

أما إذا كان الدين هو اليهودية مثلاً فلا بأس أن تتصل الدولة بالدين وأن تجمع رعاياها على أساسه من أنحاء الأرض^(١) .

خصوصاً إذا كان هذا الحكم اليهودي يغتصب الرقعة التي تعيش عليها من أوطان المسلمين المحتلين !! .

أما إذا كان الدين هو المسيحية فسواء اتصل بالدولة أو انفصل عنها ، فيجب أن يأخذ امتداده الكامل من ناحية الشكل في أوطانه نفسها ومن ناحية الشكل والموضوع حين ينطلق دعاته في بلاد الإسلام يبنون الكنائس ويقيّمون المدارس لخدمة الحضارة الغربية والاستعمار الجشع !

وهكذا نحمل وحدنا الغرم في هذه المسألة ولا كلام ولا ملام .

والعصابة التي تكيد للأديان في مصر يهمها أن تهدم الإسلام قبل كل شيء ، فإذا كان هذا الإسلام لا يوصل إليه إلا بالظهور بهدم المسيحية كذلك ، فلا بأس أن نظهر بهدم الاثنين معًا على طريقة القائل :

**اقتلوني ومالكا
واقتلو مالكى ومالكا**

إلا أن بعض رؤساء الكنيسة قرروا أن يجاروا العصابة الملحدة في أعمالها ضد الإسلام وضرورة فصله عن الدولة رسميًا!

ثم يعملون من جانبهم على أن تكون الدولة عمليًا في أيدي كثرة ساحقة ماحقة من رجال الأقلية الدينية ، يستولون في صمت على الوظائف ، وتصبح أمعاء الدولة في أيديهم من غير ضجة .

وقد مَهَّد الإنكليز - عليهم لعنة الله - لهذه السلطة المتاحة لهم من أول يوم الاحتلال الغادر ، فبدأوا تتنفيذ هذه السياسة الجائرة .

وما هي إلا أعوام حتى كانت نسبة الموظفين الأقباط نحو ٦٠٪ في الأعمال المعتادة ، ونحو ٩٠٪ في المناصب الكبرى وكانت ١٠٠٪ في مهن معينة كالصيغة مثلاً .

(١) من المعلوم أن دولة إسرائيل قامت وفق معتقد ديني لدى اليهود «من النيل إلى الفرات» .

هذه السياسة التي سذكر من كتب العصابة أسانيد صارخة بها ، ونحيبا طويلاً لعدم بقائها ، ليست وقفًا على الروح الإنجليزية في مصر على عهد الاحتلال بل لقد رأيت في فلسطين لما وقعت في براثن هيئة الأمم المتحدة ، وببدأت الهيئة الموقرة تعول أهلها - وقد أصبحوا لاجئين - رأيت جزءاً ضخماً من الميزانية المرصدة للاجئين ينفق على جمهور ضخم من الموظفين الذين روعى في اختيارهم أن يكونوا من العرب المسيحيين .

فإذا وظف مسلم ، ففي عمل تافه ، وعلى شرطية أن يكون متاحلاً لا خلق له ولا إيمان !!

إنها نزعة صليبية واضحة وحقد على الإسلام دفين .
وانتظار مسلك آخر من أوروبا أو أمريكا غير هذا المسلك يعتبر ضرباً من الغفلة .
ولكن العجيب أن تملمنا من هذه السياسة يعتبر تعصباً أثيمًا .
أى أنه يجب أن تُذَبَّح ونحن ساكتون ، حتى يرضي سلامة موسى وأشياوه من رجال الإلحاد أو الراسون بدعوانه علينا من رجال الكهنوت !!
وإذا حدث أن ارتفعت نسبة المسلمين قليلاً دوى الصراخ في الجوع عن سيادة الرجعية وفساد الزمان .

وطلب البحث عن أثر الجامدين المسلمين في هذا الانقلاب !
وهدد القمص سرجيوس بأنه سيهاجر إلى الحبشة !
لماذا بالله ؟ !

أيجب أن تبقى الكثرة ذليلة في كنف السياسة التي رسمها الإنجليز ؟ !
أيجب أن يعيشوا إلى الأبد مغفلين ؟ !!

يقول الدكتور زغيب : «منذ ربع قرن كان نحو النصف من موظفى مصلحة البريد ومصلحة السكة الحديد أقباطاً ، بل أكثر من النصف ، والمهم أن المصلحتين كانتا مضربي المثل في حسن النظام والدقة في العمل والأمانة في الخدمة ؛ طبعاً لأن الكثرة أقباط .. ». .

ثم ماذا؟ نقل عشرات المدرسين إلى مصلحة البريد - كما يقول زغيب - وانخفضت نسبة الموظفين الأقباط عن النصف .

وهنا حدثت الطامة ، يقول الدكتور زغيب : «فماذا صارت إليه الحال بعد هذا التغيير العنصري ؟

أصبحت المصلحتان - البريد والسكة الحديد - مضرب المثل في الفوضى والإهمال وكثرت الشكاوى منهمما .. إلخ » .

والسبب طبعاً أن المسلمين أقل ذكاءً ونشاطاً عن غيرهم ! !

وزغيب لا يخجل من اتهام المسلمين بالغباء والبلادة دائمًا؛ فهو يغضب لأن وزير العدل صرخ «أن بعض الصحف انتقدت الحركة القضائية لأن الأقباط مغبونون فيها - كما يزعم سلامه موسى - وإنى أصرح بأن نصيبهم فيها أحسن حالاً منه في الحركات الماضية وذلك بالنسبة لعددهم » .

فالتفسير الوحيد لهذا التصريح أن النوعية من الأقباط ظلموا وأن الكسالى من المسلمين قدموا .

لأنه ليس في المسلمين عدد من الحقوقين الأكفاء ملء حركة الترقيات .

ولن تكون الحركة معقولة إلا إذا رمى المسلمين في الطريق وشحنت وزارة العدل بغيرهم .

وإذا كانت نسبة الصيارة ١٠٠٪ من الأقباط فأصبح النصف تقريباً من المسلمين . فهذه جريمة نكراء يدل وقوعها على تعصب أعمى من المسلمين !

وكذلك إذا انخفضت نسبة الأقباط في كلية الطب مدرسين وطلاباً إلى ٤٠٪ بعدما كانت ٧٠٪ فالليل للMuslimين ، إنهم انصاعوا الصوت الرجعية البغيض !!

أو كما يقول الدكتور زغيب «ما صيحة المرضى المتألين والاستغاثات اليومية من المحروميين إلا نتيجة هذه السياسة المجرمة في حق الوطن وحق الإنسانية » .

أسمعت هذا الصراخ المفتعل ؟ ! !

أعرفت بواعته ؟ ! !

إما أن يقصى الإسلام عن الدولة قانوناً ، وتتمكن القلة المسيحية حكم الكثرة المسلمة!

وإما أن تسمع أقذع من هذا التحدى وأوقع من هذا الهجوم !

فإذا حاولت الدفاع قيل لك اسكت حتى لا يتهم المسلمون بالتعصب !!
وهكذا «يرضى القتيل وليس يرضى القاتل» !!

* * *

عندما طرق الإسلام أبواب مصر قبله فريق منا - وله الحق في قبوله - ورفضه آخر - وله الحق في رفضه .

ورأى كلاً الفريقين في الآخر من ناحية إصابته للحق وتوفيقه لرضا الله ليست له نتائج عملية عاجلة في هذه الدنيا .
 وإنما نعرف حقيقته في الدار الآخرة .

وقد علمنا القرآن نحن المسلمين أن نقول لخالقينا في الدين ﴿الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجّة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير﴾^(١)

أما من ناحية النظام الحيوي وعلاج المشاكل القريبة فلسنا عشاق خصومة لمن يؤثر احترامنا وترك حرريتنا لنا : ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يُخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسّطوا إليهم إن الله يحب المُقْسِطِين﴾^(٢) .

وقد أجمع فقهاء الإسلام على أن قاعدة المعاملة بين المسلمين ، ومسالمتهم من اليهود والنصارى تقوم على مبدأ «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» .

وإذا كان هذا المبدأ قد طبق أحسن تطبيق في أقطار الإسلام . فهو في مصر قد طبق على نحو ممتاز بالنسبة للأقباط .

وقد رضينا نحن في تطبيقه أن يكون لهم أكثر مما لنا وعليهم أقل مما علينا !
وهذا الرضا عن سماحة مطبوعة لا متكلفة .

فإذا جاء بعض الناس - من لا دين لهم ولا خلق - يحسبنا مغفلين لأننا طيبون !
ويريد أن يجعل الكثرة المسلمة محكومة بقلة ناعمة حاكمة .

فهذا بداعه يجعلنا نترك منزلة الفضل إلى منزل العدل ، ونأخذ حقنا كاملاً ونعطي سوانا حقه فحسب .. !!

(١) الشوري : ١٥ .

خذ هذا المثل لما يحدث في نظام الدولة ، ثم قس عليه وانظر بعدها . هل أخطأ المسلمون أم أخطأ غيرهم ؟

في سنة ١٩٢٤ كان الوفد المصري الممثل الفذ للشعب ؛ وكان بين أعضائه الكبار وموجهي سياساته الوطنية البحتة نفر من إخواننا الأقباط . وتقدم الوفد بقائمة ترشيحاته لمجلس النواب .

وكانت ترشيحات الوفد بمثابة تعيين حاسم . فإذا النتيجة الرائعة للانتخابات العادلة أن أصبح للأقباط ١٥٠ نائباً من عدد أعضاء المجلس وهم ٢١٤ فقط ، أي أن $\frac{3}{4}$ المجلس هم من الأقلية التي تبلغ ٥٪ من تعداد الشعب كله .

وقد ارتاع العقلاة لهذه النية المغشوشة نية هيمنة الصليب على الهلال باسم اتحاد الصليب مع الهلال .

فبدأوا بأدب ورقة يعيدون التوازن .

ولكن هذا المسلك اللطيف لم يعجب طلاب الفتنة وأعداء الحق ، فهاجوا وماجوا . وانطلق أفراد العصابة المشهورة يسبون الإسلام ، ويلعنون مصر ، ويستصرخون العالم . ويقولون في قحة : لقد عادت إلى المسلمين رجعيتهم البالية ! لماذا ؟ لأنهم ينشدون المساواة والعدالة والكرامة !!!

يا قمح سرجيوس : شيئاً من الإنفاق . يا أستاذ سلامة : شيئاً من الأدب .
يادكتور زغيب : شيئاً من الحياة .. أو .. لا .. فاكتشفوا عن المخبوء من أغراضكم
وقولوا في وضوح : إننا نحب أن نبيع هذا الوطن للشيطان ، ولا نسمع فيه آية للقرآن .
وتثنوا إن شئتم بقول شاعر الجاهلية ، وهو تصوير حق لمعاملتكم لنا :
بغاة ظالمين وما ظلمانا ولكننا سنبدأ ظالمينا !!

وأدھشنى ما يزعمه الأفاکون من أن فى مصر حجرًا على بناء الكنائس .
والغريب أن الدكتور زغيب الذى يستغىث من هذا الحجر رجل من بلدة أبي قرقاص .
وقد كان من المصادرات الحسنة أنى عملت فى مركز أبي قرقاص هذا واعظًا نحو
العام .

وإنى لأستغرب كيف يقول هذا الكلام مع أن أبا قرقاص تضم ٧٠٪ من سكانها

مسلمين و ٣٠٪ أقباطاً . ومع ذلك فيها مسجدان فقط وخمس كنائس ! وبها كذلك إرسالية تبشيرية من فرنسا .

فهل هذه النسبة الصارخة دليل الحجر على إنشاء الكنائس أم دليل السرف في إقامتها؟!

إنها ضجة مفتعلة لغرض خسيس . وإنى أترك الأمر لضمائر المتصفين من الأقباط كى يفحصوا بألسنتهم عن قيمة هذا الإسفاف الذى يؤذى مشاعر كل مؤمن مستقيم ، ويسرنى أن أنقل كلمة تنطوى على استهجان لهذا المسلك النابى من مواطن مسيحي كريم رداً على هذا الافتراء الأثيم .

قال الدكتور حنا حنا :

نشرتلى مجلة الوطنية منذ أيام بعيد مقالاً أثبت فيه بالدليل القاطع المحسوس أن الأقباط أسعد أقلية في العالم ، ولا عبرة بما يهاتر به المهاتون من أن الأقباط هم أصحاب البلاد الأصليون منذ ألف وخمسمائة سنة ! فقد كان الزوج أصحاب البلاد في أمريكا . والسنة القبطية التي أطلق عليها اسم «سنة الشهداء» دليل قاطع على أن الأقباط حينما كانوا أصحاب البلاد كانوا يعذبون ، بل يذبحون ذبح الشاة . وليراجع التاريخ من يشاء .

وكان من فضل الله عليهم ونعمته أن فتح العرب بلادهم فأحسنوا معاملتهم وأكرموهم ، بل أغدقوا النعم على الخلصين منهم ، ووهبوا المجتهدين المال والعقار ، حتى أصبح الكثير منهم أصحاب إقطاعيات في طول البلاد وعرضها .

وما زال القبط لآخر أكثر ثروة وغنی نسبياً من مواطنיהם . وهذا أيضاً دليل قاطع على تسامح الأغلبية وكرمها ، فالشعب المظلوم - كما نشاهد وكما يقره التاريخ - لا يتمكن من الثراء وجمع المال .

إن ما يشتكي الأقباط منه في هذه الآونة ، وما يرددده هذا الشاب ^(١) في صحيفته صباح مساء ، حتى جعل أشد الأقباط قومية وحماسة يملؤن قراءة ما يكتب ! والله يعلم أنه لا يقصد سوى أن يصبح بطلاً ! ، وما هكذا يصبح الرجال أبطالاً . أقول : إن ما يشكو منه الأقباط يتلخص في :

(١) عضو في عصابة سلامـة موسـى المعروفة .

- ١ - عدم المساواة في الوظائف .
- ٢- الشروط المقيدة لبناء الكنائس .
- ٣ - التعليم الديني في مدارس الحكومة .

وبعد أن أبان الدكتور المنصف عن فراغ هذه الدعاوى - وقد رأى القارئ أنها باطلة كل البطلان ، بل رأى أن المسلمين هم الأحق بالشكوى من الحيف الواقع بهم - وأبان وجه الحق في الموضوع بطريقته قال لهذا المتهم على المسلمين بالكذب :

أيها الشاب . . . إن البطولة التي تطمح إليها لا تأتى عن هذا الطريق الوعر . وال المسيحية التي تتظاهر بخدمتها لا تصرح لك بالشتم والسب والهجوم على الضيوف الكرماء وفي قلب الكنيسة . وفي يوم عيد السلام والمحبة والإخاء .

أما أن يطلق لقلمك العنوان ، لتقديرك النيابة للمحاكمة فتسجن شهراً أو بعض الشهر ثم تخرج من السجن بطلاً ، فهذا نسيج من الخيال ، وحلم من الأحلام لن يتحقق .

ولن تكون بطلا

المرأة والمجتمع

خِيرُ نِسَاءٍ رَكِبَتِ الْأَبْلَلِ صَالِحُ نِسَاءٍ قَرِيبِشْ...
أَحْنَاهُ عَلَى طَفْلٍ فِي صَغْرِهِ...
وَأَرْعَاهُ عَلَى زَوْجٍ فِي ذَاتِ يَدِهِ...
»

«حدیث شریف»

* * *

«لَعْنَ اللَّهِ الْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ، وَالْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ».»

«حدیث شریف»

المرأة والمجتمع

دفاع :

كتب الأستاذ خالد عن المرأة مقالاً حار الأسلوب ، شديد الحماسة ، ردد فيه الآمال التي تجيش بتصور طائفة من السيدات اللاتى يقدىن الحركة النسوية عندنا . وأعلن بقوه :

- ١ - أنه مغبطة لحصول الفتاة على حقوقها الثقافية كاملة وتمكنها من دخول الجامعات العليا ، وانتظامها مع الفتيان فى سلك دراسة واحدة .
- ٢ - أنه يتطلب لها المزيد من العلم ، ويشجع إرسال بعثات إلى الخارج من النساء يتلقين ما يعز مناله فى مصر من المعارف والفنون .
- ٣ - أنه يستنكر حرمان المرأة من حقوقها السياسية ، ويرى ضرورة السماح لها بأن تكون عضواً في البرلمان نائبة أو شيخة وقاضية في المحاكم وزيرة ووزيرة وجندية وضابطة .

هذه خلاصة الفصل الذى كتبه الأستاذ . وقبل أن نبسط وجهة نظر الدين فيه ، نحب أن نقول : إن المؤلف حشا كلامه بعبارات نابية لم يكن هناك ما يدعو إليها . فهو يقول لما أسماه الطابور الرجعى «إذا لا تقولوا : إذا كانت أمروركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها» .

فهذه الجملة التى ينهى الأستاذ خالد عن النطق بها جزء من حديث معروف للنبي صلى الله عليه وسلم : «إذا كانت أمرأوكم خياركم ، وأغنياؤكم سمحاءكم ، وأموركم شورى بينكم ، فظهر الأرض خير لكم من بطنها . وإذا كانت أمرأوكم شراركم ، وأغنياؤكم بخلاءكم ، وأموركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها»^(١) .

والحديث يشير إلى النظام الاستبدادى الذى تطغى فيه شخصية الفرد على شخصية الأمة - وهو ما يقابل نظام الشورى - كثيراً ما تلعب النساء دوراً خفياً فى إدارة أمرهم مما يجعل مصلحة الجماهير موضع عبث وطيش كما هو مشاهد .

(١) عن أبي هريرة في الترمذى . وتحت رقم ٦٤٦ في ضعيف الجامع .

ونحن - وإن كنا من أنصار دعم المجتمع بالمرأة المثقفة - لا نرى أن تكون مقاليد الحكم بيدها .. فهذا خروج بالأشياء عن طبيعتها .

والدول التي أعلنت المساواة التامة بين الرجل والمرأة في كل شيء ، لم يصل شأن المرأة فيها إلى هذا الحد .

ونظرة إلى حكام روسيا - وهي التي تدين بهذا الاتجاه - تبرز هذه الحقيقة ، فلن توجد «ستالين» كستالين ، ولا «مولوتوف» كمولوتوف ولا .. ولا ..

ولا يزال الرجال - ولن يزالوا - حمالى الأعباء الثقال ، وموجهم التاريخ وحدهم إلى مستقبله المرسوم .

وانظر إلى مجلس الأمن وهيئة الأمم وعشرات الحكومات ومئات الوزراء وألاف المديرين وجمماهير العلماء والأدباء والمخترعين ، إن مجال المرأة ضيق جداً في هذا الميدان .

وقد يكون واسعاً جداً في الصف الذي يليه مباشرة ، وليس هذا مما يعيب المرأة ويخدش مكانتها .

غير أن صاحب «من هنا بدأ» اندفع في حماسته يقول عن المرأة : «إن أفق الكثرة الغالبة منا نحن الرجال أضيق من أن يتسع لقضيتها» . ويقول عن معارضيها : «إن أسئلتهم تدل على أن أصحابها من السذاجة بحيث لا ينبغي أن تكون معارضتهم واستنكارهم عائقين عن تحقيق هذا الهدف المفعم بالاحتمالات الحسنة» أى جعلها نائبة وزيرة .

ومن المساواة عنده بين الرجل والمرأة أن يكون للمرأة حق ضرب الزوج وتأدبه ، كما أن له حق ضرب الزوجة وتأدبيها !!

وبعد أن وصف خصوصاته بالرجعية والجمود قال : «إن المرأة لم تباشر عملاً إلا أتت فيه بما يشبه المعجزات ، وكفاحهن أيام الأوبية لا يزال يتألق أمام أعيننا» ! وهذه المبالغات من الكاتب تجعل الكلام لغوياً .

أى معجزات ؟ لو دُرِّدت أن يكون كلامك حقاً ! وإذاً لولينا النساء أمورنا واسترحنا . ويحتاج صاحبنا خالد على عدم إرسال الفتيات في بعثات تعليمية إلى الخارج

ويقول : «قام وزير خطير ففك وقرر ثم نظر ثم عبس وبسر، ثم أصدر أمره بحرمان الفتاة المصرية من السفر في بعثات علمية للخارج؛ مع أن هناك من المعارف ما لا يمكن الظفر به في بلادنا وجامعاتنا؛ ومع أننا لا نملك منع الفتاة من الطموح العلمي إلا إذا جاز لنا حرمان الفتى من هذا الطموح» .

ومسألة سفر المرأة - وحدها - إلى الخارج لها في الإسلام حكم يعرفه علماء المسلمين جميعاً فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تসافر مسيرة يوم وليلة إلا ومعها محروم لها»^(١) .

وقال كذلك «لا يخلون رجل بأمرأة إلا ومعها ذو محروم! فقال رجل : إن امرأتي خرجت حاجةً ، وإنى اكتتبت في غزوة كذا وكذا؟ قال : فانطلق فحج مع امرأتك»^(٢) .

وهذا الحكم واجب التطبيق إلى قيام الساعة^(٣) ، فكيف ساغ لخالد وهو من علماء الأزهر أن يتتجاهله ، وأن يطلب تسفير المرأة وحدها إلى «أوروبا» أو «أمريكا» حيث يعتبر العرض أرخص مما يملك المرأة من متاع؟

والمعروف أن عضوة في بعثة بالخارج تزوجت رجلاً أجنبياً! ، وأن نسبة كثيرات من بيوت كبيرة لما خلا لهن الجو كان نبذ الدين - وراء رجل معجب - أيسر شيء عليهم! وكم من فضائح حملها هذا الدين المظلوم من المنتسبين والمنتسبات إليه ، منشؤها التمرد على أدابه .

ويقول الشيخ : نريد أن تكون عندنا «مدام كوري» أخرى .

ونقول : وهل هذه هي الطريقة الفذة للحصول على مثل هذه المدام؟ !
لقد كان مدام كوري «مسيي كوري» وكان تعاون الزوجين على خدمة العلم معروفاً مشروعاً .
أما ما تقتربه أنت للمرأة فطريق معوج لم تستفد منه لا علمًا ولا فضيلة ! إنما كسبنا منه الجهل والارتداد .

(١) صحيح عن أبي هريرة في مسند الإمام أحمد وصحيح مسلم وسنن أبي داود وابن ماجه وتحت رقم ٧٦٥٢ في صحيح الجامع .

(٢) فتح الباري ج ٦ ب ١٤٠ ص ١٤٢ .

(٣) للشيخ الغزالى رأى بجواز سفر المرأة في بعض الحالات من باب التيسير في ضرورات .. إن أمنت الفتنة والطريق .. لكن هناك فارقاً بين هذا الرأى الفقهي ، وبين ما ردده الشيخ خالد من آراء علمانية جريئة .

النهضة النسائية بين تقاليد الشرق والغرب

ربما يتواهم البعض من هذا النقاش أننا أعداء المرأة ، نريد شل نشاطها وتعطيل مواهبها وقتل إنسانيتها .

والواقع أننا نعرف أكثر من غيرنا الوظيفة التي تقوم المرأة بها في المجتمع ، وحاجة هذه الوظيفة إلى قسط كبير جداً من الإعداد والعناية .

ونعلم أن المرأة إحدى جناحي المجتمع يستحيل أن يسمو إذا بُترَتْ أو شُلتْ .

بيد أننا ننظر فنجد الكلام في قضية المرأة يتذبذب كبندول الساعة إلى أقصى اليمين وإلى أقصى اليسار ، ولا يستقر مطلقاً عند الحد الوسط الذي يطلبه الإسلام .

قوم يجنحون بالمرأة إلى تقاليد الشرق ، وقوم يجنحون بها إلى تقاليد الغرب .. هنا الانحسار والضيق !! وهناك الانطلاق والرورق !!

وقد يذهب هؤلاء وأولئك إلى الإسلام يتصدرون منه الشواهد لأهوائهم ، والإسلام بعيد عن إرضاء أيهم جاء إليه .

فإن تعاليم الوحي شيء وتقاليد أوروبا أو إفريقيا شيء آخر ...

وتقاليد الشرقية التي يحرض بعض الناس على إحيائها تعتمد على :

١ - انتهاك مكانة الأنثى - لصفتها الجسدية - فالرجل مطلقاً أفضل من المرأة .
٢ - حصر وظيفة المرأة في المتعة المادية والاستيلاد الحيواني ، وإبعادها عاطفياً وعقلياً عن كل ما يجاوز حدود هذه الوظيفة التافهة !!

٣ - النظر إلى المكانة الشخصية ، والقيمة الأخلاقية من خلال عرض المرأة وحدها ، فقد يعلم أن ابنه زنى فيتركه بلا ذكر !!

فإذا علم أن بنته زنت قتلها في الحال !!

وقد يضحك لفساد ابنه ، ولكن يسُود وجهه لفساد بنته !

هذه التقاليد القائمة على ظلم المرأة تنشأ عنها تقاليد ثانوية أخرى تخضع لها المرأة من المهد إلى اللحد ، وتصيبها بهزال شديد في جسمها وعقلها ودنياها ودينيها ...

ولا يزال كثيرون من الناس يستمدون بها ، بل الداهية أن عوام المسلمين وطائفة من المتدلين الجهلة تحسب هذه التقاليد الضالة هي تعاليم الإسلام ! وأغلب ظني أن الجمعيات النسائية التي تنفر من الإسلام إنما تنفر منه لأنه في نظرها الخطأ لتلك التقاليد القاتلة .

ومن ثم ارتمت في أحضان الغرب تنشد عنده الحياة والأمل ! وتقاليد الغرب الحديثة تعتمد على :

١ - التسوية المطلقة بين الرجل والمرأة في المكانة المادية والأدبية .

٢ - إقامة المجتمع على الاختلاط التام وترك المرأة تتقلب فيه كما تشاء !

٣ - النظر إلى الناحية الجنسية على ضوء الاستقلال الشخصي والتصرف الطبيعي !

ولهذه التقاليد الغربية عشاق يدعون إليها ، وقد بدأ مجتمعنا ينساق نحوها ، أو قل ينحدر إليها ، بل إن الأستاذ خالدًا نفسه يريد أن يلهب النهضة النسائية حتى تسامي زميلتها في الغرب وتستوى معها على الركب .

وغلبة التقاليد الغربية على بلادنا ترجع إلى :

١ - فساد التقاليد الشرقية السائدة .

٢ - سطوة الاستعمار الغربي المسلح بالعلم والقوة والتقدم .

٣ - اكتفاء علماء الأزهر وأعضاء الجماعات الإسلامية بالاستنكار السلبي والصياغ المجرد ضد الفساد والعرى والتحلل ، وعدم القيام بأى عمل إيجابى لحل مشكلة المرأة على أساس إسلامى صحيح .

وأشدتهم حماساً يكتب مقالاً أو يلقى خطبة ثم يذهب إلى بيته فتستقبله فيه تقاليد الغرب المنتصرة وكأنها تخرج لسانها لوقاره المكذوب !

لم يَبْيَنْ أحدُهم معهداً نوذجياً لتعليم المرأة . ولم يصنع «فستانًا» محتشماً . ولم يتقدم بشيء يشغل به وقت المرأة في جدها أو لدهوها ، ولم نر أحدُهم يرسم للمرأة المسلمة برنامجاً خاصاً تخدم به بيتها ووطنه !!

إنه صياغ الاحتجاج فقط !

وقد يبلغ الأمر بضرر الغرائز المهاجمة وعباد التقاليد الجائرة أن يقولوا لك : احبس المرأة في البيت ثم انقض يدك منها .

ولو كانت عواقب هذا السفه تلزم أصحابها فحسب لتركناهم وسفههم .

أما وهم يصيرون باسم الإسلام فلا بد من بيان الحقيقة وإنصاف الإسلام من تقاليد الشرق والغرب على سواء .

* * *

إن قضية المرأة ليست قضية جنس يسكن المريخ ! إنها قضية أمهاتنا وأخواتنا وبناتنا ، فنحن مدفوعون إلى بحثها وفي جوانحها عواطف التوقير والحب والحنان .

وهي قضية نصف الأمة ، النصف الذي لو حكم بإعدامه مادياً وأدبياً مات النصف الآخر حتماً ، فنحن نحفظ ديننا ودنيانا كليهما عندما نحفظ على المرأة وضعها الصحيح في المجتمع .

وهي قضية الإسلام الذي كذبوا عليه يوم أوهموا الناس أنه يحقق إنسانية المرأة ويخدش اعتبارها ! ، وينع تعليمها ، ويعدها للفراش فقط !

ليس صحيحاً أن الإسلام يعد المرأة «لأنها أنشى» دون الرجل «لأنه ذكر» فَرُبْ امرأة أفضل من رجل ، لأنها أرقى منه عقلاً وأسمى خلقاً وأنقى ضميراً .

ما قيمة اللحى والشوارب في وزن النفوس وعظمتها !!

إن مريم ابنة عمران ، وعائشة بنت أبي بكر أفضل من رجال كثيرين !

إن الله سبحانه سُوئَ بين الرجال والنساء في ميادين التقوى والاستقامة : ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيقُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾^(١).

نعم .. بعضكم من بعض ، إن الرجل ينسى البنين والبنات فتتوزع صفاتيه الجسدية ، وميزاته الأدبية على أولاده كلهم ، لا يضع أدناها في جنس وأعلاها في جنس ، ثم ينطلقون جميعاً في رحاب الحياة ، يبتلون بتکاليف المعاش والمزاد ، فيكون أولاهم بالله أتقاهم له ، ذكراً كان أو أنثى ، وهو الأفضل في نفسه وعند ربه .

ولا يغض من هذا الفضل أن الله جعل للأسرة نظاماً خاصاً ، واعتبر الرجل سيد البيت ، فإن الترتيب الحيوي له شأن آخر ، والرجل في الأسرة يحمل الجانب الأشق من أعバئها ، ولا بد في كل شركة من رئيس مسئول له فضل توجيه وتنفيذ ، حتى لو كانت الشركة بين رجلين ، فإنها تفشل إذا لم يتقرر القيادة لأحدهما من أول الأمر .

(١) آل عمران : ١٩٥ .

ولهذه الاعتبارات وغيرها يعتبر الرجل قواماً على المرأة مع تساويهما ابتداء في الحقوق والواجبات .

وذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾^(١) هذه الدرجة ترتيب مادى بحث فى الدنيا ، وإلا فنوح عليه السلام أفضل من امرأته وامرأة فرعون أفضل منه .

إن قيادة الأسرة شيء - والرجل صاحبها ، وله فى هذا الميدان أفضليته - أما حقيقة الفضل النساني والامتياز عند الله فمردهما إلى حسن الإيمان والعمل .

ولا يُعرف أى الزوجين أرفع درجة وأعلى مكاناً !

فما يتوهّمه البعض من هوان منزلة المرأة - لا شيء إلا لأنها امرأة - سخف لا يقره الإسلام فقط .

ومن المقرر أن هناك اختلافاً بين التكوين البدني والعقلى للرجل والمرأة .

فالرجل تغلب عليه قوة التفكير وشدة المراس وثبات العزمية .

أما المرأة فتغلب عليها سعة العاطفة ، ويقطّة المشاعر الوجدانية والانفعالات القلبية ..

والرجل أصلب من المرأة عوداً وأقوى بنية .

بل ولقد لوحظ أن أجسام الرجال أدنى إلى الجمال وأقرب إلى الاكتمال من أجسام النساء ! وليس ذلك فقط بالنسبة إلى الذكور والإإناث في النوع الإنساني ، بل ذلك مطرد في شتى أنواع الحيوان .

فالأسد أقوى وأجمل من اللبؤة ، والديك أملح من الدجاجة ، والكبش أنضر من النعجة ، والحمار أفرس من الأننان ... إلخ .

وهذا التمييز مقصود في سن التكوين حتى لا تشعر الأنثى بغضاضة من الاختلاف مع قرين يفوقها في ناحية ما .

مع أن هذا الاختلاف ضرورة لبقاء الحياة .

ونسارع إلى استدراك لا بد منه .. فليست كل امرأة من ناحية هذا التكوين الطبيعي أدنى من كل رجل ...

فقد تكون المرأة في مستوى عقلي ، أو في طاقة بدنية أعلى من رجال كثيرين . وأقل من رجال كثيرين كذلك .

(١) البقرة : ٢٢٨ .

وأنشى الأسد أرفع درجة من ذكران الخيل والبغال والحمير !!

والبشر في موهبهم فصائل وسلالات تتسع الفروق بين أفرادها مراحل شاسعة ، ولكن الأنثى التي تعلو على طائف من الرجال في ذكائهما أو قوتها «يغلب» أن تكون في هذه النواحي أدنى من آبائهما أو إخواتهما أو أبنائهما ، فتسري عليها القاعدة التي تجعل الذكورة متميزة على الأنوثة جثمانياً ونفسانياً .

أما ما ورد في السنة من أن النساء ناقصات عقل ودين فقد فسرته السنة نفسها بما لا يُعد تحييراً للمرأة أو إسقاطاً لمنزلتها ، فإن المرأة تسقط عنها الصلاة أيامًا في كل شهر ، ولا تصوم هذه الأيام نفسها من رمضان - إذا غشيها الحيض - فهذا النقصان في عبادتها الذي لا يعتري الرجال هو المقصود بنقص الدين .

كذلك تعدل شهادة المرأتين شهادة الرجل الفذ لأن النسيان أسرع إليها منه ، فجانبها العاطفي يستبد بها أكثر مما يؤثر في الرجال .

ونسيان المرأة الكثير سبب مشاكل متعددة في حياة الأسرة ، فهي إذا أصابتها من زوجها إساءة نسيت حسناته الماضية جملة وحددت ما كان !!

فكان من حق الشرع أن يحتاط في الشهادة باشترين ﴿أَنْ تَضْلِلَ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾^(١) .

وذاك ما عبر بنقصان العقل !!

لقد أخذت المرأة في هذه الأعصار حريات بعيدة المدى ووجدت من يقول لها : أنت أذكي من الرجل وأقوى إن لم تكوني مثله ذكاء وقوة !! .

بيد أن الواقع معنا فيما ذكرنا من أحكام . ولا حيلة في تغيير الواقع . على أن الإسلام ينظر إلى المرأة .. فإن كانت أمّا فالجنة تحت قدميها .. وإن كانت طفلة فتربيتها وقاية من النار !

وإن كانت زوجة فكرامة الرجل وخيره في رعايتها ومحبتها .

فهل في وصايا الإسلام التي وكتبت هذه المعاني ما يعتبر خدشاً لمكانة المرأة في المجتمع ؟ ! كلا ، فلا ينبغي أن تتطاول فوقها ، ولا أن تنزل دونها .

* * *

(١) البقرة : ٢٨٢ .

وظيفة المرأة الاجتماعية

أحب أن أرجع مؤقتاً الخوض في هذا الكلام المملول عن الحجاب والاختلاط وما إليهما ، ولألفت النظر إلى أركان الدين نفسها ، فإن النساء مكلفات بها كالرجال .

وما من شيء - يقوم به الإسلام وتعتز به أمته - كُلِّفَ به مسلم إلا كُلِّفتْ المسلمة بمثله ، غير أمور محصورات استثنىَتْ النساء منها ، ولا تهدم أصل المساواة في التكاليف الشرعية أبداً .

لكن تقاليد الشرق التي حصرت وظيفة المرأة في المتع الحيواني قلما تهتم بهذه التكاليف .

فحبس المرأة في البيت لا ترى أحداً ولا يراها أحد فريضة !! أما الصلاة مثلاً فلا بأس من تركها !!

وتسعون في المائة من النساء المحجبات لا يقمن الصلاة ! ، وغير الصلاة من تعليم الإسلام الأخرى لا يعرف اسمه فضلاً عن مفهومه ومدلوله !

فلما خرجت المرأة من البيت قسراً تكافف أهل الدين على إدخالها فيه ل تستأنف حياتها الأولى نفسها .

فلما فشلوا تعالى صراغهم بلعنتها ولعنة من أخرجها !!

والحقيقة أن دعاء السفور يقودونها إلى جاهلية حديثة . ودعاة الحجاب يردونها إلى جاهلية قدية^(١) .

والنزاع بين فريقين أحدهما جاهل بالإسلام والأخر جاحد له !

وانتصار أحدهما لا يفيد الإسلام بل يضيره ..

(١) سوء عرضهم للإسلام .

تحسسو بالإيمان أولاً

عندما تزوجت فتيات - مسلمات بالوراثة - فتياناً أقباطاً ، أو أمريكاناً مسيحيين حدثت ضجة كبيرة لهذا التصرف الشاذ .

واعتبرناه نحن المؤمنين خروجاً على الإسلام وارتداداً عن الله .

ووصلت صيحات المستنكرات إلى آذان أولئك النسوة غريبة نابية ، أجل غريبة نابية لأنهن للأسف كن منطقيات مع أنفسهن .

فهن لا يعرفن عن الإسلام شيئاً ، وليس في قلوبهن إيمان به ، أو إجلال له ، وبنت هذا شأنها مع الدين لا تبالى من تختار بعلا^(١) . فإذا حدث أن اختارت مسلماً فمحض المصادفة !! .

أما أمر الدين فليس يعنيها أولاً .. ولا آخرًا .

ما أشبه دين أولئك النسوة ، بما أسماه «ابن عربى» دين الحب وقال في وصفه .

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى !

فقد صار قلبي قابلاً كل صورة !! فمرعلى لغزلان ودير لرهبان

وبيت لأوثان ، وكمبة طائف وألواح توراة ، ومصحف قرآن !!

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه ، فالحب ديني وإيمانى !

والمؤسف أن هذا الدين الجديد الذى زينه الشيعة «الابن عربى» لم يصبح دين أولئك النساء فقط ، بل دين كثير من القادة والزعماء . على اختلاف الدوافع والمأرب .

وهذه الحال لا تعالج إلا بإعادة الإيمان أولاً إلى تلك القلوب الخربة .

فيما منْ يعنيهم أمر النساء ! املأوا أفئدتهن بالعقيدة الصحيحة ، ثم اعرضوا بعد ذلك ما طلبون .

وتجد الرجل الغيور (!) يلفتك إلى امرأة دهنت خدوتها بالأصباغ ومشت فى الطريق خليعة متبرجة .

(١) زوجاً .

أنا شخصياً من يتقررون من هذه المناظر ، ويحيل إلى أن صاحبته مومياء مطلية بأصباغ الموت ، وأن أظافرها الحمرة بالدهان القاني إن هي إلا مخالب حيوان شرس .

ولكن الذي أدركه من أمر هذه المرأة أنكى من ذلك ..

إن الإسلام يكلفها بالصلاوة من غبش الفجر إلى العتمة ..

ومعنى ذلك في حياة المرأة المسلمة أن تغسل وجهها ويديها الصباح والظهيرة والأصيل بضع عشرة مرة كل يوم !

أتري امرأة - هذا برنامج الإسلام الذي رسمه لها - ترك التدلّك بالظهور من ماء السماء ، إلى شيء آخر ؟ !

ولكن المغفلين من المسلمين ينقلون المعركة من هذا المجال الأساسي إلى مجال آخر هو : هل يجوز للمرأة التزيين أو لا؟!

* * *

المرأة والمسجد

إن الإسلام وصل ما بين حياة المرأة وحق المسجد بأواصر متينة .

وهذا الحكم من أحكام الإسلام يضيق به أصحاب الأمزجة المتشائمة والغيرة المفتعلة . حدث هذا قدِّيماً ويحدث اليوم .

حدَّثَ الرواية عن عبد الله بن عمر أنه قال : قال رسول الله ﷺ : إذا استأذنت أحدكم امرأته إلى المسجد فلا يمنعها .

فقال بلال (وهو ابن عبد الله) والله لنمنعهن ..

فأقبل عليه أبوه عبد الله فسبه سبًا ما سمعت مثله قط ! وقال : أخبرك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول : والله لنمنعهن «^(١)» .

وقيل إن عبد الله هجر ابنته هذا إلى الممات غضبًا منه أن رد حكمًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم !

وكان النساء قدِّيماً يشاركن الرجال في أبواب المساجد حتى أبدى الرسول صلى الله عليه وسلم رغبته في تخصيص باب لدخولهن .

فعن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو تركنا هذا الباب للنساء . قال نافع : فلم يدخل منه ابن عمر حتى مات »^(٢) .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يسوى الصفوف في المسجد ويرغب الرجال في الصفوف المقدمة والنساء في الصفوف المؤخرة ، ويزجر أن يتأخر الرجل وتتقدم المرأة ، فيكون من تقاربهما في المكان ما يعكر صفاء العبادة ..

« خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها »^(٣) .

(١) فتح الباري ج ٩ ب ١١٦ ص ٣٣٧ .

(٢) صحيح أخرجه أبو داود تحت رقم ٥٢٥٨ في صحيح الجامع عن ابن عمر .

(٣) صحيح أخرجه مسلم وأبو يعلى عن أبي أمامة ، وابن عباس في الطبراني في الكبير تحت رقم ٣٣١٠ في صحيح الجامع .

وكان النساء يخرجن قبل غيرهن من المسجد حتى لا يزحمهن في الطريق أحد ،
وكن مأمورات في أثناء الصلاة بتأخير الاقتداء قليلاً عن الرجال .

فعن أسماء بنت أبي بكر : قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للنساء :
« من كانت منكن تؤمن بالله واليوم الآخر فلا ترفع رأسها حتى يرفع الرجال
رؤوسهم » - كراهة أن يرین عورات الرجال - .

هذا ولما كان الإسلام يرى أن عمل المرأة في بيتها كبير المؤونة وطبيعة حياتها ورسالتها
وارتباطها بأولادها ، وما قد ينشأ عن تكرار خروجها للصلوات خمس مرات في اليوم ،
كل ذلك قدره الإسلام ، فلم يؤكد سنة الجماعة في حقها كالرجال ، بل جعل صلاتها
في بيتها أفضل لها مع الاحتفاظ بحقها في التردد كلما شاءت ذلك بين الحين والحين .
وكانت النساء على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلين الجمعة ويسمعن
خطبتهما .

فعن أم هشام بنت حارثة قالت : « ما أخذت (ق . القرآن المجيد) - أى ما حفظت
السورة - إلا من لسان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ بها على المنبر في كل جمعة .
وذلك لكثرة ترددتها على المسجد في صلاة الجمعة .

وفي صلاة العيددين كان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر بحضور النساء مع جماعة
المسلمين ليشتركن في الصلاة وسماع الخطبة .

فعن أم عطية : أمرنا بأن نخرج العوائق ذوات الخدور .
فإإن كانت المرأة معدورة - حائضًا - اعتزلت المصلى وسمعت الخطبة .
وقد حدث أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد الصلاة والخطبة ذهب إلى صفوف
النساء فوعظهن وذكرهن بالله وأمرهن بالصدقة ، وكان بلال يجمع ما يتبرعن به .
قال عطاء بْنُ جَابِرَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - راوى هذا العمل عن النبي صلى الله عليه وسلم -
أترى حَقًا عَلَى الْإِمَامِ ذَلِكَ؟ قَالَ : إِنَّهُ لِحَقٌّ عَلَيْهِمْ وَمَا لَهُمْ لَا يَفْعَلُونَ !

بل لقد أمر النبي أن تستعير المرأة ثوباً تخرج به - إذا لم تكن تملك ثوباً - حتى لا
تنقطع صلة المرأة بالمجتمع المسلم في أحفل أيامه ، وفي مجمع من أجل مجتمعه .

وقد عنون البخاري لهذا الموضوع بقوله : إذا لم يكن لها جلبب في العيد .

عن حفصة بنت سيرين : كنا نمنع جوارينا أن يخرجن يوم العيد فجاءت امرأة فنزلت قصر بنى خلف فأتيتها فحدثتني أن زوج اختها غزا مع النبي أشتبى عشرة غزوة فكانت اختها معه في ست غزوات !

قالت : فكنا نقوم على المرضى ونداوي الجرحى . فقالت : يا رسول الله . هل على إحدانا من بأس إذا لم يكن لها جلبب ألا تخرج - إلى العيد فقال : «لتلبسها صاحبتها من جلبابها فليشهدن الخير ودعوة المؤمنين» .

قالت حفصة : فلما قدمت أم عطية أتيتها فسألتها . قلت : أسمعت في كذا وكذا ؟ قالت : نعم بأبي ؟ قال النبي : ليخرج العواتق وذوات الخدور وليعزل الحُيُّض المصلى وليشهدن الخير ودعوة المؤمنين^(١) .

ولما كان التكبير من شعائر العيد فقد كانت أصوات الرجال ترتفع بالتکبير ، ثم يجاوبها تکبير السيدات وظل الأمر كذلك حتى خلافة عمر بن عبد العزيز .

ولا شك أن خروج النساء كان يحرج بعض ذوى الغيرة ، وقد حاول عمر بن الخطاب الاعتراض عليه فلمح سودة أم المؤمنين سائرة فصاح بها : قد عرفناك يا سودة . فشككت ذلك سودة إلى رسول الله : فقال الرسول : «إن الله قد أذن لكن أن تخرجن في حوائجكن»^(٢) .

أما ما روى عن عائشة : «لو علم النبي ما أحدث النساء بعده لما أذن لهن في الخروج » فهذا كلام لا يلتفت إليه .

والسيدة عائشة على جملة قدرها ليست مصدر التشريع في الإسلام فمفرد ذلك إلى الله ورسوله .

والمعروف أن للسيدة عائشة اتجهادات سياسية وأراء علمية لم يوافقها عليها جمهور الأمة .

ثم إن الله عز وجل لما شرع لعباده كان أعرف بأعمالهم وأحوالهم في كل زمان ومكان . فلا يترك حكمه لقول بشر مهما كان .

(١) فتح الباري ج ٢ ب ٢٠ ص ٤٦٩ .

(٢) فتح الباري ج ١١ باب ١٠ ص ٢٢ .

بحث فقهي

جائني هذا السؤال:

قرأت في مجلة تصدرها جماعة دينية أن وجه المرأة عورة ، وأن كشفه حرام ، والرضا بذلك فسوق . فهل إذا خرجت إحدانا إلى المسجد للصلوة أو لسماع درس ، وهي كاملة الشياب مغطاة البدن ، ما عدا الوجه ، ومضت إلى غaitتها محشمة في غير تبرج يعتبر ذلك حراماً وفسقاً ، ويعد سفوراً محرماً ؟
«سيدة مسلمة»

* * *

روى الشافعى عن أبي يوسف قال : «أدركت مشايخنا من أهل العلم يكرهون فى الفتيا أن يقولوا : هذا حلال وهذا حرام ، إلا ما كان فى كتاب الله تعالى بينا بلا تفسير . ونقل ابن مفلح عن شيخ الإسلام بن تيمية : «إن السلف لم يطلقوا الحرام إلا على ما عُلِمَ تحریمه قطعاً» .

ومن ثم فالجرأة على رمى الناس بالمعصية لأمور تختلف فيها الأنوار ؛ شيمة من لا قدم لهم في الفقه .

ومن هذا القبيل تحريم كشف الوجه - على المرأة - واعتبار ذلك فسوقاً! إن هذا جهل . فإن كشف الوجه في حدود الملابسات التي ذكرتها السيدة المسلمة في سؤالها لم ير فيه حرجاً ولا منه بأساً الكثرة الساحقة من فقهاء الإسلام ، بل لم يزعم أحد أن هناك نصاً بالتحريم ، قال ابن حزم : «وأما المرأة فإن الله تعالى يقول :

﴿وَلَا يُدِينَ زَيْتَنَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَيَضْرِبَنَّ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُدِينَ زَيْتَنَهُنَّ إِلَّا لَبَوَّلَتِهِنَّ﴾^(١)

وهذا نص على ستر العورة والعنق والصدر وفيه نص على إباحة كشف الوجه ولا يمكن غير ذلك أصلاً .

(١) النور : ٣١ .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا يَضْرِبُنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمُ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾^(١) نص على أن الرجلين والساقين مما يخفى ولا يحل إبداؤه .

حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد بسنده عن ابن عباس يذكر «أنه شهد العيد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه عليه السلام خطب بعد أن صلى ، ثم أتى النساء فوعظهن وذكرهن وأمرهن أن يتصدقن ، فرأيتهن يهودين بأيديهن يقذفنه في ثوب بلال - أى المال - »^(٢) .

فهذا ابن عباس بحضور رسول الله رأى أيديهم ، فصح أن اليد من المرأة والوجه ليسا عورة وما عداهما ففرض عليها ستره .

وعن سليمان بن يسار أن ابن عباس أخبره أن امرأة من خثعم استفتت رسول الله في حجة الوداع والفضل بن العباس رديف رسول الله . ثم ذكر الحديث وفيه : «فأخذ الفضل يلتفت إليها وكانت امرأة حسناء ، وأخذ رسول الله يحول وجه الفضل من الشق الآخر » .

فلو كان الوجه عورة يلزم سترها لما أقرها عليه السلام على كشفه بحضورة الناس ، ولأمرها أن تسبل عليه من فوق .

ولو كان وجهها مغضي ما عرف ابن عباس أحسنانه هي أم شوهاء فصح ما قلناه والحمد لله كثيراً .

هذا كلام ابن حزم وهو رأى الأحناف والمالكية وغيرهم .

وروى أحمد بن حنبل عن عائشة أن وفداً للنبي كانوا يلعبون عند رسول الله في يوم عيد قال : «فاطلعت من فوق عاتقه فطأطاً لى منكبيه : فجعلت أنظر إليهم من فوق عاتقه حتى شابت ثم انصرفت »^(٣) .

وبهذا الحديث وأمثاله مما حفلت به كتب السنة احتاج من رأى جواز نظر النساء إلى ما ليس عورة من الرجال - مع الغض والأدب - .

وذهب النووي وهو من فقهاء الشافعية المتشددين ، إلى أنه لا يجوز أن يرى رجل امرأة ما ، ولا أن ترى امرأة رجلاً ما ، وأول حديث عائشة بأنها كانت صغيرة السن لما

(١) النور من الآية : ٣١ .

(٢) فتح الباري بلفظ مختلف ج ٣ ب ٢١ ص ٢٩٩ .

(٣) فتح الباري بلفظ مختلف ج ٩ ب ١١٤ ص ٣٣٦ .

تبلغ بعد ! ولكن الحافظ بن حجر تعقب النووى ، فذكر أن قدوم وفد الحبشة كان سنة ٧ للهجرة بعد بناء الرسول بها بأمد طويل .

فكيف يقال إنها صغيرة السن مع أن عمرها نحو سنته عشر عاماً^(١) ؟

وقد زعم كاتب معاصر أن وفد الحبشة كانوا غلمناً (!) وهذا كلام لا يلتفت إليه ! وحجة النووى ما روى عن أم سلمة وميمونة أن رسول الله أمرهما بالاحتجاب عن عبد الله بن أم مكتوم فقال له . أليس أعمى لا يبصراً ؟ قال : أفعميا وان أنتما ألسستما تبصرانه^(٢) ؟

وهذا الحديث قد أحب عنه بوجوه منها : أن في سنته ضعفاً وربما أسيغ ولكن درجته - لأنه من رواية أصحاب السنن - لا تجعله في صف الأحاديث التي تفيد جواز الرؤية .

وهي بأسانيد من رواية البخارى ومسلم فتقبل دونه .

وقد اتفق المحدثون على صحة حديث فاطمة بنت قيس ، التى أمرها الرسول بأن تقضى عدتها فى بيت ابن أم مكتوم وقال لها : إنه رجل أعمى ! تضعين ثيابك عنده !

وهو حديث أقوى براحل من حديث أم سلمة وميمونة السابق .

وقال ابن حجر فى فتح البارى : إن الأمر بالاحتجاب من ابن أم مكتوم لعله لكون الأعمى مظنة أن ينكشف منه شيء ولا يشعر به !!

وقد جمع أبو داود بين ما روى فى الصحيح وغيره .. فجعل حديث أم سلمة مختصاً بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم وحديث فاطمة بنت قيس وما فى معناه لجميع النساء .

قال الحافظ فى التلخيص : قلت وهذا جمع حسن ، وبه جمع الحافظ المنذري فى حواشيه ، واستحسنه شيخنا .

والواقع أن تخصيص الحجاب المطلق بنساء الرسول كما فعل أبو داود تصرف حسن فى الآثار الواردة : وهو أقرب إلى قوله تعالى لهن : ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِّي أَتَقِيتُنَّ﴾ وإلى أن الرأى منعقد على عدم منع النساء من الصلاة فى المساجد .

(١) أو يزيد عن هذا العمر بقليل ، وحول سن زواج السيدة عائشة رضى الله عنها من النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه انظر البحث القيم للدكتور إبراهيم شعوط «أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ» وعباس العقاد «الصديقة بنت الصديق» .

(٢) حسن صحيح .. أخرجه أبو داود والترمذى .. وشرحه ابن حجر فى فتح البارى شرعاً مستوفياً .

قال ابن حزم : « ولا يحل لولي المرأة ولا لسيد الأمة منعها من حضور الصلاة في جماعة في المسجد إذا عرف أنهن يرددن الصلاة .

ولا يحل لهن أن يخرجن متطيبات ولا في ثياب حسان ، فإن فعلت فليمنعها ، صلاتهن في الجماعة أفضل من صلاتهن منفردات » .

كذلك يقول ابن حزم وهو يخالف بذلك من يرى أن صلاتهن في بيتهن أفضل^(١) .

وبعد أن ساق دلائل كثيرة على هذا الحكم قال : « لو كانت صلاتهن في بيتهن أفضل ، لما تركهن رسول الله يتعين بتعب لا يجدهم عليهم زيادة فضل ، أو يحطهم من الفضل ، وهذا ليس نصحاً وهو القائل : « الدين النصيحة » .

- ولو كان ذلك لما افترض ألا ينعن ولما أمرهن بالخروج تفلات - غير متزينات - وأقل هذا أن يكون أمر ندب وحصن » .

ثم قال ابن حزم مفندًا رأى من يقول بأن صلاتهن في بيتهن أفضل : « وشغب من خالف ذلك بما روى عن أم حميد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها : إن صلاتك في بيتك أفضل من صلاتك معى . قال : هذا حديث عن مجھول لا يدرى من هو ؟ ولا يجوز أن نترك روایة الثقات المتواترة لرواية مجھول ! !

وعلى فرض صحة الآثار بأن صلاة البيت أفضل فهى معارضة لأمره عليه السلام بحروجهن حتى ذوات الخدور والحوياض إلى مشاهدة صلاة العيد ، أمر من لا جلباب لها أن تستعيير من غيرها جلباباً لذلك .

وقد اتفق جميع أهل الأرض أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمنع النساء قط الصلاة معه في مسجده إلى أن مات ، ولا الخلفاء الراشدون بعده ، فصح أنه عمل غير منسوخ !

وعن الزهرى أن عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل كانت تحت عمر بن الخطاب . وكانت تشهد الصلاة في المسجد . وكان عمر يقول لها : والله إنك لتعلمين أنى ما أحب هذا : فقالت والله لا أنتهى حتى تنهانى . قال عمر : فإنى لا أنهاك . فلقد طعنَ عمر يوم طعنَ وإنها لفى المسجد .

(١) وهذا هو الأصوب لقوة أداته النقلية والعقلية .

ومن طريق عبد الرزاق أن علی بن أبي طالب كان يأمر الناس بالقيام لرمضان فيجعل للرجال إماماً وللنساء إماماً

انتهى كلام ابن حزم ملخصاً عن المخلص ، وهذا المذهب خلاف ما يراه الأحناف والمالكية إذ صلاة البيت عندهم أفضل لهن . وهذا خلاف على يسير .

والذى نحرص على تبيانه أنه لا بد للنساء - إذا خرجن - من ثياب سابعة وافرة لا تصف ولا تشف ، وأن انكشاف وجوههن لا إثم فيه ما دامت خالية من الأصابع والعطور ، وأن فقهاء المسلمين لم يقولوا بأن الوجه عورة حتى من أفتى منهم بضرب النقاب .

إنما جنح إلى ذلك سداً للذرية وخوفاً من الفتنة .

ونحن حريصون على إبعاد الفتنة عن طريق الناس بأصح الأساليب وأنجحها لا بالإحراج والتضييق .

وقد رأينا مجتمعات محجبة يسودها الانحلال والفوضى ! ، ورأينا قرى تعج بالفلاحات السافرات لا ريبة فيها .

على أن حديث أسماء بنت أبي بكر : «إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يحل أن يرى منها إلا الوجه والكفاف» ، حديث صريح الدلاله ، وهو من الناحية الفنية يساوى حديث الحجاب إذ كلاهما من روایة أصحاب السنن ، ولكن حديث أسماء موافق للأية ، ولروايات البخاري ومسلم بعكس حديث التحجب .

وقد شرح حديث أسماء كاتب معاصر فزعم أنه خاص بالبيت ، وهذا خلط فالمرأة في بيتها تكشف ما تشاء من بدنها غير الوجه وهذا ما لا خلاف فيه !!

ونحن ننصح أعضاء الجماعات الإسلامية أن يتسلّموا الإسلام قبل أن يدعوا إليه فإن الإخلاص مع الجهل قد ينتهي بشر المأسى .

* * *

المرأة والأداب العامة

لعل أول ما يشب إلى الذهن بعدهما فهمنا أن الإسلام لا يحكم على المرأة بالسجن المؤبد ؛ هو : كيف تخرج المرأة وماذا يكون لباسها الذي يراها الناس به ؟ وهل فساد المجتمع اليوم يبقى هذا الحق أم يوقف تنفيذه ؟

وسبط الإجابة في هذا الموضوع متون حين التمشي مع النصوص المجردة . إن جماع الشهوات بلغ في العصور الحديثة أقصى حده .

وقد طوعت الشهوات المتبعة للناس أن ينتهكوا كل مستور ، وأن يرتكبوا كل محظوظ ، وأصبحت أفواه السكك وأسافلها معارض للأعراض المرتخصة والعيورات المتكشفة . وما أحسب المرأة كانت ترتدي في قعر بيتها قدّيما - حيث لا يراها أحد - هذه الثياب الفاضحة التي ما لبست إلا لتفتن النّاظارة ، وتشير الأهواء ، وتحرك القلوب .

إن ملابس الفضيلة معروفة تهدى إليها الفطرة ، ويعرف الناس سمت مرتداتها وحالتها ومنزلتها .

وقد رفض الإسلام تعرية الأذرع والسيقان والصدر كما رفض ترقيق الثياب بحيث تصف ما تحتها .

دخلت أسماء بنت أبي بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي لها ثياب رفاق فأعرض عنها - مستنكراً - وقال :

« يا أسماء إن المرأة إذا بلغت الحيض لم يصلح أن يرى منها شيء إلا هذا وهذا وأشار إلى وجهه وكفيه » (١) .

وقد نص القرآن على وجوب تغطية الرأس والصدر وستر الزينة الداخلية وإرخاء الجالليب حتى تصل إلى الأرض - كما في بعض الآثار - .

والواقع أن ملابس الراهبات المسيحيات أدنى ما تكون إلى أداب الإسلام . وكذا ملابس بعض الريفيات من سكان المنوفية والشرقية وغيرها .

* * *

(١) حديث حسن عن عائشة .. رواه أبو داود في سننه .

وللمرأة - ما دامت بريئة الغرض - أن تنظر إلى الناس في حدود الفضيلة فقد كان ذلك معهوداً في الصدر الأول وكان النبي صلى الله عليه وسلم يُرى زوجته عائشة رجال الحبشة وهم يقومون باستعراض عسكري في المسجد .

على أن الرجال والنساء جميعاً مكلفون بغض البصر وكسر النظر وملازمة الجد ، وتنزكية القلب ، والبعد عن دواعي الفتنة .

والنساء خاصة مكلفات بالبعد عن ليونة القول وطراوة الحديث : ﴿فَلَا تَخْضُنَ
بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾^(١) .

وبيت المرأة حصنها الذي لا يجوز أن يقترب منه أحد عليها ، ولا يصح بتاتاً أن تخلو بأجنبي فيه أو في غيره .

«حُكْمُهُمْ أَلَا يُوْطِئُنَ فَرْسَكُمْ مِنْ تَكْرُهٍ وَلَا يَأْذَنُ فِي بَيْوَتِكُمْ لِمَنْ تَكْرُهُونَ»^(٢) .
«أَلَا لَا يَخْلُونَ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا مَعَ ذِي مُحْرَمٍ»^(٣) .

وقد كره النبي صلى الله عليه وسلم لبعض نسائه أن يرین ابن أم مكتوم وهو في بيته ، لأنه كان مكاففاً لا يحسن تعهد ثيابه ، فربما انكشف من بدنها شيء ، وإن عائشة - كما أسلفنا - كانت ترى لاعبي الحبشة في المسجد من بيتها .

ولا ينبغي للمرأة إذا خرجت أن تتبعج في الطريق أو تحدث مظاهر حولها !!
عن أبي أسميد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو خارج من المسجد وقد احتلط الرجال مع النساء في الطريق : «اسْتَأْخِرْنَ فَلِيْسَ لَكُنْ أَنْ تَحْقِنَ الطَّرِيقَ،
عَلَيْكُنْ بِحَافَاتِ الطَّرِيقِ»^(٤) فكانت المرأة تلتقط بالجدار - مخافة أن تزاحم أحداً - حتى إن ثوبها ليعلق بالجدار من لصوقها به !

* * *

وخروج النساء للمسجد ، أو للمدرسة ، أو لأى غرض مشروع ، مadam فى أزياء العفة السابعة الوافرة ليس موضع خلاف بين الفقهاء المعتبرين .

ولا يوجد نص صريح في تغطية الوجه ، بل المروي يفيد الكشف ، كما ذكرنا ، وقد توسع بعض الفقهاء فأفتى بستره منعاً للفتنة .

ونحن لا نرى هذا النقاب وسيلة اتقائها مهما تعلق به المتزمتون ، بل إن المسلمين لجأوا إليه

(١) الأحزاب : ٣٢ .

(٢) حديث حسن : عن عمرو بن الأحوص سنن الترمذى والنسائى وابن ماجه تحت ٧٨٨٠ فى صحيح الجامع .

(٣) فتح البارى . (٤) حديث حسن : أخرجه أبو داود . وتحت رقم ٩٢٩ فى صحيح الجامع عن أسميد الأنصارى .

في عصور العجز^(١) . وتدريب الرجال والنساء على الفضائل يحتاج إلى تربية على نطاق أتم وأشمل ، إلى تقاليد تعتمد على النصوص البيينة أكثر من اعتمادها على المتشابه والمختلف فيه . الإسلام يقرن جريمة الزنا بالشرك ويعدّها من أغلظ الآثام ويغلق الأبواب المفضية إليها بعنف .

وكما ينطف المجتمع من مظاهر الوثنية ينطفئ من مظاهر الخلاعة ، فهو يحمي تقاليد الشرف كما يحمي عقيدة التوحيد .

على عكس حضارة الغرب فإن بناءها قائم على الكفر والفسق ، وقد سلطت اللذة البهيمية تشرح بدن المرأة تشریحًا منكراً وتختلس في الإغراء بها وسلخها من ثيابها وأدابها . وحشرت المرأة في أعمال مختلفة لتُيسِّرَ السطوة عليها ، واعتبرت المخادنة تصرفاً عادياً والمرقصة فعلاً مشروعًا وارتكاء المرأة في أحضان أجنبي عنها شيئاً لا غبار عليه ، بل إنها تُلام إن نكصت عنه .

والإسلام يرى هذه الحيوانية الجائحة أخت الشرك بالله ويعلن عليها حرباً لا هوادة فيها ، ويجب أن نقتل بذورها في مجتمعنا بكل ما نملك من قوة وأن نسعى لإقامة تعاليم الإسلام بدلها .

* * *

وال المسلم في هذه الأيام مطالب بمزيد من التصون والحذر .

وقد أوردنا نصوصاً كثيرة توضح ناحية من علاقة المرأة بالمجتمع .

لكن أحكام هذه العلاقة جزء من أحكام الشريعة العامة ، وهي معطلة في البلاد ومن الصعب تنفيذ بعض الدين في غيبة الجزء الأكبر الذي يحميه .

إن عيون الشبان المتسكعين تمتد جائعة ولا تجد من يقمعها .

وإن ألسنة السفهاء تطول كثيراً ولا تجد من يردعها !!

والكبار الذين يحتكم الشعب إليهم هم من عبيد أوروبا صنعتهم بيدها أقبع صناعة ، ثم رمتنا بهم ليفسدوا علينا ديننا ودنيانا .

وخروج المرأة - على النحو الذي أباح الإسلام - يتطلب حراسة ومشقة ، إلا أن يتغير الوضع كله ، وتعود لأحكام الدين مكانتها فيبني المختشون ويجلد المتطاولون ويحتقر الهمazon واللمازون .

(١) للشيخ الغزالى بالإضافة لما سلف فى هذا الكتاب بحث قيم فى النقاب فى كتابه الأشهر «السُّنْنَةُ النَّبُوَّيَّةُ بَيْنَ أَهْلِ الْفَقْهِ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ» .

المرأة والقضاء

طلب فريق من النسوة أن يتولين مناصب القضاء وأن يستمتعن بالحقوق المخولة للرجال في شغل هذه الوظائف وغيرها من الأعمال العامة .

وأقحم الإسلام في المناقشات التي دارت حول هذه الرغبة النسوية ، فمن قائل بأن الإسلام يبيح للمرأة هذا الحق ، ومن قائل بأن الإسلام يرفضه رفضاً حاسماً .. !

ونحن نضحك من إقحام المرأة في هذه الموضوعات لأنها خارجة عن دائرة اختصاصه ، بل لأن الإسلام أفتى بتحريم الربا والزندي ، ومع ذلك تجاهلت فتواه !

وحدث على الصلوات والفضائل ، فجاء قوم أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات يسألونه عن حكمه في أمور أخرى !!

كأنهم حريصون على أداء رسالته وإنفاذ شريعته .. !!

أما موقف الإسلام من تولي المرأة القضاء^(١) ومن توليتها المناصب العامة فالمعروف :

١ - إن الإسلام في القضايا المدنية اعتبر شهادة المرأة نصف شهادة رجل ورفض قبول شهادتها منفردة ورفض قبول شهادتها في قضايا الحدود^(٢) وأشباهها مطلقاً فكيف يقبل قضاوتها فيما ترفض فيه شهادتها .

٢ - والقضاء منصب له جلاله ، وللقاضي على الناس ولاية عامة وسلطان واسع ، فإذا كان الإسلام يجعل الرجل قواماً على المرأة في البيت - وهو المجتمع الصغير - فكيف يجعل للمرأة قوامة على الرجال في المجتمع الكبير ؟

٣ - لا شك أن للمرأة حقها كاملاً غير منقوص في تدبير شأنها وإنفاق مالها واختيار رجلها .

وحريتها في أحوالها الخاصة كحرية الرجل ، بيد أن القضايا المتصلة بكيان الأم ومصالح الجماهير لها وضع آخر ينزل استعداد المرأة دونه .

(١) أضاف الشيخ الجليل محمد الغزالى - فيما بعد رأياً يفيد جواز تولي المرأة للقضاء في بعض الشئون .. نقلأً عن أبي حنيفة رضي الله عنه ومن يرى صحة ذلك .

(٢) يرى ابن حزم أن شهادة المرأة تقبل في الحدود على النصف من الرجل .

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . لما بلغه أن الفرس ملكوا عليهم امرأة : « لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة »^(١) .

- ستظل المرأة هي اليد اليسرى للإنسانية ، وسيظل عملها في البيت أكثر من عملها في الشارع .

وسيظل الرجال حمالى الأعباء الثقال فى الشئون الخاصة وال العامة لأن طاقة كل من الجنسين هكذا ... !

ولأمر ما لم يرسل الله نبيه من النساء ، ولم يحك التاريخ إلا شواد من الجنس الناعم قمن بأعمال ضخمة على حين شحنت صفحاته بأسماء الرجال .

إذا كانت المرأة لم تختر رسولاً فقد استطاعت أن تكون زوجة عظيمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن تعينه إعانة رائعة على تبليغ الوحي وجهود الناس .

فلم اذا لا تكرس المرأة جهودها وتسخر مواهبها لتجعل من نفسها ظهير الرجل وعونه ، وأن تقف في الصدف الثاني بدلاً من مزاحمة الرجال في الصدف الأول ؟ !

* * *

إننا نأسف إذا كانت المرأة ستفهم من هذا الكلام أنها في نظر الإسلام مهانة ، أو أنها محرومة عنده من وضع تستحقه ... هذا غلط !

فالنساء شقائق الرجال ، ولهم من الحرمة والمكانة والحقوق الفطرية ما يكفل لهم السعادة والاستقرار .

وتكليف الإسلام أن يعينهن قاضيات أو وزیرات ظلم لطبيعة ، وافتیات على المصلحة ! وقد قرأتنا لأستاذة محامية جربت الأعمال العامة ، وأدركت ما سوف تعانيه لو أسننت لها أعمال النيابة والقضاء ، فكتبت تتصحّن بنات جنسها معلنة لهم هذا الرأى الحكيم .

قالت الأستاذة «عزيزة عباس عصفور» المحامية :

(١) صحيح : عن أبي بكرة في سنن الترمذى وابن ماجه ومسند الإمام أحمد وصحیح البخاري تحت رقم ٥٢٢٥ في صحيح الجامع .

« لو كانت الخطوة التي خططها معالي وزير العدل بتعيين الحقوقيات في نيابات الأحداث كسباً للمرأة ، لكنني أول من تدعو الله أن يبارك للمرأة فيها .

أما وإنني من خرجتهن كلية الحقوق في الأفواج الأولى ، وزاولت المحاماة أكثر من عشر سنين ، ونبحث فيها نجاحاً أحمد الله عليه ، ويلوت فيها حلاوتها وممارتها معاً . فإنني أعلن في صراحة أن النيابة والمحاماة تتنافيان مع طبيعة المرأة وتتعارضان مع مصلحتها .

وأعلن إشفاقي على البقية من فتياتنا المثقفات اللاتي ما زلن بخير ، أن تجربن هذه التجربة المريدة المضنية .

وأهيب بهن أن ينجون بأنفسهن من عاقبة لا يدركن ممارتها إلا بعد أن يقنعن فيها ، ويهدمن بأيديهن صرح سعادتهن !

لقد تحطمـت أعصابـنا - نحن المحامـيات - من إرهاـق المـهنة وعـنـتها ، ومن محـاربـتنا للطـبـيعـة ، وتنـكـبـنا طـرـيقـ الـوـاقـعـ ! فـمـاـ ظـنـنـاـ بـالـنـائـبـاتـ !

إن المحامية تحكم في وقتها وظروفها . وتسيطر بحرية تامة على عملها ، فهي حرّة أن تقبل من القضايا ما تشاء ، وترفض ما تشاء !

أما النائبة فلا إرادة لها ولا سلطان في اختيار الزمان والمكان والعمل !!

بالله ماذا تكون العاقبة إذا خضعت النائبة لطبيعتها واستجابت لحقها في الحياة ، فتزوجت ورزقت أطفالاً ، واقتلتـهاـ منـ بـيـنـهـمـ طـبـيـعـةـ التـحـقـيقـاتـ وـالـانتـقالـاتـ وـالـمعـاـيـنـاتـ ، وتركت زوجها قعيد الدار يربى الأولاد «ويرضع» الصغار؟! وهي في الخارج تدور في كل مكان ، كأنها رجل الشارع الذي يهجر بيته آناء الليل وأطراف النهار؟

- ترى هل ظنت زميلاتنا الحقوقيات الكريمتـاتـ أنـ الـعـلـمـ فيـ الـنـائـبـاتـ تـدـلـيلـ ومـدـاعـبـةـ ، «ـطـبـطـبـةـ»؟

إنها كـلـ الـنـيـابـاتـ تـحـقـقـ فيـ الجـرـائمـ التـيـ تـقـعـ بـيـنـ الـأـحـدـاثـ ، الـخـطـيرـ معـ الـهـينـ ، وـمـنـهـاـ ماـ يـمـسـ العـرـضـ ، وـمـنـهـاـ ماـ يـتـنـافـيـ معـ الـأـدـبـ ، وـهـنـاـ لـاـ بـدـ لـلـنـائـبـةـ مـنـ التـحـرـجـ حـيـاءـ وـخـفـرـاـ ، وـالـإـحـجـامـ عـنـ اـسـتـجـوـابـ وـسـؤـالـ الشـهـودـ مـنـ الرـجـالـ أـمـامـ كـتـبـةـ التـحـقـيقـ وـأـمـامـ رـجـالـ الـأـمـنـ وـالـحـامـيـنـ الـذـيـنـ يـحـضـرـونـ التـحـقـيقـ !

سلامة التحقيقات لا تعرف الخفر ولا الحباء !

ترى أتسولى التحقيق من وراء الستار ، أم تعذر عنـه ، وتنـيـب «النـائـبة» نـائـباً عنـها
يتـولاـه ، أم تـتـغـافـلـ عنـ الأـسـئـلةـ المـخـرـجـةـ ،ـ فـيـكـونـ العـجزـ ،ـ وـالـنـقـصـ ،ـ وـضـيـاعـ العـدـالـةـ ؟!
أم تـراـهـاـ تـخـرـجـ عنـ طـبـيعـتـهاـ ،ـ فـتـلـقـىـ نـقـابـ الـحـيـاءـ وـالـأـدـبـ وـالـأـخـلـاقـ عنـ وـجـهـهاـ
وـلـسانـهاـ وـكـرـامـتهاـ وـسـمـعـتـهاـ جـمـيـعاـ !!

إنـناـ -ـ نـحـنـ الـحـامـيـاتـ لـاـ نـقـبـلـ مـثـلـ هـذـهـ الـقـضـاـيـاـ ،ـ وـنـائـبـيـ الـمـرـافـعـةـ فـيـهـاـ هـرـبـاـ مـنـ
الـخـرـجـ ،ـ وـصـوـنـاـ لـطـبـيعـتـناـ الـخـفـرـةـ .

ومـاـذـاـ تـصـنـعـ النـائـبـ إـذـاـ عـيـنـتـ فـىـ بـلـادـ نـائـبـةـ عـنـ أـهـلـهـاـ وـلـيـسـ بـهـاـ لـلـسـكـنـىـ غـيـرـ
اسـتـرـاحـاتـ الـمـوـظـفـينـ ،ـ هـلـ تـبـيـتـ لـيـلـتـهـاـ مـعـ زـمـلـائـهـاـ مـنـ الرـجـالـ ،ـ أمـ تـطـالـبـ بـالـبـقـاءـ فـىـ
الـمـدـنـ الـعـامـرـةـ ،ـ فـتـنـدـعـمـ الـمـساـواـةـ الـتـىـ تـنـشـدـهـاـ الـمـرـأـةـ ؟!

إـنـ الـدـيـنـ وـالـأـخـلـاقـ وـالـعـرـفـ الـحـمـيدـ تـحـتـمـ أـنـ تـعـيـشـ الـمـرـأـةـ بـعـيـدةـ عـنـ مـوـاطـنـ
الـفـتـنـةـ وـالـإـغـرـاءـ وـالـزـلـلـ ،ـ وـاـخـتـلاـطـهـاـ عـلـىـ هـذـهـ الـصـورـةـ يـعـرـضـهـاـ لـخـطـرـ مـحـقـقـ وـحـذـرـ
مـؤـكـدـ ،ـ وـيـضـعـ سـيـرـتـهـاـ فـىـ أـلـسـنـ النـاسـ تـلـوـكـهـاـ بـالـمـذـمـةـ وـالـمـسـبـةـ وـالـعـارـ !

إـنـ الـحـامـيـاتـ مـنـاـ لـمـ يـسـلـمـنـ مـنـ الطـعـنـ ،ـ حـتـىـ مـنـ زـمـلـائـهـنـ الـحـامـيـنـ أـنـفـسـهـمـ
فـالـنـاجـحةـ اـسـتـغـلـتـ أـنـوـثـتـهـاـ ،ـ وـنـعـوـتـهـاـ ،ـ وـالـخـصـمـ الـذـىـ يـوـكـلـ مـحـاـمـيـةـ يـفـاخـرـ خـصـمـهـ
بـأـنـهـ لـكـىـ يـذـلـهـ جـابـهـ فـىـ الـمـعـرـكـةـ بـاـمـرـأـةـ لـاـ بـرـجـلـ !

وـأـرـيدـ أـنـ أـسـأـلـ :ـ كـمـ عـدـدـ الـحـقـوقـيـاتـ الـلـائـىـ تـخـرـجـنـ ؟ـ !ـ وـكـمـ مـنـهـنـ اـشـتـغـلـتـ
بـالـحـامـاـمـةـ ؟ـ !ـ وـمـنـ مـنـهـنـ أـثـبـتـ وـجـودـهـاـ مـحـاـمـيـةـ نـاجـحةـ ؟ـ !ـ فـقـمـنـاـ نـسـنـ تـشـرـيـعـاـ جـدـيدـاـ
مـنـ أـجـلـهـنـ !ـ لـيـنـزـلـنـ إـلـىـ الـحـيـاةـ الصـاخـبـةـ الشـائـرـةـ الـتـىـ يـحـيـاـهـاـ زـمـلـائـنـاـ وـكـلـاءـ الـنـيـابةـ
وـمـعـالـىـ الـوـزـيـرـ يـعـلـمـ مـدـىـ مـاـ يـلـاقـونـهـ مـنـ إـرـهـاـقـ وـعـنـتـ ،ـ فـقـدـ كـانـ مـحـاـمـيـاـ يـرـىـ مـتـاعـبـهـمـ
بـعـيـنهـ وـيـلـمـسـهـ بـيـدـهـ !

وـهـوـ يـعـلـمـ أـنـهـ عـاطـفـةـ مـنـدـفـعـةـ بـغـيـرـ عـقـلـ تـلـكـ الـتـىـ حـدـتـ بـالـرـمـيـلـاتـ إـلـىـ الـمـطـالـبـةـ
بـوـظـائـفـ الـنـيـابـاتـ ،ـ الـتـىـ سـتـوـدـىـ بـمـسـتـقـبـلـ الـحـقـوقـيـاتـ كـأـمـهـاـتـ وـزـوـجـاتـ وـرـبـاتـ بـيـوتـ
وـأـنـسـاتـ مـحـصـنـاتـ ،ـ لـاـ نـرـيدـ لـهـنـ غـيـرـ ذـلـكـ ،ـ وـلـاـ تـرـيدـ مـنـهـنـ الـطـبـيـعـةـ نـفـسـهـاـ أـنـ يـكـنـ
نـائـبـاتـ وـلـاـ سـفـيرـاتـ !

إن رسالة المرأة في الحياة لها جلالها وقدسيتها ، التي لا تعادلها حقوق ممن عنها
ولا امتيازات تعطاها ، وإن كثرت !

إن رسالتها أن تكون زوجة صالحة ، وأمًا رؤومًا يتربى في أحضانها وبين ذراعيها
مستقبل الوطن العزيز !

ولقروية ساذجة في حجرها طفل أفضل للأمة وأنفع للبلاد من ألف نائبة وألف
محامية .

إن أثر المرأة في الحياة لو هي استقرت في بيتها ، واستوت على عرشهما ، أبلغ
وأعظم من أثر الرجل نفسه . لأنها هي التي تقدم للإنسانية إنسانها الحى تقدّه من
كيانها : دمًا وعظامًا ولحماً ... هذا العالم الإنساني ثمرة من ثمارها ، وحياته من
حياتها !

وأن تنأيتها الزميلات النائبات ، همستي إليك : «أن إعجاب الرجل بقدرة
المرأة الماهنة لن يعادل حبه وتقديسه للزوجة الكاملة لأنها هي الكائن العظيم الذي
يستروح في ظلاله العييم . وغرض الطبيعة منكن ، وحكمة الله فيك ، أن تكون
أمها ، لا نائبات ، ولا محاميات ! » .

وصدق جون سيمون في قوله : «إن الحياة هيئة ، وطيبة ، إذا علم كل من
الرجل والمرأة المخل الذي خصصه الله لكل منها» .

* * *

المرأة والعلم

القصد الأول من التثقيف الصحيح هو تفتيق الذهن وتنمية الموهب وتصحيح فكرة الإنسان عن الكون والحياة وتعهد سلوكه بما يلائم الحق والواجب ..

والمرأة والرجل سواء في ضرورة الحصول على أقساط كبيرة من هذه الثقافات النافعة ، فإن الأمية العقلية والاجتماعية والسياسية خطر كبير على كيان أي من الجنسين .

والعلم ليس زينة قد يغسل الإنسان عنها فلا يضيره شيء ! كلا فإن التجدد من العلوم والمعارف مزلقة إلى الدرك الأسفى لا نرضاه لأحد بله أن نلزمها بها .

ولذلك نحن نفتح آفاق التعليم أمام المرأة ونغريها بالمزيد لو حاولت الاكتفاء ، مثلها في ذلك مثل الرجل .

والملاحظ الآن أن مستوى المرأة الأدبي والعلمي أقل من مستوى الرجل ، وفي كثير من البلاد الشرقية يحرصون على تجاهيل المرأة وإسقاط كيانها الروحي والعقلي وهذا أمر منكر .

فإن الذي يلحظ المجتمع الإسلامي الأول لا يرى فارقاً بين فقه الرجل وفقه المرأة في الدين ، ولا تفاوتاً بين إدراكيهما للأمور العامة ، وهذا ناشئ عن أصل المساواة في التكاليف الشرعية بين الجنسين .

أما اليوم فقد كان الشبان يُطلبُونَ لفلسطين ، فتتساءل الأم أو الأخت أو الزوجة ما فلسطين هذه ! وأين تقع من دنيا الناس وما صلتنا بها !!

يحدث هذا من نسائنا في الوقت الذي يواجه رجالنا في الميدان فتيات «إسرائيل»
وهن يقاتلن كأشجع الأبطال !!

إن المرأة الجاهلة أعجز من أن تدرى شيئاً عن القضايا العامة أو الخاصة ، بل هي أعجز من أن تشرف إشرافاً منتجًا على تربية أولادها ، وكذلك الرجل الجاهل طبعاً .

والتعليم في أوسع دائرة ممكنة هو علاج هذا التأخر والانحطاط .

* * *

ما يدعو إلى الغرابة أن نخصص مدارس ابتدائية وثانوية للبنات ثم نخلط بين الجنسين في التعليم العالي !!

لماذا لا نخصص كليات أو جامعات بأسرها للفتيات ؟ فنستجيب لمنطق الفضيلة والدين .

أما أمر البرامج فلنخضعه للمصلحة العامة كما نخضعه لملكات الأفراد واستعدادهم الخاص .

فما يصلح له الرجال وحدهم لا معنى لإقحام النساء فيه !

وليس السبب في ذلك الافتياط على حق المرأة في العلم . فإننا نرفض قبول كثير من الطلاب في الكليات الحربية والعسكرية مثلاً لعدم توافر شروط معينة فيهم .

فإذا رُدّت النساء عن بعض الكليات فلأن استعدادهن لا يؤهلن لها فحسب .

ثم إننا لا نريد أبداً أن نعلم المرأة لتشغلها كاتبة في مصلحة أو رئيسة لقسم أو وزيرة في حكومة .

إننا نريد لها العلم لذاته أولاً .

ثم نريد لها بعد أن تخدم في الميدان الرحيب الهائل الذي تأخر الشرق قروناً إلى الوراء بسبب قلة العاملين به وهو ميدان التربية والتعليم ، ميدان الأسرة المتداعية والروابط المنهارة !

وقد تكون للمرأة أعمال أخرى رسمية وشعبية تخدم بها دينها وتنفع بها قومها وتساهم بها مع الرجال في أداء الرسالة العظيمة التي كلفوا بها ..

لا عليها أن تلتفت لذلك إذا شاءت والإسلام ظهير الصالحات المصلحات في كل عصر ومصر .

وكل ما نريد التنبية إلى جلاله وخطره أن وظيفة المرأة في بناء الأسرة وبالتالي في بناء الأمة تحتاج إلى جهد يتصل فيه عمل الليل والنهار .

والمؤلفات العلمية في ذلك تستغرق في دراستها سنين فكيف بتطبيقها؟

قال الرصافي يوصى الأمة بضرورة تربية النساء :

يهدبها كحضرن الأمهات	ولم أر للخلائق من محل
بتربية البنين أو البنات	فحضن الأم مدرسة تسamt
بأخلاق النساء والوالدات	وأخلق الوليد تفاص حسناً
كمثل ربيب سافلة الصفات	وليس ربيب عالية المزايا
كمثل النبت ينبت في الفلاة	وليس النبت ينبت في جنان

* * *

ثم هو يناجى أم المؤمنين وبيشها حزنه بجهل المؤمنات من بعدها ، فيقول :

أم المؤمنين يا جهل المؤمنات	أأم المؤمنين إليك نشكو
نكاد نغص بالماء الفرات	فتلك مصيبة يا أم منها

* * *

كأن الجهل حصن للفتاة	نرى جهل الفتاة عفافاً
ونحسبهن فيه من الهنات	ونلزمهن قعر البيت قهرًا
جميع نسائنا قبل الممات	لئن وأدوا البنات فقد قبرنا

* * *

نهاستنا النسائية بعيدة عن الإسلام

لو أن المرأة في مصر عندما أرادت دعم مكانها في المجتمع وكرامتها في البيت ورسالتها الجليلة في الحياة ، اتجهت إلى الإسلام تتعرف منه ما لها وما عليها لوجدت في تعاليمه ما يشبع كل رغبة نبيلة ويحقق كل أمنية معقولة .
وجادلت دون حقوقها المشروعة كل مكابر .

ولأحببت - باسم الإسلام - أية محاولة لتحقير شأنها وتهوين أمرها وقصر وجودها على المتعة والاستيلاد فحسب .

لكن المرأة في مصر ولت وجهها شطر الغرب الأثم الذي ملأت الدنيا أرجاسه ولوثت الحياة أنفاسه !!

وغرها ما منح المرأة هناك من حقوق ظاهرها إنصاف للمرأة ومساواة بين الجنسين ، وباطنها إتلاف للمرأة من حيث هي عضو نافع في مجتمع نظيف ، واستدرج لها باسم المساواة لتتكلف ما لا تحسن وما ينبغي أن تشغل نفسها به .

وإذا المرأة المصرية تستحمر . وتضع برنامج نهاستها فتكتب في أول سطوره منع تعدد الزوجات . وتقيد الطلاق !!

ما هذا؟! إنه ليست هناك مشاكل خطيرة أو تافهة تعانيها الأمة عندنا من إباحة التعدد أو الطلاق .

ولو عدّت الأزمات التي هزت كيان المجتمع عندنا ، ما فكر عاقل في عدم الطلاق أو التعدد منها ، ولو في آخر القائمة !

ومصر من هذه الناحية - وحدها - أحسن حالاً من أوروبا وأمريكا .

إذن فما القصد من الكلام في هذا الموضوع؟

القصد تجريح الإسلام بالباطل ، والافتراء عليه متابعة للتقليد الأعمى ، تقليد الحضارة الغربية التي تعمل الصليبية المحتلة من ورائها لخاربة الإسلام والمسلمين .

إن المصلحة المجردة قبل الشريعة المنزلة تبيح التعدد وتحبز الطلاق .

وإلى المرأة في مصر نسوق هذا الاقتراح الإنجليزي لتعرف خطل موقفها من تعاليم الإسلام ، ومقدار بعده عن النفع والصواب .

نشرت مجلة روزاليوسف في العدد ١١٩١ ما يلى تحت عنوان : «نائبة في مجلس العلوم تشكو من قيود الطلاق » .

في الوقت الذي تتحجج فيه المرأة المصرية على سهولة الطلاق التي تكشفها قوانين الأحوال الشخصية الإسلامية ، تتحجج المرأة الإنجليزية على أبديّة الزواج وحرمة الطلاق ! وقد تقدمت النائبة الإنجليزية «مسز هوايت» إلى مجلس العلوم البريطاني أخيراً بمشروع قانون يقضى بإقرار الطلاق بين كل زوجين يطول حد الانفصال بينهما إلى سبعة أعوام .

وتقول «المسز هوايت» إنها ترمي من وراء هذا المشروع إلى حماية البقية الباقيّة من أخلاق المجتمع البريطاني . وإلى الإبقاء على كيان الأسرة البريطانية التي تهددها بالزوال قوانين الطلاق الحالية .

والمعلوم أن تقييد حرية الطلاق في بريطانيا قد أصاب المجتمع الإنجليزي - وخاصة هذا الجيل - بموجة جارفة من الانحلال والتفكك .

حتى أصبح المتشائمون يؤكدون أنه لم يعد في إنجلترا كلها ما يمكن أن يسمى «أسرة» في هذه الأيام .

وأنه لن يكون فيها على الإطلاق أسرة في المستقبل .

لأن «أبديّة الزواج» واستحاله الطلاق قد أصبحا مصدراً يغرق المجتمع كل يوم بأمواج الخطايا !! .

خطايا الأزواج الهاربين من القيد ، والزوجات الباحثات عن الحرية ، وأبناء السفاح الذين يعلون أنفسهم بالجريمة .

على أن أخطر ما في الأمر كله ، هو أن هذه الظواهر جمیعاً تتضاعف كل يوم في سرعة منحنيفة ، ولا يبدو عليها إطلاقاً ما يشير إلى أنها قد تميل إلى التوقف في يوم من الأيام !

بينما تقف الحكومة البريطانية عاجزة لا تدرى ماذا تفعل !

فهى تعلم مثلاً أن عدد الأطفال الذين ولدوا سفاحاً في إنجلترا قد بلغ عددهم ٣٧ ألفاً في سنة ١٩٥٠ وحدها !

وأن عدد الأزواج الذين يعيشون بعيداً عن زوجاتهم - بلا طلاق - قد بلغ ربع المليون !

ولكنها تعلم في الوقت نفسه أن المشكلة لا ينفرد بتعقيدها عامل واحد حتى تستطيع بحرة قلم أن تقضى عليه .

بل هناك مئات من العوامل النفسية ، والاقتصادية ، والدينية ، تشتراك كلها في إضافة عقد جديدة إلى العقد القديمة ، ثم إلى تثبيت العقد القديمة نفسها .

وقد هاجم كثير من الباحثين الاجتماعيين في السنوات الأخيرة جمود القوانين البريطانية ورجعيتها .

وأيدوا في حماس كبير أن يكون مجرد «عدم الاستلطاف» سبباً قوياً لإقرار الطلاق !!

وأكملوا أن الأضرار التي تعود على المجتمع من جراء ازدياد عدد المطلقات ، أقل كثيراً من تلك التي تعود عليه من جراء الإسراف في تزويده بأزواج صورين ، وزوجات صوريات ، وأطفال بلا أسرة .

وقد استندت «مسر هوایت» إلى آراء هؤلاء الباحثين في دفاعها عن مشروع القانون الذي قدمته إلى المجلس .

وينتظر أن تثير المناقشة حوله ضجة شديدة في جميع الصحف والدوائر الاجتماعية في إنجلترا» .

والآن . . . فما رأى زعيمات النهضة النسائية؟

* * *

الإسلام والاشراكية

«إن الأشخاص إذا أرمأوا في الغزو أو قلّ
طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان
عندهم في ثوب واحد...
ثم اقتسموا بينهم... بذلة واحدة...
بالسوية...
فهي مني وأنا منهم...».

«حديث شريف»

* * *

أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى فالكل في حق الحياة سواء

(شوقي)

اشتراكية الصدقات

يقول الأستاذ خالد : « الصدقة في نظر الكهانة نظام اقتصادي واف ووسيلة ناجحة لخاربة الفقر وإسعاد الشعوب .

وإنك لتسمع وتترى الدعوة إلى الصدقة والإحسان حتى تقاد تشكي هل أنت في مجتمع أم في ملجاً .

وإنى لأصدق بكلتا يدى لهذا الكشف الرائع الذى كشفه (ويلز) فى طبيعة الكهانة حين قال :

... ولماذا نجوى مع الأستاذ خالد فى نقل الكلام عن (ويلز) ؟! لا ضرورة لذلك .
ولننقل بدلاً عنه كلاماً فى علاقة الصدقة بالاشتراكية كما يقررها الإسلام ، وخطأ فريق من الناس - أو من الكهان - فى فهم هذه العلاقة نقله عن كتابنا : « الإسلام والأوضاع الاقتصادية » .

« كثير من العلماء إذا ذكر عنانية الإسلام بالفقراء وحدهم على الطبقات البائسة ، لم يجد ما يستشهد به على ذلك إلا الزكاة . تلك الصدقة التي فرضها الله في أموال الأغنياء حقاً معلوماً يتسع لحاجات المنكوبين ويخرج به ضيق المكروبين .

وهذا تفكير محدود واستدلل ناقص ، ذلك أن الزكاة لا تعدو أن تكون ضريبة إحسان . ومصارف الزكاة التي بينها الشارع تشير إلى هذا .

ومكان الإحسان المالي في بناء أي مجتمع ليس مكان القواعد والأوتاد ، ومن العبث أن تربط حياة قسم كبير من الأمة بالفضلات التي تلقى إليه من القسم الآخر ! ، والشخص الذي يستطيع العمل من كد يده وعرق جبينه لا يجوز أن نفرض عليه الاعتماد في حياته كلها أو جلها على الزكاة .

وإلا فقد انقلب الزكاة تشريع إفساد لا تشريع إصلاح .. تشريعًا يعين على البطالة ويدفع إليها .

ما دامت الفريضة لابد من إخراجها ، وما دام المحتاجون لابد أن يأخذوا أنصبتهم منها .
وتلك كلها نتائج لا يقصد إليها الدين ولا يهدى لها .

وقد قال الرسول صلوات الله عليه : «لا تحل الصدقة لغنى ، ولا لذى مرة سوى - قوى سليم -»^(١).

فالرجال الأصحاء لابد أن تهألاً لهم وسائل العمل ، والربح الوافر الذى يكسبونه من الأعمال هو الدعامة الاقتصادية الأولى فى بناء كل مجتمع صحيح بحيث يكون موضع الزكاة معها ثانوياً يظهر مع طوارئ الضعف والعجز والتعطل والقعود . وهذا موضع الزكاة الواجب ومصرفها المعقول .

ثم إن توفير أسباب العمل أمر تلزم به الحكومة ويفرض عليها ، ويباح لها أن تتخذ من الوسائل الاقتصادية ما تراه كفيلاً بتحقيق هذه الغاية العظيمة ، بل يتحتم عليها أن تتخذ هذه الوسائل وأن تتذكر من المشاريع العمرانية والتحولات المالية ما يقطع دابر التعطل ويسوق أفراد الشعب قاطبة إلى ميادين العمل والإنتاج ، وليس في دين الله ، ولا في تعاليم الحياة ما يحول دون هذا ، بل على العكس ، هناك من التوجيهات الدينية الخاصة وال العامة ما يؤكّد هذا المسلك ويحّمده ، فإن الإسلام مثلًا يفرض التجنيد المالي إلى جانب التجنيد العسكري ، ويحتم تعبئة النفوس والأموال لخدمة الحق والفضيلة والإيمان ، وتجنيد النفوس وتجنيد الأموال ليس عملاً عسكرياً بحتاً ، ومن الخطأ فهم ذلك في عصر تطورت فيه الحروب حتى أصبحت علمًا وإنجاجًا يستنفذ طاقة الأمم حتى لا يبقى لها قطرة ، فتجنيد النفوس والأموال هو عمل زراعي وصناعي وتجاري ، هو تسخير للقوى المنتجة وجعلها تروساً قوية في الآلة الدائمة التي ينبغي أن تدور في أوقات الحرب والسلم معًا للإعداد والاستعداد .

ومثل هذه الحالة لا يبقى معها عاطل ، ولا يعيش فيها متشرد ، والمساهمون في حركتها النشيطة هم جميّعاً جنود مجاهدون يعرفون رسالة الحياة جيداً ، ويقومون بأعبائها على خير وجه ، وإلى بعض هذا يشير الحديث الشريف : «إِنَّ اللَّهَ يُثِيبُ فِي السَّهْمِ الْوَاحِدِ ثَلَاثَةَ نَفْرٍ : الَّذِي صَنَعَهُ وَالَّذِي نَاوَلَهُ وَالَّذِي رَمَى بِهِ»^(٢) .

وعلى ضوء هذه الحقائق تعرف القصد من قول القرآن الكريم : «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ»^(٣) فتستطيع كل حكومة عاقلة معقولة أن

(١) صحيح عن ابن عمر في سنن أبي داود والترمذى مستدرك الحاكم .

(٢) ورد بنص «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَدْخُلُ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ ثَلَاثَةَ نَفْرٍ الْجَنَّةَ . صَانِعُهُ يَحْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ الْخَيْرُ ، وَرَامِيُّهُ وَمُنْبِلِّهُ رَوَاهُ عَقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ فِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ .

(٣) التوبة : ١١١ .

تسن من القوانين ، وأن تضع من النظم ما ترى أن فيه الوفاء بحاجة الأمة على اختلاف طبقاتها ، وفاء لا يبقى معه عاطل ولا محروم «^(١) .

هذه الحقائق التي بسطنا فيها وجهة نظر الإسلام يعرفها صديقنا خالد ، وكان حسبي أن يتزمهها عندما تكلم عن «اشتراكية الصدقات» لكنه ليس الحق بالباطل لبسًا سيئًا . والذى يقرأ كلامه فى الموضوع يخرج منه :

- ١ - بأن الصدقة حرام على الرسول وأسرته ، فهى كذلك حرام على أمته .
- ٢ - أن الإسلام يكاد يكون مخطئاً - في نظره - لأن فرض الزكاة ! غير أنه معدور - أى الإسلام - لأن لهذا الفرض مسوغات كانت موجودة قديماً .

* * *

فى النقطة الأولى يقول الشيخ خالد : «لقد رأى رسول الله حفيده الحسن يمد يده نحو تمرة من تم الصدقة ويدفعها فى فمه فانتزعها منه وهو يقول له كخ كخ ، إنها لا تحل لـ محمد ولا لـ آل محمد إنها أوساخ الناس .

فهل كان آل محمد طبقة أرستقراطية خاصة تألف الهوان وتستنكف عنه ثم تبيحه لبقية الناس؟! كلا إنما هو مثل رائع يضرره محمد لهذا المجتمع الذى هو أسرته ، للمجتمع الكبير الذى هو أمته » .

لقد علمت فيما قلنا فى موضع الزكاة فى إصلاح المجتمع . أن الذين يأخذون من أموال الزكاة عن استحقاق لا يأكلون ميته ولا يرتكبون جرمًا ولا يقترون عارًا ، وقد أحل للناس أن يأكلوا من الصدقات عندما ينالونها - عن حق - بينما حرم ذلك تحريمًا قاطعاً على النبي وأسرته ، فلا يجوز بأية حال أن يأخذوا منها شرة .

وهذه خاصة بالأسرة النبوية لها دواعيها وحكمتها ، وليس الأمر متصلًا بأرستقراطية مزعومة لهذه الأسرة ، فإن وضع الرسول من حيث هو داعية إلى الله هو الذى أوجب هذا التحريم .

إن الله عز وجل يريد أن يجعل الدعوة إليه مُبرأة من كل غرض .

(١) عن كتاب الإسلام والأوضاع الاقتصادية للمؤلف .

وقد سبق أن واجه الأنبياء جميعاً الأمم التي أرسلوا إليها بهذه الكلمة التي تنص على مبدأ التجرد والإخلاص ، والتي تنفي ظنون الانتفاع والاستغلال .

بدأ بها نوح مع قومه : ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخْوَهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (١٠٦) إِنِّي لِكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١١)

ثم تتابعت - من بعد - على الألسنة المسلمين قاطبة .

١ - فإذا كانت الزكاة ركناً في الإسلام كالتوحيد والصلوة ، ركناً يقاتل الرسول دونه ، فكيف تكون الحال إذا كان له وأسرته حق الأخذ منها ؟ ! أليس في هذا ما يثير الريب ويطلق الألسنة المفترية ، لا على النبي فقط ، بل على الدين نفسه ؟ !

ثم كيف يستقيم هذا الأخذ مع كثرة إدلال القرآن بنزاهة الرسول وبعده عن كل ما يرزأ الناس في أموالهم ؟ ! : ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرُمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ (٢)

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجٌ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (٣)

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٤)

٢ - ثم إن الرسول إمام للناس ، موقفهم منه موقف الأتباع من الرعيم أو التلامذة مع الأستاذ ، أو الجنود مع القائد ، أو الأولاد مع الوالد .

بل إن مكانته المعنوية ووظيفته الأدبية ، وهو رجل منسوب إلى الله موصول بالوحى ، أسمى من أولئك جميماً .

فكيف يتصور في حقه أن يده لتكون السفلى ، فيأخذ صدقة من يد هي العليا حتماً ما دامت يد المعطى ؟ !

أو كيف يسمح لهذه الصدقات أن تصل إلى بيته عن طريق أفراد أسرته ؟ !

٣ - هب أن دولة اعتمدت في ميزانيتها مبلغًا لإعانة الضعفاء والعاجزين فهل يرضى رئيس الدولة أن يفرض له مرتب من هذا الاعتماد ؟ !

(٤) سبا : ٤٧ .

(٢) المؤمنون : ٧٢ .

(١) الشعراء : ١٠٦ : ١٠٩ .

وهل يتهم برأستقراطية إذا جعل مخصصاته من باب آخر ؟ !

إن رفض الرسول أن يكون له أو لأسرته شيء من مال الزكاة واضح الحكمة ، وما يحرم بالنسبة له ليس عجيباً أن يباح بالنسبة إلى آخرين ولا يعتبر إهانة لهم .

٤ - ولقد حُرِّم على البيت النبوى ما أبىح لآخرين من التوسيع فى المباحثات والتسبع من الطيبات .

ومعروف أن نساءه لما طلبن مزيداً من متاع الدنيا خَيَرُهُنَّ بين البقاء معه على شفط العيش أو الانطلاق إلى أهلهن ^(١) .

وهذه من خصائص النبي صلى الله عليه وسلم .

٥ - ومن خصائص الرسالة كذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس له ميراث ؛ بل كل ما تركه صدقة .

وليس الأمر كذلك بالنسبة لجمهور الأمة فتحريم أكل الصدقة خاصة للنبي ﷺ وحكم ينفرد به ولا يجوز القول بعمومه بين المسلمين .

ولا يفهم من هذا بداهة أننا نفتى بأكلها للأغنياء والقادرين .

* * *

أما الزكاة ففرضية كريمة ، وهى قبل أن تكون ضريبة على الجيوب فإنها طهارة للقلوب وتزكية للطائع وتأسيس للسماحة وتحصين للمجتمع .

وقد ذكرها القرآن بأثارها المعنوية قبل أن يذكرها بنتائجها المادية : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتَرَكِّبُهُمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ^(٢)

والزكاة بداهة ليست ذريعة التسول والتعطل ولكنها الضمان الإلهي للطفولة والشيخوخة والعجز ، والعون الطيب للمرهقين والمنكوبين والغارمين .

(١) ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرْدَنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبِّنَتْهَا فَتَعَالَيْنَ أَمْتَعْكُنَّ وَأَسْرَحْكُنَّ سَرَاحًا جَيِّلًا ﴾ . [الأحزاب : ٢٨]

(٢) التوبة : ١٠٣ .

والزكاة - في عصرنا هذا - لم تعن بها حكومة من الحكومات الإسلامية ولم تحصر متابعتها ولا مصارفها ، وهي تظهر كتصرف فردي محدود عند أفراد من الأتقياء .

ولا يوجد للآن ميل شعبي أو حكومي للقيام على هذه الفريضة الجليلة ، لتأديتها رسالتها في دائرتها .

ولا عجب فالدنيا لا تعرف فوضى اقتصادية كالتي تعرف في بلاد الإسلام .

وقد أبنت فيما صدر من كتبى أن الزكاة لا تظهر أموال الكثرة الساحقة من كبرائنا ، لأن أصولها جمعت من حرام .

فالحملة على الزكاة ناشئة أولاً عن الجهل بحقيقةتها وعن المواطن التي تنفق فيها والأصول التي تؤخذ عنها . وهي ثانياً حملة على نظام غير موجود للأسف الشديد .

ومن ثم فنحن نخشى أن تكون هذه الحملة موجهة لمشروعية الزكاة نفسها في الإسلام والأمر في هذه الحالة خطير ، فالزكاة ليست نافلة تافهة ، و شأنها لو نفذت ليست بالشأن الهزيل .

ويقول صديقنا الشيخ سيد رجب في الكلام عن الزكاة وخطورها :

إن المحبة والترابط والمواساة والعطف ، من أعظم الحقائق التي أقام الله عليها خلقه وأحکم بها أمره ، فهو سبحانه الرحمن الرحيم ، ومن هذا المصدر الأسمى فاضت الرحمة على الخلق أجمعين ، حتى تألف الحمد ، وتعاطف الحيوان ، وترابط الإنسان ، وتجاذب الأفلاك ، وأمسك الله السموات والأرض أن تزولا .

ومن هذا كان الدين في دعوته إلى البر والإحسان - كما هو في سائر نواحيه - قائماً على أساس الفطرة نفسها ، داعياً إلى حق ولو لم توجبه الشرائع لأوجبته الطبائع ، ولو لم ينزل به قرآن من السماء لتنزلت به حقائق الأشياء . ولن泥土 الزكاة إلا كلمة الله في تنظيم هذا البر والإحسان والمواساة .

لذلك كانت فريضة من فرائض الدين في كل ملة ، وشرعية من شرائع الاجتماع في كل أمة ، وركناً من أركان الإسلام التي ينهض عليها بناؤه ، وتم بها كلمته وتزكيه عليها أمته .

ومن حق المشرع الإسلامي - وهذه مكانة الزكاة في الإسلام - أن يحرص عليها ،

ويشدد في أمره ، ويضعها حيث وضعها الله في مقدم الفرائض والواجبات ، ويرتب عليها من النتائج ما هي جديرة بما ترثه وأثاره في الأنفس والأفاق .

وإن في ذكر التطهير والتزكية والتسكين مقرونة بتشريع الزكاة ما يسمح لكل ناظر في كتاب الله أو مستمع لهديه أن يدرك كنهه ويعلم حقيقته فإنها ألفاظ ومعان لا تذكر في كل حكمة من حكم التشريع ، ولا يقصد إليها عند كل فريضة من فرائض الدين !

بل هي لم تأت مجتمعة في هذا النسق البديع إلا لأغراض جلية ، وغايات بعيدة وحقائق عظمى لا يقوم لها من فرائض الإسلام غير الزكاة ، فإنها ظهرة لنفوس من الشح والبخل ، وظهور للمجتمع من الحاجة والعوز ، وتزكية للأمة - في دينها ودنياها - بإبعادها عمما يفضي إليه ذلك كله ، من الميل الخطرة ، والمبادئ الهدامة والثورات الجائحة ، التي لم يكن لها سبب في التاريخ أظهر من تمایز الطبقات - تمایزاً غير معقول - بالغنى والفقر ، والكثرة والقلة والجاه والذلة .

وإن من الأحداث العالمية التي يفتن بها الناس ، وتوج بهم موجاً في هذه الأيام ، وتقف بعضهم بيازء بعض كتلاً وأحزاباً ، وتقسم الأرض إلى قسمين ، شرقي وغربي و«بلشفي وديقراطي» وما كان غير ذلك من مذاهب وأراء قامت كلها على أساس الغنى والفقر ، والثروة والعدم ، والمنافسة في الدنيا ، ومدافعة الاستئثار بها ، إن في ذلك لآية على صدق القرآن في كلمته للرسول - عليه الصلاة والسلام - «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُظَهِّرُهُمْ وَتُرَكِّبُهُمْ بِهَا»^(١) وعلى صدق الرسول في كلمته إلينا : «اتقوا الظلم فإن الظلم - الظلمات يوم القيمة ، واتقوا الشح فإنه أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»^(٢) . وفي الحديث : «ثلاث مهلكات ، شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه ...»^(٣) .

(١) التوبة : ١٠٣ .

(٢) صحيح : بنص «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيمة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم وحملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم» أخرجه الإمام أحمد وفي الأدب المفرد للبخاري ، وصحيح مسلم وتحت رقم ١٠٢ في صحيح الجامع عن جابر .

(٣) حديث حسن : عن ابن عمر في الطبراني في الأوسط تحت رقم ٣٠٤٥ في صحيح الجامع .

الخبز هو السلام

ذلك عنوان الفصل الذى عقده الأستاذ خالد لنقد أحوالنا الاقتصادية المعوجة والكشف عن العلل الخبيثة التى أدت إليها وقد امتلاه هذا الفصل الجيد بمعان حية وعواطف حارة وشواهد صادقة ويعتبر - والحق يقال - من خير ما كتب فى هذا الموضوع^(١) . وهو كذلك أحسن أبواب الكتاب وأقلها خطأ .

ووددت لو أنه تخير له عنواناً أقل إغراماً في المادية وأدنى اعترافاً بالقيم الروحية من هذا العنوان الجاف - الخبرز هو السلام - وقد يكون له العذر في هذا الجنوح المادى فإننى أحمل «الرأسمالية الشرقية» وحدها أوزار ما تقترب من مظالم . وأوزار ما تشيره في النفوس من تطرف .

لقد وقر في نفوس الناس أجمعين أن هذه الرأسمالية تقوم على سرقة الجهد والأموال والفرص . ثم على إنفاق ما تسرقه في إشباع الشهوات ونشر الفوضى الأخلاقية والاجتماعية والسياسية .

وقد ألحأتنا تصرفات هذه الرأسمالية الملعونة إلى طول الكلام عن الإصلاح المادى وتوفير الضرورات التي لابد منها للإنسان .

وكان الإكثار من هذا الكلام على حساب النواحي المعنوية .. وعلى حساب الجانب الإلهى والنصيب الأخرى الذي لا يجوز لنا أن ننساه .

ولكن ما العمل ؟ ! وهذه الرأسمالية تغتال دنيا الناس وتحتال على دينهم ولا تبقى منهم إلا حطاماً لا يصلح لشيء ...

إننى وأنا أحد دعاة الإسلام مضطر أحياناً إلى التحدث في أمور أرضية بحثة مدة طويلة لأنه لا يمكن أن أنقل إلى الملأ الأعلى رجالاً - نسوا كل شيء تماماً - من طول ما استخدموها في الأرض ، واسترثروا لأصحابها ، واستهلكوا في إراحة نفر فاسق مفسد من شياطين الإنس .

(١) لقد أنصف الشيخ الغزالى الأستاذ خالداً واستصوب نظرته للوضع المعاصر وقتئذ .

الإصلاح المادى بين نهجين

وللخلوص من هذا الحيف والظلم توجد طريقتان لا مناص من اختيار إحداهما ،
إما اشتراكية مجردة لا تعترف بالدين أصلًا كما في روسيا ، أو قد تعترف به في حدود
ضيقه جداً كما في بعض البلدان الأوروبية الأخرى .

وإما الاشتراكية الإسلامية التي تعتمد اعتماداً مباشراً على هاتين المادتين من
دستور الإسلام :
(١) إله واحد فقط .

(٢) أخوة عامة بين الناس . فلا مكان في هذا الدستور لأرباب متفرقين من ذوى
الجاه والسلطان ، ولا لأسر مقدسة تتحل شعارات الجد الرائع والعظمة الكاذبة .
والأفراد على اختلاف لغاتهم وأوطانهم وألوانهم سواسية .

لا يجوز أن يفضل واحد على آخر ، ولا أن تتاح فرصة لامرئ دون أخيه ، ولا أن
يعمل هذا ويتعطل ذلك ، ولا أن يحرم ذلك ويعطى هذا ... ولا ... ولا ... مما تزخر
به المجتمعات في بلادنا وغير بلادنا من مظاهر الفسق والعصيان لأمر الله الواحد
القهار .
هذان هما المنهجان .

ونحن لا نقبل - للخروج من المأزق الذي وقعنا فيه - اشتراكية مجردة لا تعترف
بالدين ، ولا اشتراكية محايضة يستوى لديها الشرك والتوحيد .

لأننا واجدون في الإسلام ما نبتغيه من صيانة لأصل الإيمان ، ومن إقامة لدعائم
العدالة والمساواة بين الناس ، ومن العناصر الكاملة لبناء اشتراكية معتدلة نظيفة .
ولأننا - إذا أفسد علينا بعض السفلة من الحكام والأغنياء دنيانا - لا نريد أن نضيع

ديننا بشراء هذا الإصلاح المزعوم عن أي اشتراكية أخرى ، بل علينا أن نجاهد لكسب حقوقنا باسم الإسلام ، وسنصل إليها حتماً بتوفيق الله .

* * *

ونحن ننقل هنا فقرات من مقدمة كتاب (الإسلام المفترى عليه : بين الشيوعيين والرأسماليين) (١) تزيد هذا المعنى وضوحاً :

إن الإسلام عقيدة ونظام : والنظام في ديننا يتبع العقيدة ويقوم على خدمتها . أو هو امتداد مطلق لأثارها وفضائلها فهو تابع لها أبداً . وقد يأخذ أشكالاً مختلفة على مر الأزمنة . بيد أن ذلك يشبه اختلاف الوسائل مع اتحاد الغاية . . . وقد يظن السطحيون أن وجود مبادئ معينة في النظام الإسلامي قد تمثل به نحو اليمين أو اليسار ، وذلك خطأ . فإن مبدأ الملكية مثلاً قد يشترك في الاعتراف به النظام الإسلامي والنظام الرأسمالي . وتحريم الفائدة الربوية قد يشترك فيه النظام الشيوعي والنظام الإسلامي ، وليس معنى هذا أو ذاك أن الإسلام رأسمالي أو شيوعي . كلا . إنه منهج مستقل يستقى من طبيعته ثم يمضي في مجرى المرسوم لنفع الناس وحماية مثلهم العليا . والحالة الاجتماعية التي نعيش فيها تفرض علينا أن نذكر عن الإسلام هذه الحقائق التالية :

- ١ - أنه لا يعترف بملك من حرام ولا بكسب من سحت .
- ٢ - أنه لا يجيز معاوضة الجهد الشاق بأجر بخس ولا مكافأة العمل التافه بأجر كبير .
- ٣ - أنه لا يبيح التعطل والتسلو الفوضى ويعتبر الحكومة مسؤولة عن بقاء هذه الآفات .

* * *

«والاشراكية الإسلامية تعتمد المبادئ الرفيعة أولاً ثم تقيم الأشكال المادية

(١) هو الكتاب الرابع في حياة الشيخ محمد الغزالى .

المناسبة لها تستعين على ذلك بقوة القانون . فالأخوة العامة مبدأ ، والدولة مسؤولة عن تنفيذه وعن هدم أي وضع مادي ينافيه .

والترف مرض اجتماعي . والدولة ملزمة بسن أي تشريع مادي يمنعه . والفضائل الإنسانية ضرورة لابد منها . والدولة مسؤولة عن القوالب المادية التي تصوغها لحفظها ، وقد يتلاصهاها ذلك أن تقنن على النحو الذي تسير عليه روسيا أو أمريكا ، ولكن هذه القوانين لن تكون روسية ولا أمريكية مادام الغرض منها والدافع إليها إسلامياً مجرداً . . . ! » .

* * *

هذا هو رأينا في التشريعات الفرعية . فالعبرة بالدستور الأصيل الذي يرعاها والروح الذي يصاحبها ، ولو أن إنجلترا رأت لأسباب وطنية أن تدخل إصلاحاً على قانونها الجنائي بقطع يد السارق وبجلد الزانى فإنها لا تنقلب إسلامية بإجراء هذا التعديل في تشريعها ما دامت المسيحية دينها الرسمي !

بل قد يقال إن هذا تعديل تدعو إليه المسيحية !!

ونحن نستطيع بلا مراء أن نبقى مسلمين أو فياء لإسلامنا مهما شرّعنا لأحوالنا الاقتصادية ما قد يشابه في ظاهره نظام الشرق أو الغرب .

* * *

أنصار الاشتراكية الإسلامية

منذ تعقدت المشاكل الاقتصادية واتصلت حلولها بالصالح المباشرة للدول والشعوب ، فكر رجال الإسلام في أمرها تفكيراً ينطوى على الإخلاص للدين والتيقظ للواقع . وماله دلالة رائعة أن نتائج التفكير الإسلامي كانت متشابهة - رغم تقطع الصلات - بين الرجال الذين عالجوا قضية الاقتصاد العام وحكم الإسلام فيها .

فمنذ شهر جاءتنى عدة رسائل علمية للأستاذ المودودى^(١) رئيس الجماعة الإسلامية بباكستان . وقد قرأتها مثنى وثلاث فما كان أشد دهشتي للتقارب العجيب بل التوافق الحرفي بين أسلوب إخواننا فى الهند وما انتهوا وانتهينا إليه من مقتراحات وحلول .

وهكذا تمت المواقف بين ثمار بحثنا هنا وبين ما استقر عليه جهاد إخواننا فى الشام ؛ فقد استطاعوا إدخال مبادئ هامة للإصلاح الاقتصادي فى صلب دستورهم الجديد خاصة بتوزيع الأراضى والملكية الزراعية أصبحت الأرض به لمن يفلحها لا لمن يملكتها .

وصار من حق الدولة هنالك أن ترفع يد المالك المهمل عماليه من أرض لا يعمل فيها .

وقد وصفت «الأهرام» هذا الدستور بأنه وثيقة تقدمية . ونحن نصفه بأنه كسب محدود للجبهة الاشتراكية الإسلامية . بلى إنه محدود ! لأن دائرة الإصلاح الإسلامي أوسع مدى مما يظنه الكثيرون .

وقد بسطنا فلسفة الاشتراكية الإسلامية وذكرنا أطرافاً من برنامجهما الضخم فى عدة كتب صدرت ونشرت فصولاً منذ سنين «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» ، «الإسلام والمناهج الاشتراكية» ، «الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين»^(٢) .

وقد أصدر الأستاذ سيد قطب كتاباً غزير المادة جيد البحث فى الموضوع نفسه «العدالة الاجتماعية فى الإسلام» .

وقد تلاقت أفكار المؤلفين جميعاً عند نقط ثابتة هدتهم إليها فطرة الإسلام ووحدة السبيل ، واستهدفو فيها وصف الدواء الناجع من الإسلام نفسه لما يعانيه المسلمون فى أقطارهم المريضة من نوائب وأزمات ، دون التغفل بأمتهم على موائد الشرق أو الغرب !!

(٢) ثلاثة كتب أسهם بها الشيخ الغزالى فى هذا المجال .

(١) أبو الأعلى المودودى .

وحوش لا حُكَام

إن تعاليم الأخوة والتراحم التي ملأت كتاب الله وسُنّة نبيه كافحت أقصى كفاح ضد لون من الحكم ساد بلاد الإسلام قروناً طويلاً لو بليت به بقاع أخرى من الدنيا لما بقيت فيها مظاهر للحياة ولا معالم للعمران .

كانت الحكومات حرباً على الشعوب .

وكانت كلمة الوالي لا تعنى غير الغصب أو السرقة أو الظلم الفادح في أحلك صوره .

وكانت تعاليم الإسلام لا تستطيع إلا أن تقوم بالخدمة التي يؤديها رجال الهلال الأحمر عندما تهيج الزلازل أو تثور الحروب .

قد تطلب المريض أو تواسي الجريح أو تمسك الرمق على جائع أو تهيء المأوى لطريد أو غير ذلك من المساعدات المتقطعة .

أما الحرب التي أعلنها هؤلاء الحكام على الشعوب فقد ظلت مشتعلة الأوار ، بل لا تزال نارها تبرق - إلى اليوم - في أقطار إسلامية منكوبة .

إنها حرب على الإسلام وعلى أمته .

وقد مر بك كيف أن من هؤلاء الملوك من ألغى الحدود والقصاص بجرة قلم ، كأنما يقول لله : أنت تشرع في السماء وأنا أعطل في الأرض !

ومن هؤلاء الملوك من اعتبر نفسه مالكا لرقبة الأرض التي يعيش الناس عليها ويعملون فيها ، بل إن تاريخنا المؤسف حافل بالكثير من هؤلاء الملوك الذين سرقوا الأرض من أصحابها وأعطوها أذنابهم من المداحين والخدمات ! فكان الواحد منهم ليشارك رب العزة في اسمائه الحسني فينعت نفسه أنه مالك الملك . . . والبشر بعد ذلك هم عبيده الأذلون !

فترة قاتمة مرت بالإنسانية في شتى الأعصار والأمصار جعلت الأرض غابة ، كبارها أسود وذئاب وصغارها غنم وأرانب ، ولا مكان فيها للدين أو شرف أو خلق .

ولست أتعجب لشيء عجبي من أن يحدث ذلك في بلاد الإسلام ، وأن يبقى مقتفوه أحياه لحظة من الزمان ، وأن تند طلال هذه الفوضى وتنتشر مع أنها تقلصت فيسائر الأقطار .

والعقبات التي تعترض الاشتراكية الإسلامية ليست إلا بقايا هذا التكبر الباطل وهذا السكوت الزري .

وال المسلمين لا يزالون بشرًّا ما ابتعدوا عن هدى دينهم في البديهييات التي لو تحفظت لحتُّ ما تخلف في ديارهم دون سائر بقاع الدنيا من فوضى التملك والتعطل ووحشية الأثرة والاستبداد .

قال الرصافي يصف هؤلاء الأمراء من آل السلطنة :

و عاشوا على الرعية عاله
أعين السعى من نعيم البطاله
أعزتهم سخينة من نحاله
كى تناول النعيم تلك السلاله
و تركوا السعى والتكمب فى الدنيا
يتجلى النعيم فيها فتبكى
يأكلون اللباب من كدقه
فكأن الأنام يشققون كدا
وكأن الإله قد خلق الناس لخلياً آل المسلمين الله ..!
و حملنا من دونهم أثقاله
دونهم للوري نرد صياله
فعلينا تكون فيها الحماله
فعلينا رضاعه والكفاله
أظهروا لنا على كل حاله
إلا رسوخهم في الجھاله ..!
هم من الناس حيث لو غربيل الناس لكانوا نفایة أو حشاله ...
و تشتمئن ز العداله
و هي من حماقة و ضلاله
إلا من الأمور الخالية
ك فر بر بنا ذى الجھاله

نعموا في غضارة الملك عيشاً
فإذا صاول العدو خرجنا
وإذا هم جروا الجرائر يوماً
وإذا ما استهل فيهم وليد
قد رضينا بذلك ! لولا عتوا
ما بهم ما يميزهم عن بنى السوقه
تلك والله حالة يشعر الحق منها
هي منهم دناءة و شنار
ليس هذا في مذهب الاشتراكية
وهو في الملة الخنيفة البيضاء

إن الحاكم في الإسلام أب رحيم قبل أن يكون ذا سلطان مكين .

وناحية الرحمة في نفسه أسبق من ناحية الصرامة والشدة .

والأسوة في هذا من الرسول العظيم إذ يقول : «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة ، اقرأوا إن شئتم : ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجِهِ أَمْهَاتِهِمْ . . .﴾ إلخ . فأيما مؤمن ترك مالاً فلترثه عصبه من كانوا ، وإن ترك دينًا أو ضياعًا يتامى - فعلىً وإلىً »^(١) .

وروى عباد بن شرحبيل عن نفسه قال : أصابتني سنة - جدب - فدخلت حائطاً - بستانًا - من حيطان المدينة ففركت سنبلًا فأكلت وحملت في ثوبى . . .

فجاءنى صاحبه فضربني وأخذنى وأتى بي إلى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له .

فقال له الرسول : « ما علّمته إذ كان جاهلاً ولا أطعنته إذ كان سابغاً » .

ثم أمره فرد على ثوبى وأعطاني وسقاً أو نصف وسق من طعام^(٢) « الوسق ستون صاعاً » .

* * *

هذا إلى أن الحاكم ما كان في نظر الإسلام غير رجل مستأجر لعمل إن أحسن فيه أخذ راتبه وإلا طرد منه .

فمن انقلاب الأوضاع أن يتحون الحاكم مالكاً والأمة نفسها هي التي تؤجر أو تطرد .

وتصحيح هذا الوضع من أول مبادئ الاشتراكية الإسلامية .

وهنا استطراد دفعتنا إليه المناسبة ، أما أصول هذه الاشتراكية ففي مظانها التي حدثنا القارئ عنها قبلاً .

(١) صحيح عن أبي هريرة في صحيح البخاري وتحت رقم ٥٧٥٢ في صحيح الجامع .

(٢) صحيح . رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم في المستدرك .

أين هي ؟

وقد يتساءل المرء أليس لهذه الاشتراكية الإسلامية صور حية وتطبيقات واضحة في حاضر العالم الإسلامي حتى يمكن الاستدلال بآثارها على توجيهات الدين بصدقها .

والجواب المخزن : لا يوجد شيء من ذلك .

فإن مبادئ الإسلام منهارة في بلاده منذ أمد بعيد .

وليس هذا الانهيار في مسائل قد يصح أن تكون موضع بحث وخلاف . كما تقتربه الاشتراكية الآن مثلاً من تأميم المرافق العامة وتقيد الملكيات الخاصة . كلاماً فالانهيار يتصل بضمimir المبادئ الخلقية في الدين نفسه .

فإن سرقة الأرض المزروعة على نطاق واسع ، واعتبار منابع البترول ملكاً لفرد متسلط ، واحتكار التجارات الهمامة بواسطة عصابات معينة ، وتعريض الجماهير الغفيرة للعرى والجحود في ربوع تفريض بالذهب وتتدفق بالخير .. وغير ذلك من ظواهر الانحطاط والتلصص لا يعتبر خروجاً على مبادئ الاشتراكية الإسلامية فقط ، بل يعتبر خروجاً على قواعد الإنسانية .

فليست خلاف الشعوب مع هؤلاء الحكام على أمور غامضة من النوع الذي قال فيه الرسول ﷺ : « **الحلال بين الحرام بين وبينهما أمور مشتبهات** . فمن اتقى المشتبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه » ^(١) .

أجل .. ليس الخلاف على هذه الأمور المشتبهات .

إنما النزاع ، أيحل الحلال ويحرم الحرام أم لا ؟

أتصادر المضبوطات المسروقة أم لا ؟

أينزل الحكام إلى مراتب البشر أم يبقون في مصاف الآلهة ؟ !!

وسيبقى العالم الإسلامي أضحوكة اليهود والجوس حتى تُعرف هذه الأجوة :

(١) حديث حسن : عن عمر بن الخطاب في الطبراني في الأوسط تحت رقم ٣٩٤ في صحيح الجامع .

أى إيزاء لله ورسوله أنكى من هذا الإيذاء ؟ !
وأى صد عن الحق أخس من هذا الذى يصنعه الأوغاد من كبرائنا بهذا الدين ؟ !
أن تقدمه للإنسانية المحرومة أيد ملوثة على أنه طعام مسموم يتجرعه الإنسان ولا
يكاد يسيغه .

إن فكرة الناس عن الإسلام وأمة الإسلام لا تشرف أبداً .
وأرض الإسلام فى المصور الجغرافى للعالم هى أرض الضياع والهوان !
والصورة المستقرة فى أوهام الأجانب عن سكان هذه الأرض أنهم قطعان من
التعساء يمشون فى ركب نفر من الكبار .

أهذا مبلغ ما فعله بأنفسهم أهل الديانة القائمة على التوحيد والعدالة ﴿لَيُشَّسَّ مَا
قَدَّمْتُ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي العَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾^(١) ؟ .

وننظر إلى جانب آخر من العالم تقوم الحياة فيه على إنكار ما وراء المادة والبعد عن
الدين جملة فماذا نجد ؟ !

نشرت جريدة المصرى حديثاً لأنيس عازر بك وزيرنا المفوض فى روسيا ذكر فيه
ما يلى نقله بنصه :

«إن الغلاء فى روسيا شنيع بالنسبة إلى الأجانب ، ولكن الأسعار فيها متناسبة مع
الأجور» .

وأوضح سعادته ذلك فقال : «إن العامل أو العاملة يأخذ أجراً بحد أدنى مقداره ٥٠٠ روبل فى المدن ، ٣٠٠ روبل فى القرى ، وأنه يدفع أجر سكن زهيد ويأكل هو وأسرته بمتوسط ٦٠٠ روبل فى الشهر .

فإذا افترضنا أسرة من ثلاثة أشخاص يعملون - وليس هناك من لا يعمل فى سن
العمل - فإنهم يحصلون على دخل نحو ١٢٠٠ روبل يستطيعون أن يسكنوا ويلبسوا
ويأكلوا منه . » .

وسأله مندوب جريدة المصرى أن يحدثه عن أهم ما استلفت أنظاره هناك ؟
فقال : «العناية بالطفل ، إنها فائقة الحدود ، والأم تمنح إجازة أربعة أشهر قبل وبعد

(١) المائدة : ٨٠ .

الوضع بمرتب كامل .

والملاعب العامة تملأ كل مكان .

وأدوية الأطفال تصرف مجاناً .

والتعليم إجباري سبع سنوات ! » .

وسألنا سعادته عن الحالة الصحية هناك ؟ فقال : « طيبة ، والمستوى الطبي العلمي عال جداً » .

وبعد كلام عن مكانة الفن في روسيا لا نهتم بنقله . قال سعادته : « إن مما لفت نظره هناك بشدة انعدام الهموم ، فليس بين الناس هناك من يفكر كثيراً في متاعب أسرته » .

ثم قال : « ونظام الأسرة هناك محكم جداً . وقد كفل القانون حماية الزوجة تماماً » .

* * *

قرأت هذا الحديث ثم هجس في نفسي أن الشيطان عقد مع قرنائه من البشر تحالفاً أن يسقطوا مكانة الدين بأنجح الأساليب ، وذلك بتقدمي الإلحاد على أنه منفعة اجتماعية ، وربط الإيمان بعجلة الجوع والعرى والتشرد والمسكينة ثم تقديمه للناس .

والحق أن هذا الذي يقدم ليس إيماناً .

والذين يقدمونه ليسوا رجال دين .

والذين يحرسونه ليسوا رجال حكومات .

والله رسوله بريء من هذا الإفك وأولئك الدجالين .

والإسلام - كما قلنا - توحيد الله وعدالة بين الناس ، وعلى المنصفين من أبناء القرآن الكريم أن يذودوا عن دينهم ، وأن يطهروا ربوع الشرق - عن عجل - من الأصنام التي نصبت في أقطاره تحكر الخير وتستبعد الشعوب وتطفئ منار الإسلام !

* * *

تكثير النسل لا تحديد

إننا نؤيد الأستاذ خالدًا في حملاته العنيفة على الفساد الاقتصادي الذي خرب بلادنا وهد قوانا وأسقط اعتبارنا .

ونؤيده في أكثر المقترنات التي تقدم بها لتعمير ما خرب وتكريم من ذلوا . مع أن خالدًا من دعاة - الاشتراكية المجردة - ونحن من دعاة الاشتراكية الإسلامية ، إلا أن مسلكه في نظرنا أشرف من بعض الرجال المحسوبين على الدين ، والذين لم نقرأ لهم أى كلمة يعطفون بها على بائس أو يحاربون بها صاحب عدوان . إلا أننا نرفض رفضًا حاسمًا مقترنًا العجيب في تحديد النسل !! وربطه هذا المقترن بالإصلاح الاقتصادي ومعالم الاشتراكية .

ولسنا نزعم أن تحديد النسل حرام . فقد كتب الإمام أبو حامد في الإحياء وصدرت الفتوى من المسؤولين الرسميين عنها بإباحة التحديد إذا اقتضته ضرورات محترمة . وإنما الذي ننكره أن هناك ضرورات عامة تجعلنا ندعو الأمة إلى الاقتصاد في الأولاد !

فالحقيقة أن الفقر في مصر مرد سوء توزيع الثروة ، وسوء استغلالها لا قلة الإنتاج ، ثم إن ما يمكن إنتاجه أضعاف ما نحصل عليه فعلا .

ولو أن كل يد تستطيع العمل وجد لها المجال الذي تكبح فيه ، ولو أن الثروة الوطنية بعد ذلك وزعت على العاملين لا على القاعدين لما كان في مصر بائس ولا محروم .

إن مصر تتسع لأربعين مليونا^(١) ولا يضج فرد فيها بشكوى ؛ لو أن الحكومات في مصر فكرت في استغلال الصحراء بالزراعة والتعددين ، وفككت في استغلال بحارها الواسعة ، وفككت في استغلال موقعها العالمي الفريد ، وفككت في استغلال نيلها الذي يفيض بالخير الدافق كل عام .

إن أسباب الفقر في مصر مصطنعة !

(١) كان التعداد وقتئذ ١٨ مليون نسمة تقريبًا .

والتفكير السديد أن نعمل على إزالتها لا أن نمنع التوالت خوفاً من مواجهتها .
المعروف أن تكثير النسل محمود في العالمين الشيوعي والرأسمالي . في روسيا وأمريكا .

فما الذي يجعلنا ننجح إلى هذه الخطة المؤدية إلى تضليلنا وانكماسنا ؟ !!

* * *

أما الإسلام فراغب في زيادة النسل وساع إليه بشتى الوسائل « تناكحوا تناسلوا
تكثروا فإني مباه بكم الأم يوم القيمة » ^(١) .

وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتزوج النساء ابتغاء الولد .

وجعل إخصاب المرأة أرجح ميزاتها وأفضل حسناتها ، بل علامة ينها وبركتها
« سوداء ولود خير من حسنة عقيم » ^(٢) .

* * *

والترويج لهذا الاقتراح يحجب عن أمتنا خطأ نفسياً واجتماعياً ينبغي أن
نصارحها به .

فالحق أن الأمة الإسلامية كسرى متلاط مغبونة في وقتها مهضومة في مالها وخيراتها .
ومع أن الرقعة التي تسكنها في العالم حافلة بأسباب الشراء والقوة إلا أن الكسل
والقعود والتواكل عطل غرائز النشاط وملكات الابتكار فيها ، وقدف بها في مؤخرة
القافلة السائرة .

ولقد رأيت بقاعاً كثيرة مشحونة بالكنوز التي تفيد منها التجارة والصناعة والزراعة يقطنها
أقوام من الهمل السفهاء يعيشون على الخطف أو التسول أو التهريب أو الأشغال التافهة .

ورأيت أفراداً من الأجانب يغدون إلى هذه البقاع الغفل فإذا هي تتحول في أيديهم
منابع رزق وفيـر ، وكسب غـير ، فتأكـد لـدى أن الفـقر فـقر خـلق وـموهـبـ ، وـأن الشـرق
الـإـسـلامـي يـضـيقـ بـنـصـفـ بـنـيهـ لـوـ أـصـابـتـ سـكـانـهـ جـائـحةـ مـادـامـتـ أـخـلاقـهـمـ
وـمـسـالـكـهـمـ عـلـىـ ماـ هـىـ عـلـيـهـ مـنـ بـلـادـةـ وـخـمـولـ .

(١) حديث مرسل .. عن سعيد بن أبي هلال في مصنف عبد الرزاق تحت رقم ٢٤٨٤ في ضعيف الجامع .

(٢) عن ابن مسعود .. تحت رقم ٣٠٤٢ في ضعيف الجامع .. وقوئ بطرق أخرى .

وصدق القائل :

لعمرك ما ضاقت بلاد أهلها
ولكن أخلاق الرجال تضيق
والإسلام لا صلة له البتة بهذه الحال .
فإن القوم لم تشغليهم أعمال الآخرة عن مطالب الدنيا .
ولم يقطعوا الليل في التهجد والنهار في التسبيح حتى نقول : صرفتهم أعمال عن
أعمال ورأوا في ذكر الله غناه عن حاجات النفس وضرورات الدنيا !!
لا والله ؟ فقد قمت بتشريح أحوالهم الفكرية والمعنوية فكدت أجزم بفراغ أفندتهم
من عقيدة التوحيد مثل فراغ أيديهم من وسائل العيش !!
وخرجت من المقارنة بين نفسية كثير من المسلمين وكثير من الكافرين بالنسبة
الآتية أضعها تحت أنظار القراء ، وأطالبهم أن يتتأكدوا من صدقها بتجاربهم الخاصة .

عند المسلمين	عند غير المسلمين
١٪ من الوقت تدين .	١٪ من الوقت تدين .
٨٥٪ فراغ وغفلة للأعمال الدينية .	
١٩٪ للفراغ والغفلة .	١٤٪ للأعمال الدينية .

ولنترك وصف التدين بالفساد أو الصحة عند الفريقيين . ثم لنوازن بين النتائج
الموقعة بل الواقع لكلتا الحيثين .

إن تحديد النسل أو إطلاقه لا يصنع مع هذه الحقائق شيئاً ، فإذا ارتفع المستوى
الروحي والعقلى فإن الدعوة إلى تحديد النسل تصبح لا موضع لها .

هناك من يخوض في الدعوة إلى تحديد النسل من وجهة نظر أساسها في نظرنا
اليأس من وجود أجيال لها عزم وخلق .

إنه يرى الرقعة الخصبة في القطر المصري ضيقة ، ويرى توسيعها مستحيلاً ، ويرى
الوليد القادم شخصاً مستهلكاً لا منتجًا ، شخصاً له فم ، يطلب الطعام وليس له يد
تطلب العمل ، ولو أنها طلبته ما وجدته .

وهو لذلك يدعو بحرارة إلى الاقتصاد في النسل حتى لا تتعرض البلاد لمجاعة ، أو على الأقل لمستوى أدنى من العيش الكفاف .

وتفكير هؤلاء واضح ، ولو أن الإنجليز اعتنقوا هذا التفكير لكان عددهم خمسة ملايين فقط ، فإن جزيرتهم لا تدر رزقاً إلا لعشر سكانها .

ولكن القوم تناسلوا ونشطوا وعاشوا وملأوا بقاع الأرض حركة ودباء .

ونريد أن نسأل : هل تملّكتنا القنوط من خلق أجيال كادحة جريئة مغامرة ، لا أقول تعمّر الأرضي البعيدة عنها بالهجرة بل تعمّر أرضها هي بالإيمان والاقتدار ؟ !

إن كان ذلك حقاً ، فنحن نوصي بمنع ، وإقصاء الجماهير البليدة التي لا تقدر على الحياة . لأنها ليست للحياة أهلاً !

ويؤسفني أن أصرّ بأن نصف ثرثرة المثقفين في شئون الإصلاح لو اتجهت إلى البناء على أساس إسلامي لأنّها ألمّتنا من فقر ، وطمأنّتها من قلق .

ولكن هؤلاء المثقفين أضلّتهم عن الطريق تعاليّم أجنبية غرسها المستعمرون غرساً ليقضوا على مستقبل أمّتنا . بعد أن زلّلوا حاضرها وبحدو ما خلفها .

لقد كنت أرى حملة الإجازات العليا يتراخون في العمل بالواحات ، أو على شواطئ البحر الأحمر ، وتركوا هذه البقاع الغنية لشركات أوروبية تربع منها القنطرة ، وجلسوا هم مع بعض الصحافيين في القاهرة يتتكلّمون في تحديد النسل ، لأنّه لا عمل ، ولا طاقة !!

* * *

وسأكون أصرّ في كشف النقاب عن هذه المهزلة .

إن تقليل النسل بيننا سياسة مرسومة بمهارة وحدّد .

فإن المستعمرين هالهم أن هذه الأمة تتکاثر مغالبة عوامل الفناء المسلطة عليها ! وهذه الكثرة مع بواكيير اليقظة السارية في أوصالها مصدر خطر على هذا الاستعمار الصليبي .

ولذلك أوعزوا إلى كل وسائل الإعلام الخاضعة لهم أن تحارب هذه النزعة بين المسلمين وحدهم .

ومن العجائب المضحكة أن الخواجة سلامة موسى ، كان جهير الدعوة إلى تقليل النسل ليخدع به المسلمون من قراء الصحف .

ومات حضرته عن ثمانية أولاد !!

إن إحصاء السكان في أنحاء العالم والشرف عليه هو الاستعمار ، يعتمد تقليل عدد المسلمين في أقطار إفريقيا وأسيا ، ويشيع أن عددهم نحو ثلاثة مليون . مع أن عدد المسلمين ستة ملايين . والجهد الاستعماري الخبيث يتوجه إلى جعل المسلمين قلة بالفعل عن طريق تحريضهم على تقليل النسل ..

ومن هنا قلنا : إن تحديد النسل للأحد الناس وفق ضرورات مشروعة لا حظر عليه . أما رسم سياسة لتقليل المسلمين ، فهو للأسف هدف صليبي لكسر شوكة الأمة ، وجعلها بالنسبة للشيوعيين والنصارى نزراً يسيرًا يمكن الخلاص منه والتغلب عليه . . . والمحزن أن ذلك أصبح غاية مقررة لبعض الحكومات التي تقوم في بلاد إسلامية .

* * *

مقدمة الفرزالي

فهرست

صفحة	الموضوع
٣	تهيد
٦	مقدمة الطبعة الثانية
١٠	مقدمة الطبعة الأولى
١٣	حكم إسلامي لا قومي
١٤	فساد قديم
١٦	الحكم أداة لا بد منها لكل إصلاح
١٨	بقية من الحروب الصليبية
٢٠	شبهات حول الحكم الديني
٢٢	هل توجد الآن حكومات إسلامية
٢٤	مثار الخطأ
٢٥	الحدود وضرورة إقامتها
٢٩	جزء من عمل الحكومة الدينية
٣٠	هل نريد إيماناً أعزل أمام إلحاد مسلح؟
٣٣	غراائز الحكومة الدينية
٣٥	شطط
٣٩	إسرائيل
٤١	بدعة فصل الدين عن الدولة
٤٣	الحكم الإسلامي بين اليهودية والنصرانية
٤٥	سلطة روحية و زمنية
٤٨	هذه مغالطات
٥٠	الحكومة الدينية والمعارضة
٥٢	بين الحكم الديني والحكم القومي
٥٣	هل يذهب الإسلام ضحية هذه الافتراضات؟
٥٥	أعود إلى الجاهلية الأولى؟
٥٧	طبيعة الإسلام
٥٩	خسائر المسلمين من آثار النزعات القومية
٦١	دستور أصلي وقوانين فرعية
٦٣	مكابرة
٦٦	مؤسس دولة
٦٨	فارق بين حكمين
٧٠	الحكم السماوي بين أمتين
٧٦	تاريخ وتاريخ
٧٨	الديمقراطية الإنجليزية

٨٠	كيف مَدَّن الإنجليز الهند؟
٨٠	وكيف مَدَّنوا الصين؟
٨٢	حرب إبادة
٨٣	الديمقراطية الفرنسية
٨٥	عمى التعصب
٨٦	والديمقراطية الأمريكية
٩٠	ديمقراطية ترومان
٩٤	الإسلام بين من جاهدوا له وخدعوا به
٩٥	إخلاص
٩٧	الجبهة الإسلامية في مصر وأحوالها
٩٨	لا حاجة إلى هذه النقول
١٠٢	علماء الدين ورجال الحكم
١٠٦	الكهانة والإسلام
١١٠	السقطة الكبيرة
١١٢	كلمة صريحة
١١٤	موقف علماء الأزهر من هذه النزعة
١١٦	التحرر من الخوف والطمع والاتجاه إلى الشعب
١١٨	بين الهلال والصلب
١٣٨	المرأة والمجتمع
١٤٢	النهضة النسائية بين تقاليد الشرق والغرب
١٤٧	وظيفة المرأة الاجتماعية
١٤٨	تحسّسو الإيمان أولاً
١٥٠	المرأة والمسجد
١٥٣	بحث فقهى
١٥٨	المرأة والأدب العامة
١٦١	المرأة والقضاء
١٦٦	المرأة والعلم
١٦٩	نهضتنا النسائية بعيدة عن الإسلام
١٧٢	الإسلام والاشتراكية
١٧٣	اشتراكية الصدقات
١٨٠	الخبيز هو السلام
١٨١	الإصلاح المادي بين نهجين
١٨٤	أنصار الاشتراكية الإسلامية
١٨٥	وحوش لا حكام
١٨٨	أين هي؟
١٩١	تكثير النسل لا تحديده

